
رائعة السير هنري رايدر هاجارد| 1887
بيعت 100 مليون نسخة
هي
(عائشة)
ترجمة
عُمر عبد العزيز أمين
نُقل النص من
مجلة ابن أبي صادق
تنسيق وإخراج
إبراهيم محمد

رائعة السير هنري رايدر هاجارد | 1887
بِيعت 100 مليون نسخة



ترجمة

عُمر عبد العزيز أمين

نُقل النص من

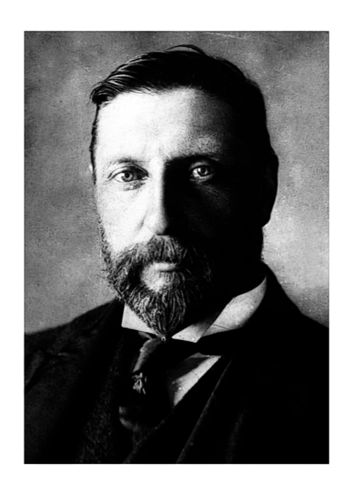
مجلة ابن أبي صادق

www.ibnabisadek.com

تنسيق وإخراج

إبراهيم محمد

Wordsonsnowtablet@gmail.com



هاجارد، السير هنري رايدر

ولد عام 1856 وتوفي 1925م، وهو روائي إنجليزي من أنجح كتاب القصة الشعبية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، قام بأنتاج 58 كتابًا في القصة، وسبعة مجلدات في التاريخ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وأنجح رواياته مبنية على تجربته في إفريقيا، يعد كتابه كنوز الملك سليمان (1885م)، من الكتب الكلاسيك، والكتاب يروي قصة البحث عن الكنز المفقود للملك سليمان، أما كتابه هي (1887م)، فيروي قصة امرأة بيضاء إفريقية يبلغ عمرها ألفي سنة ولكنها تبدو شابة جميلة.

ولد هاجارد في مدينة نورفوك بإنجلترا، ثم رحل إلى جنوب إفريقيا عام 1875م بعد أن أنهى دراسة الحقوق ليشغل منصب سكرتير حاكم مقاطعة ناتال في جنوب إفريقيا، حصل هنري على لقب فارس عام 1912م.

المصدر:

https://www.tagepedia.org/Entry.aspx?id=81071&lang=ar



(1)

كيف بدأت هذه الرواية

ليس ثَمَّة شَكٍّ في أن هذه القِصّة من أغرب القصص التي تفتَّق عنها ذهنٌ بشري، وهأنذا أعرضها على الملأ كاملةً غير منقوصةٍ بمغامراتها المُثيرة وأحداثها الخطيرة ودون أن أُهمِل أبسط تفاصيلها، على أنني أرى أوّلاً أن أُقرِّر أننى لست فيها مجرَّد راوٍ أو مُحدِّث فحسب، ولذا يتعيَّن عليَّ أن أذكر الطريقة التي حصلت بها على وقائعها.

كان ذلك منذ بضعة أعوام، فقد اتُفِقَ أن كنت واقفاً مع صديقٍ لي أمام إحدى الجامعات - ولنفرض أنها جامعة "كمبردج" (في "إنجلترا") - وقد استرعى انتباهي رجلان كانا سائريْن جنباً إلى جنب، أحدهما أجمل شابٍّ وقع عليه بصري: من قوامٍ فارع إلى منكبيْن عريضيْن تشف تقاطيع وجهه عن قوّة البأس وشِدَّة المراس وله شعرٌ ناعمٌ ذهبيٌ جميل، فسألت صديقي:

- أترى ذلك الشاب .. إنه يُذكِّرني بتمثال "أبوللو" وقد بُعِثَ إلى الحياة من جديد .. ما أجمله من شاب!

فأجابني:

- نعم .. إنه أجمل شابٍّ في الجامعة .. وهم يُطلِقون عليه "الإله اليوناني" .. وأمّا رفيقه فهو الوصي عليه.

أطلت النظر إلى ذلك الرفيق فألفيْتـه يسترعي الاهتمام كصاحبه الشاب، إذ كان في الأربعين من عُمره، دميم الوجه على عكس صاحبه، قصير القامة مُقوَّس الساقيْن، عريض الصدر، طويل الذراعيْن إلى درجةٍ غير مألوفة، أسود الشَعر، صغير العيْنيْن، يكاد شعر رأسه يُغطّي جبهته ويصل إلى حاجبيْه، وشارباه يملآن صفحة وجهه، وعلى الرغم من ذلك فإن عيْنيْه كانتا تفيضان بالبَشاشة والدَعة.

وهنالك قلت لصديقي أنني أتوق إلى التعرِّف بالشاب، فأجاب:

- هذا سهلٌ ميْسور .. فأنا أعرف "ليو فنسي" (وهو اسم الشاب) .. وسأُقدِّمك إليه.

وما هي إلّا لحظاتٌ حتى كُنّا جميعاً نتحدَّث عن قبائل "الزولو" الأفريقيّة، ولا عجب إذا تطرَّق بنا الحديث فجأة إلى هذه الناحية فإني كنت يومئذٍ حديث العوْدة من مدينة "كيب" (بدوْلة "جنوب أفريقيا")، بيْد أنه ما كانت تمضي فترةٌ وجيزةٌ حتى مرَّت بنا سيّدةٌ بدينة الجسم وبرفقتها فتاةٌ حسناء، فحيّاهما الشاب وانصرف معهما، أمّا رفيقه - واسمه "هولي" - فقد بدا عليه الاضطراب عندما أبصر بالمرأة، وكَفَّ عن التحدُّث، وحدج صديقه بنظرة عِتاب، ولم يلبث أن حيّاني وانصرف لشأنه، وقد بلغني فيما بعد أن هذا الرجل كان يخشى النساء كما يخشى المرء كلباً عقوراً (كلباً كثير العض والافتراس).

وقلَّت معرفتي بهذيْن الرجليْن عند هذا الحد فلم أرَهما بعد ذلك، ولا يُحتَمَل أن أراهما مرّةً أخرى، بيْد أنني تلقَّيْت منذ شهرٍ رسالةً وحزمتيْن من الأوراق إحداهما مكتوبةٌ بخط اليد، فلمّا فضضت غلاف الرسالة ألفيْتها مذيّلةً باسم "هوريس هولي"، وهذا نصّها:

«سيّدي العزيز:

لا ريْب أنك ستُدهَش حين تصلك رسالتي هذه، سيّما وأن صلتنا لا تعدو مُجرَّد المعرفة، على أنني أرى أوّلاً أن أبدأ بتذكيرك بلقائنا الأوّل والوحيد منذ سنوات حين تعرَّفت بي وبمستر "ليو فنسي" الذي أكفله وأشمله بوصايتي، وكان ذلك في أحد شوارع "كمبردج"، والآن دعني أُفصِح عن الغاية من رسالتي إليك فأقول أنني طالعت باهتمامٍ شديد كتاباً وضعته أنت عن رحلةٍ محفوفةٍ بالمكاره والأخطار في أواسط "أفريقيا"، وأُقرِّر أن بعض ما ذكرته في كتابك هذا صحيح والبعض الآخر من عندياتك، والواقع أن وحياً أهاب بي أن أكشف لك عن سرٍّ لا يعلم به اثنان، وقد رأيْت أخيراً أن أُصغي إليـه، ذلك أنني لاقيْت - مع ربيبي مستر "ليو" أهوالاً شداداً تفوق تلك التي ذكرتها أنت في مؤلَّفك، وستعرف ذلك من الأوراق المُرسَلة طيّه.

ولَعَمري .. كم أشعر بالرهبة والإحجام من عرضها عليك مخافة تكذيبي، وسوف تُدرِك عند قراءة هذه الأوراق أنني وربيبي كُنّا قد حزمنا أمرنا على كتمان هذا السِر إلى يوم نموت، ولكن ثَـمَّة حادثاتٍ قد وقعت أخيراً زعزعت هذا العزم، فإنها ستُرغِمنا على السفر إلى "آسيا" مهد الحكمة.

ولمّا كنا سنُطيل المقام هناك بحيث لا تُرجى لنا عوْدة فقد رأينا أنه لا شيء يحول دوننا ودون إذاعة قصّةٍ هي من الغرابة بمكان، قصّةٌ سوف تثير دهشة العالم ولا ريْب، ولم نجد مَن نعهد بها خيراً منك لتنشرها على الملأ إذا شئت، ولكن بشرط أن تحذف أسمانا الحقيقيّة وكل ما يشـير إلى شخصيّاتنا على ألّا تمس جوْهر القصة.

لم يعُد لديَّ ما أقوله، وستجد كل شيءٍ مُدوَّناً في الأوراق كما وقع تماماً، أمّا عن "هي" فليس ثّمَّة ما أذكره إذ لا أعلم مَن تكون؟، وكيف جاءت لأوَّل مرّةٍ إلى كهوف "خور"؟، وأي دينٍ تعتنق؟، وهذه مع الأسف أسئلةٌ لا جواب لها عندى.

هل لكم أن تُتِمّوا هذا العمل فتقدِّموا للعالم أجمع أعظم قصةٍ أُخرِجِت للناس؟!

صديقك المُخلِص "هوريس هولي".»

أثارت هذه الرسالة في نفسي أشد الحيرة بيْد أنني حين قرأت الأوراق الخطيّة - وكان ذلك بعد أسبوعٍ لكثرة شواغلي - اشتدَّت دهشتي وحزمت أمري على الاهتمام بالموضوع، فكتبت إلى "هولي" فوْراً لأُنبِئه بذلك، ولكن رسالتي أُعيدَت إليَّ في اليوم التالي، وأرسل لي محامي مستر "هولي" يقول أن عميله قد رحل مع مستر "ليو" إلى بلاد "التِبت" دون أن يتركا عنوانهما.

والآن هأنذا أعمل برأي صاحب الرسالة فأُقدِّم القصّة بحذافيرها بعد إجراء تغييراتٍ طفيفةٍ لإخفاء شخصيّات أبطالها، على أنني اعتزمت ألّا أُبدي رأياً فيها ولو أنني شعرت بادئ ذي بِدء بميْلٍ إلى الاعتقاد بأن هذه الأقصوصة - التي كُتِبَت عن امرأةٍ ارتدت ثوْباً من المهابة والجلال وأحاطت بها رموزٌ يعجز إدراكي عن فهمها - ما هي إلّا إحدى الخُرافات، ولكنني حين أوْغلت في قراءتها لم ألبث أن تحوَّلت عن هذا الرأي، فقد تبيَّنت الحقيقة في ثناياها.

هذه كلمةٌ لم أجد مناصّاً من كتابها لتهيئة القارئ لمطالعة ما تضمَّنته الصفحات التالية من أحداثٍ وغرائبٍ يقصّها مستر "هوريس هولي".
المؤلِّف: سير "هنري رايدر هاجارد".

* * *

(2)

كيف جاء الصندوق الحديدي إلى "هولي"

من شأن بعض الأحداث أن تُخلِّف في ذِهن الإنسان أثراً لا يُمحى، وذلك لما يلابسها من ظروفٍ و عواملٍ خاصّة، ذلك ما سأكشف عنه الآن من وقائعٍ ما زالت أمام عيْني كأنها وقعت بالأمس.

فمنذ عشرين عاماً كنت - أنا "لودفيج هوريس هولي" مُكَبّاً على حل بعض المسائل الحسابيّة في إحدى مواد دراستي بجامعة "كمبردج"، ولمّا دَبَّ الإعياء إليَّ نهضت عن مقعدي وتقدَّمت من المدفأة لأملأ غليوني تَبغاً من صندوقٍ فوْقها، وكان إلى جانبه مرآة، فملأت الغليون تبغاً وهممت بإشعاله حين لاحت مني التفاتةٌ إلى المرآة ورأيْت صورتي منعكسةً فوْقها، فجمدت في مكاني ورحت أُفكِّر، قلت لنفسي بصوْتٍ مرتفع:

- لا بأس .. آمل أن أنتفع بمحتويات رأسي مادُمت يائساً من الانتفاع بمظهري الخارجي.

لا ريْب أن هذه الكلمات تدعو إلى الدهشة، بيْد أنني أرمي في الواقع إلى دمامة وجهي، فقد وهبني الله خلقاً مُتناهياً في القُبح وعدم الانسجام، فقامتي قصيرة، وصدري ضخم، وذراعايَ طويلتان وعيْنايَ ضيّقتان غائرتان، وجبهتي ضيّقةٌ غزيرة الشَعر، ولكنه عوَّضني عن كل أولئك بقوّةٍ هرقلية جبّارة، فبقدر ماكان رفاقي ينفرون من صداقتي كانوا يهابونني ويُعجَبون بعضلاتي الفولاذيّة.

طال وقوفي أمام المرأة وأنا أُنعِم النظر إلى وجهي القبيح، ولم ألبث أن أحسست بالألم لما مُنّيت به وحدي، وفيما كنت غارقا في أفكاري إذ سمعت طرقاً على الباب، فدُهِشت ولازمت مكاني هُنيْهةً أُصغي للطرق دون أن أتقدَّم لأرى الطارق، ولا عجب فإن الليْل كان قد انتصف، وليس لي من صديقٍ يهتم بي غير واحدٍ كنت أعرف أنه مريض ولا تستطيع بنيته الضعيفة أن تحتمل قُر الليْل القارس، لكن لشد ما كانت دهشتي حين فتحت الباب وألفيْتني أُحدِق في وجه ذلك الصديق، وكان شابّاً طويل القامة نحو الثلاثين من عُمره، ينم وجهه الشاحب عن جماله الملحوظ، وما أن فتحت الباب حتى اندفع صديقي إلى الداخل وهو يترنَّح تحت ثقل صندوقٍ حديدي كان يحمله في يده اليُمنى، وسرعان ما وضعه على النضد، ثم اعترته نوْبةٌ شديدةٌ من السُعال، ولم يلبث أن تهالك فوق أحد المقاعد، وأخذ يبصق دماً، فأسعفته بكأسٍ من الخمر تجرَّعها دفعةً واحدةً فتحسَّنت حالتة رغم سوئها، ثم سألني بلهجة المؤنِّب:

- ما الذي دعاك إلى تركي بالخارج في مثل الطقس البارد وأنت تعلم أن ذلك قد يُفضي إلى موْتي.

أجبت:

- وأنَّى لي أن أعرف أنك زائري وقد انتصف الليْل أو كاد؟!

فابتسم ابتسامةً باهتةً، وقال:

- أصبت .. وأكبر ظنّي أن هذه ستكون آخر زياراتي لك .. إنني أشعر بدنوْ الساعة يا "هولي" .. ولا أمل عندي في أن أرى شمس الغد.

- ما هذا السخف .. سأذهب لأستدعي طبيباً.

فاستوْقفني قائلاً:

- كلّا .. لا حاجة بي إلى الاطباء .. أنا طبيب نفسي .. ولا شك يخامرني في دنوْ أجلي .. لقد عِشت العام المنصرم بمعجزة .. ولكن دَعنا من ذلك الآن واصغِ إليَّ باهتمام .. لأنه لن يُفسَح لي الوقت حتى أُكرِّر ما أُدلي به إليك .. لقد ارتبطنا برباط الصداقة منذ عاميْن .. فهل لك أن تجبيني ماذا تعرف عني؟

- أعرف أنك ثري .. وأنك دخلت الجامعة في السن التي يغادرها الطلبة فيها .. كما أعرف أنك كُنت متزوِّجاً وماتت زوْجتك .. وأنك صديقٌ وفيٌّ مُخلِص.

- وهل تعرف أن لي ابناً؟

- كلّا.

- إذن اعلم أن لي ولداً في الخامسة من عُمره .. وقد ماتت أُمّه أثر ولادته فنفَّرني ذلك منه ولم أحتمل رؤيته .. فهل تقبل أن تكون وصيّاً على الصبي يا "هولي؟

فأفلتت شفتايَ صرخة دهشةٍ وعجب، وهتفت:

- وصي؟!

- نعم .. كنت أعلم منذ زمنٍ طويل أن أيّامي قد أصبحت محدودة .. فرُحت أبحث عن شخصٍ أعهد إليه بالطفل وبهذا (وأشار إلى الصندوق الحديدي) .. وقد وجدت ذلك الرجل المنشود .. والآن يا "هولي" اصغِ إليَّ جيّداً: أعلم أن هذا الطفل سيكون البقيّة الباقية من أُسرةٍ من أقدم الأُسر في العالم .. لاتهزأ من قوْلي فسوف يأتي يوْمٌ تعرف فيه أن جدّي الخامس والستين أو السادس والستين كان كاهناً مصريّاً من كهنة المعبودة "إيزيس" - مع أنه كان من سلالةٍ يونانيّة، وكان اسمه

"كاليكراتس" (وتعني بالإغريقيّة: "الجميل ذو البأس") .. وأبوه من الجنود اليونانيّين الذين جمعهم "هاك - هور" أحد فراعنة الأُسرة التاسعة والعشرين .. وجدّه أو أبو جده هو "كاليكراتس" الذي ذكره "هيرودوتس".

وحوالي عام ٣٣٩ قبل الميلاد .. أى قبل سقوط الفراعنة تنكَّر "كاليكراتس" الكاهن لمواثيق الرهبنة وعهودها .. وفرَّ من "مصر" مع أميرةٍ من الأُسرة الملكيّة هامت به وأحبّته .. ولكن سفينته ارتطمت بالصخور على الشاطئ الأفريقي على مقربةٍ من خليج "دلجوي" .. بيْد أنه نجا وزوجته .. في حين غرق جميع مَن كان معهما .. وقد لاقى الزوْجان أهوالاً شداداً إلى أن أضافتهم ملكةٌ ذات قوَّةٍ وسُلطان تحكم شعباً من المتوَحِّشين .. وكانت هذه الملكة على جانبٍ عظيمٍ من الجمال .. فقتلت جدّي "كاليكراتس" لأسبابٍ لا محل لذِكرها الآن .. فستقرأها بين محتويات هذا الصندوق ذات يوْم .. وأمّا زوْجته فقد نجت من شر هذه الملكة الجهنَّميّة بحيلةٍ لا يعلمها أحد .. ثم رحلت الى "أثينا" .. وهناك ولدت طفلاً أسمته "فينسينيس" (وتعني بالإغريقيّة: "المنتقم الجبّار").

ومضت خمسمائة عامٍ أو أكثر .. ثم هاجرت الأُسرة ثانيةً إلى "روما" باسم "المنتقم" أحياءً لفكرة الانتقام من تلك الملكة .. وقد استوطنت الأُسرة مدينة "روما" نحو خمسمائة عامٍ أخر إلى أن غزا الملك "شارلمان" سهل "لمباردي" عام ٧٧٠ ميلاديّة حيث كانت تقطن الأُسرة .. ويبدو أن رئيس الأُسرة التحق بخدمة "شارلمان" وعاد معه فاجتاز بلاد "الألب" واستقر في "بريتاني" (إقليم بـ"فرنسا") .. وبعد

ثمانية أجيالٍ رحلت الأُسرة إلى "إنجلترا" في عهد الملك "إدوارد" .. وفي أيّام الملك "ويليام الفاتح" ذاع صيت الأُسرة وقويت شوْكتها في جميع أنحاء البلاد .. ومن السهل عليَّ أن أقتفي أثر أُسرتي منذ ذلك الحين إلى الآن .. فقد استبدلت الأُسرة لقبها منذ هبطت "إنجلترا" فجعلته "فنسي" .. وكل أفرادها يشتغلون بالتجارة من عهد "شارل الثاني" إلى القرن الحالي.

وفي عام ١٧٩٠ استطاع جدّي أن يجمع ثروةً طائلة .. ولكن أبي بدَّد أكثرها .. وعندما مات منذ عشرة أعوامٍ ترك لي دخلاً يُقدَّر بنحو ألفيْن من الجنيْهات سنويّاً .. وبعد موْته قُمت برحلةٍ تتعلّق بهذا الصندوق .. فتجوَّلت في أنحاء "أوروبا" حتى وصلت إلى "أثينا" .. وهناك التقيْت بزوْجتي .. فتزوَّجنا .. ولكنها ماتت مع الأسف على أثر الولادة بعد عامٍ واحدٍ من زواجنا.

وكفَّ صديقي "فنسي" عن الكلام قليلاً، واعتمد رأسه بين يديْه، ثم لم يلبث أن استطرد:

- كان زواجي حجر عثْرةٍ في سبيل إتمام مشروعٍ لم يعُد في حياتي بقيّةٌ لإتمامه .. وسوف تقف على هذا المشروع فيما بعد يا "هولي" إذا قبلت ما أريد أن أعهد به إليك .. على أنني فكَّرت في إنجاز ذلك المشروع عقب وفاةزوْجتي .. ولكني أدركت مبلغ عجزي عن القيام به حين تذكّرت أنني أجهل اللغة العربيّة .. وهذا سبب قدومي إلى الجامعة .. ولكن هيْهات الآن فقد أصبح الموْت مني قاب قوسيْن أو أدنى.

وعاودته نوْبة السُعال فأسعفته بكأسٍ أُخرى من الخمر، وبعد أن استراح قليلاً استأنف سرد قّصته، فقال:

- لم أرَ ابني "ليو" مذ كان طفلاً .. ولكنهم يقولون أنه طفلٌ جميلٌ حاد الذكاء .. وقد وضعت في هذا الغُلاف (وأخرج رسالةً معنوَنةً باسمي) الطريقة التي أريدها في تهذيب الطفل .. وقد دفعتني غرابتها إلى اختيارك لتنفيذها.

فقلت مُعقِّباً:

- ينبغي أن أعرف أوّلاً ماهية المهمّة التي ستُلقى على عاتقي.

- تتعهَّد بأن تقبل الوصاية على "ليو" إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عُمره .. كما تتعهَّد بألّا تُرسِله إلى المدرسة .. فإذا ما بلغ هذه السِن تنتهي وصايتك عليه .. ويوْمذاك يجب عليك أن تفتح الصندوق الحديدي بهذه المفاتيح .. ثم تدع "ليو" يقرأ بنفسه الوثائق التي بداخله .. ويقرر إذا كان يرغب في القيام بما هو مطلوبٌ منه أداؤه أم لا .. على أن تترك له حريّة الاختيار .. أمّا فيما يتعلّق بالشروط فإن دخلي يبلغ ألفيْن ومائتيْن من الجنيْهات .. وقد أوْقفت عليك في وصيّتي نصف هذا الدخل مدى الحياة بشرط أن تقبل الوصاية وتُنفِق من هذا المبلغ على الصبي .. وأما الباقي فيُدخَّر إلى أن يبلغ "ليو" الخامسة والعشرين لكي يتوفَّر له المال اللازم إذا أراد إتمام المهمّة التي ذكرتها لك.

وترقرقت في عيْنه دمعةٌ واستطرد في ضراعة:

- لا ترفض طلبي يا "هولي" .. وكُن واثقاً بأنه لمصلحتك .. فأنت لا تصلح للاختلاط بالعالم .. واحتكاكك بالناس أمرٌ يؤلمك .. ستنال إجازة الجامعة بعد أسابيعٍ قليلة .. فتستطيع بمرتَّبك والأموال التي أوْقفتها عليك أن تعيش في رغدٍ وهناء .. إننا صديقان حميمان يا "هولي" فاقبل رجائي .. فلم يعُد في أجلي مُتَّسعٌ للقيام بعمل ترتيباتٍ أُخرى.

تردَّدت قليلاً، ولكني لم ألبث أن قُلت:

- لا بأس .. لقد قبلت بشرط ألّا يكون في الرسالة ما يدفعني إلى تغيير رأيي.

- شُكراً لك يا "هولي" .. ليس بالرسالة شيءٌ ممّا تظن .. أقسِم لي على أن تكون أباً للطفل وأن تُنفِّذ وصيّتي حرفيّاً.

فأقسمت، وعندئذٍ قال:

- حسناً .. تذكَّر أنني سوف أسألك حساباً عن قَسَمك هذا يوم نلتقي في العالم الآخر.

ثم أصابته نوْبةٌ أخرى من السُعال، فلمّا هدأ قال وهو يقوم من مقعده بصعوبة:

- سأنصرف الآن .. وسأترك لك الصندوق .. وستجد وصيّتي ضمن أوراقي .. وبموجبها سيُسلَّم إليك الطفل.

ثم نهض، ونظر إلى وجهه الشاحب في المرآة، وقال محدِّثاً نفسه:

- عمّا قريب ستصبح طعاماً للدود .. فقد انتهت المرحلة .. وجاء اليوْم الموْعود.

وتحول إليَّ وقال مودِّعاً:

- الوداع ياصديقي.

وأحاطني بذراعيْه وقبَّلني بحنان، ثم تهيّأ للانصراف، فقُلت له:

- تمهَّل يا "فنسي" ريثما أستدعي طبيباً.

ولكنه ابتسم وقال:

- لا فائدةٌ يا صديقي .. تذكَّر القَسَم.

وغادر الغُرفة وانصرف في تؤدَّةٍ وضعفٍ ملحوظ.

خلوْت إلى نفسي، فأطلقت العنان لتفكيري، وكان أوّل ما جال بخاطري أن "فنسي" لا بُد أن يكون ثملاً، ولم أشَأ أن أُصدِّق أنه سيموت قبل طلوع الفجر كما تكهَّن، وقد جعلني ذلك أرتاب كثيراً في صحّة القصّة التي ألقاها على مسامعي منذ هُنيْهة.

وتدافعت مئات الأسئلة إلى عقلي المُضطرب، ولكني لم استطِع أن أجد جواباً واحداً مُقنِعاً، وخفت أن أُصاب بالجنون فهُرِعت إلى فراشي تخلُّصاً من هذه الأفكار المزعجة، ولم ألبث أن رُحت في سُباتٍ عميق.

وعندما أفقت في صباح اليوْم التالي سمعت شخصاً ينادي باسمي، فأسرعت لأرى المُنادي فإذا به الخادم الذي يتولّى خدمتي وخدمة "فنسي" وقد راعني شحوب وجهه، فسألته:

- ما لي أراك شاحب الوجه؟! .. هل اعترضك أحد الأشباح؟!

فأجاب:

- نعم يا سيّدي .. فقد ذهبت لأُوقِظ مستر "فنسي" كالعادة فوجدته جُثّةً هامدة.

*	*	*

(3)

"ليو" .. يكبر وينمو

كان لموت "فنسي" الفُجائي ضجَّةٌ عظيمةٌ في الجامعة، ولكن لمّا كان الجميع يعلمون طبيعة مرضه فإن أحداً منهم لم يهتم بالبحث عن سبب الوفاة، وانتهت المسألة عند هذا الحد، وقد جاء أحد المحامين من "لندن" لتشييع الجنازة .. ثم استأذن مدير الجامعة، وزار غُرفة "فنسي" واستوْلى على جميع أوراقه، ومن ثَمَّ كرَّ عائداً إلى "لندن".

وبعد أسبوعٍ فرغت من أداء الامتحان النهائي، واستأنفت حياتي العادية مرِحاً طروباً لحصولي على إجازة الجامعة بتفوّقٍ عظيم، وكان أول ما طاف بذِهني تلك المهمّة الشاقّة التي ألقاها "فنسي" التَعِس على كاهلي قبل موْته، وزيارته الغريبة لي عند منتصف الليْل، ونبوءته الشاذّة عن موْته العاجل، والقَسَم الرهيب الذي أقسمته، وكان أهم ما يشغل تفكيرى ويُربِكني هو موت "فنسي" السريع حتى لقد خطر لي أنه لابد انتحر .. ولكني لم استطِع أن أقطع في الأمر برأي، فتملَّكتني الحيرة والقلق، وتسرَّب الخوْف إلى قلبي، وودِدت لوْ أني رفضت التدخُّل في هذه المُشكلة الأليمة.

وبينما كنتت غارقاً في هواجسي وأفكاري إذ طرق الباب، فأذِنت للطارق بالدخول، فإذا به الخادم يحمل إليَّ ملفّاً ذو غلافٍ أزرق، أدركت في الحال أنه مُرسَل من أحد المحامين، فتناولته وفضضته فوجدت بداخله رسالةً هذه نَصُّها:

«سيّدي:

ترك المرحوم مستر "فنسي" الذي مات يوم 9 من الشهر الجاري في مساكن الطلبة بجامعة "كمبردج" وصيّةً عهد إلينا بتنفيذها، وطيّه صورةٌ من هذه الوصيّة، وستسوْلى – بموجب هذه الوصيّة – على نصف دَخْل مستر "فنسي" مدى الحياة بشرط أن تقبل الوصاية على ابنه "ليو فنسي" البالغ من العُمر خمسة أعوام، ولا نخفي عليك أن هذا الوصيّة غريبةٌ وخارقةٌ للعادة، ولوْلا تعليمات مستر "فنسي" الصريحة القاطعة الواضحة في إنفاذ هذه الوصيّة بمنتهى الدِقّة لعرضناها على ولاة الأمور ليتكفَّلوا بالمحافظة على مصالح الغلام، لكن لمّا كان مستر "فنسي" من الرجال الذين عُرِفوا بالاتزان والذكاء؛ ولمّا كنا نعلم ألّا أقرباء له على قيْد الحياة نستطيع أن نعهد إليهم بتربية الطفل؛ فلم نجد مفرّاً من مجاراته في السبيل الذي ارتأى سلوكه.

إننا في انتظار تعليماتك فيما يتعلَّق بتسلُّم الطفل والمبالغ المُستَحَقّة، وتفضّل بقبول تحيّاتنا.

مكتب المحاماة: "جوفري وجوردان".»

وضعت الرسالة جانباً، و التقطت الوصيّة، فألفيْتها مفرَّغةً في قالبٍ قانونيٍ متين، ولكنها لا تحوى جديداً على ما كاشفني به "فنسي" قبيل موْته، وعندئذٍ قرَّرت تسلُّم الغلام.

شاهد أيضًا

وفجأة .. تذكّرت الرسالة التي أعطانيها "فنسي" مع الصندوق الحديدي،فأخضرتها وفضضتها فوجدتها تحوي تعليماتٍ عن فتح الصندوق يوم يبلغ "ليو" الخامسة والعشرين، وأُخرى عن كيفيّة تعليمه

والمواد التي تُدرَّس له وهي عبارة عن اللغة اليونانيّة واللاتينيّة والعربيّة والعلوم الحديثة والرياضيّات العالية، وفى ذيْل الرسالة وقع بصري على تعليماتٍ أُخرى تُشير إلى أنه إذا مات الغلام قبل بلوغ السِن المُحدَّدة ففي استطاعتي أن أفتح الصندوق وأُنفِّذ التعليمات الموجودة بداخله إذا أردت، وإلّا فيجب أن أعدم جميع الوثائق ولا أدع أحداً يستوْلي عليها مهما كانت الظروف.

لم يكن في هذه الرسالة ما يحملني على العدول عن وعدي لصديقي الميّت، ولِذا سارعت بإرسال رسالةٍ إلى المحامي أنبِئه بقبول الوصاية على الطفل واستعدادي لإتمام المهمّة بعد عشرة أيّام.

وقد أرغمني هذا التحوُّل الجديد على ترك الجامعة واستئجار مسكنٍ على مقربة منها، وألحقت بخدمتي رجلاً رضي الخُلُق قَبِلَ أن يُربّي "ليو" عند وصوله، وبعد ذلك نقلت الصندوق الحديدي إلى خزانةٍ للحفظ بأحد المصارف، ثم انصرفت إلى دراسة بعض المؤلَّفات عن تربية الأطفال مع "جوب" (اسم الخادم).

جاء الصبي أخيراً مع مربيةٍ عجوز، وكان جميل الوجه، أسود العيْنيْن، عريض الجبهة، ذهبي الشَعر، وعندما حان موْعد انصراف المربية بكى "ليو" قليلاً، فمددت إليه يدي، لكنه لم يعبأ بي، وحينئذٍ صرخ "جوب" صرخةً تُشبِه تغريد البُلبُل ثم قدَّم للصبي حصاناً صغيراً من الخشب، وما هي إلّا بُرهةٌ حتى أقبل نحوي وهو يقول:

- إني أُحبّك .. فإنك رغم دمامتك طيّب القلب.

لندع الحديث عن تلك الفترة الذهبيّة التي انصرمت منذ ذلك اليوم حتى بلغ "ليو" الخامسة والعشرين من عُمره .. ولكنني لا أستطيع أن أغفل

التنويه عن تطوُّر العلاقة بيني وبين هذا الشاب الرائع، فقد ظلَّت تتوطَّد من سنةٍ لأُخرى حتى أصبح مني في منزلة الابن عند أبيه، ولم يكن هذا الجمال الذي امتاز به الصبي منذ صغره إلّا ليزداد بروزاً على مر الأيّام، حتى لقَّبه رفاقه في الجامعة بلقب "الجميل"، كما لقَّبوني بلقب "الوحش".

وأمّا فيما يتعلَّق بثقافة "ليو" فقد اتَّبعت في تهذيبه تعليمات أبيه ولقَّنته اللغة اليونانيّة واللاتينيّة والعربيّة والعلوم والرياضيّات، فإذا ما بلغ الثامنة عشرة ألحقته بالجامعة فنال إجازةً عاليةً وهو في الحادية والعشرين، وعندئذٍ صارحته لأوّل مرّةٍ بطرفٍ من قصّته والسر الرهيب الذي أُسدِل عليه الستار، فأبدى اهتماماً بالأمر ولكنني أنبأته بأن الوقت لم يِحن بعد، وأن عليه أن ينتظر.

(4)

فتح الصندوق الحديدي

استعدنا الصندوق الحديدي من المصرف في اليوم السابق لليوْم المُحَدَّد لفتحه، وعقب إفطارنا في صباح اليوْم التالي جاءنا الخادم "جوب" بالصندوق، ووضعه فوق النضد ثم استدار للانصراف، فاستوْقفته قائلاً:

- مهلاً لحظةً يا "جوب" .. إني أُفضِّل أن تبقى شاهِداً على ما سيحدث .. إذا لم يضر ذلك مستر "ليو".

فقال "ليو":

- ليكُن ما تشاء يا عمّاه.

قُلت:

- أوْصِد الباب بالمفتاح يا "جوب" .. وهات صندوقي.

فامتثل الخادم، وأخرجت المفاتيح الثلاثة - التي أعطانيها "فنسي" ليْلة وفاته - من الصندوق، وكان أحدها عاديّاً، والثاني قديماً، والثالث غريب الهيْئة، إذ كان مصنوعاً من الفضّة على شكل مفاتيح قُضبـان السِكك الحديديّة.

وتحوَّلت إلى رفيقيَّ وقُلت:

- هل أنتما على استعداد؟

فلم يُجيبا، فتناولت أكبر المفاتيح بيدٍ مُرتجِفةٍ وعالجت القُفل حتى فتح، فوجدنا بداخله صندوقا آخر أخرجناه وأزلنا ما علق به من غُبار، وكان هذا الصندوق من خشب الأبنوس الأسود، ورفعت الغطاء، فلم تلبث أن

أفلتت من شفاهنا جميعاً صيْحات الدهشة؛ إذ رأيْنا بداخل هذا الصندوق علبةً كبيرةً من الفضّة طولها اثنا عشر قيراطاً وارتفاعها ثمانية قراريط، ولا ريْب أنها كانت من صُنع قدماء المصريّين، فقد كانت قوائمها الأربع على شكل "أبي الهول"، وفوْق غطائها المُقوَّس تمثالٌ صغيرٌ لـ"أبي الهول" أيضاً.

رفعت العُلبة من مكانها ووضعتها على المنضدة ثم أولجت المفتاح الغريب في ثقب القُفل وأدرته ففتح، وإذا بداخلها مادّةٌ خيْطيّةٌ أشبه بأوْراق الأشجار الجافّة إلى حدٍ ما، فأخرجتها بحذرٍ تام، وحينئذٍ عثرت على مظروفٍ عاديٍ كُتِب عليه العنوان التالي بخط صديقي نفسه:

«إلى ابني الحبيب "ليو" إذا قُدِّر له أن يعيش حتى يفتح هذه العُلبة»

قدَّمت الرسالة إلى "ليو" فنظر إلى المظروف ثم ألقاه فوق النضد، وأشار إليَّ أنِ استأنِف إخراج محتويات العُلبة ففعلت، وعثرت على قطعةٍ من الجلدِ الرقيق طُوي بعنايةٍ شديدة ففضضته، وألفيْته مكتوباً بخط "فنسي" أيضاً، وفي أعلاه ما يأتي:

«ترجمة الكتابة اليونانيّة المنقوشة على قطعة الخزف»

فوضعتها جانباً، ثم أخرجت حزمة أخرى من الجلد الأصفر وفضضتها، فإذا بها تتضمَّن ترجمة نفس الكتابة اليونانية المنقوشة على الخزف ولكن إلى اللاتينيّة هذه المرّة، وقد أوْحى إليَّ شكل هذه اللفافات الجلديّة بأنها قد كُتِبت في صدر القرن السادس عشر تقريباً.

كان تحت هذه الحزمة مباشرةً جسمٌ صلبٌ ثقيلٌ ملفوفٌ بخِرقةٍ بالية من الكِتّان، فأخرجت هذا الجسم من مكانه بكل عنايةٍ وحذر، وإذا بها قطعةٌ من الخزف صفراء اللوْن، طولها عشرة قراريط ونصف وعرضها سبعة

قراريط وسُمكها رُبع قيراط، وهي مكتوبةٌ بالخط اليوناني القديم في سطورٍ ضيّقةٍ رفيعةٍ زالت بعض كلماتها، ولكن ذلك لم يؤثِّر في إمكان قراءتها.

وقد لفت نظري أثر لحامٍ بالأسمنت عند منتصف القطعة ممّا دَلَّني على أنها كانت قد كُسِرت في يوْمٍ من الأيّام، على أن النقوش المتعدَّدة التي رأيْتها في جوْفها استرعت نظري بصفةٍ خاصّة وجعلتني أعتقد أنها سُطِرت بمعرفة قوْمٍ مُختلِفين في أزمنةٍ مُختلِفة.

حينذاك همس "ليو" في انفعال:

- هل من شيءٍ آخر؟

كان هناك كيسٌ من الكِتّان يحتوى جسميْن صلبيْن صغيريْن نُقِش على أحدهما بالهيروغليفيّة ما معناه "سوتين – رع" أي بمعنى "ابن الشمس"، وكان الجسم الثاني صورة أم "ليو" اليونانيّة، وهي امرأةٌ جميلةٌ ذات عيْنيْن سوْداويْن، وقد دوَّن "فنسي" المسكين على ظهرها هذه العبارة "زوْجتي المحبوبة".

تحوَّلت إلى "ليو" وقلت:

- لا شيْء غير ذلك.

فوضع "ليو" الصورة فوق النضد، وكان ينظر إليها بحنانٍ وعطف، وقال:

- حسناً .. لنبدأ الآن بقراءة الرسالة.

ثم فض المظروف، وقرأ علينا ما يلي بصوْتٍ مرتفع:

«ولدي العزيز:

عندما تفض هذا المظروف - إذا قُدِّر لك أن تعيش لتفعل ذلك - تكون قد بلغت مبلغ الرجال، أمّا أنا فأكون قد قضيْت وبِت نسياً منسيّاً، لكن تذكَّر وأنت تقرأ هذه الرسالة أنني - بواسطة المداد والورق - أبسط إليك يدي من وراء هاوية الموْت ويخاطبك صوْتي من جوْف القبر الرهيب، وإني - وإن كنت قد مُت ولم يبقَ في ذِهنك شيءٌ من ذكرياتي - فإنني معك في هذه اللحظة التي تقرأ فيها رسالتي.

منذ ولادتك ألى هذا اليوْم لم أرَ وجهك الجميل، فاصفح عني فقد قضت حياتك على حياة مَن أحببتها حُبّاً مَلَكَ عليَّ شغاف قلبي، ولو أطال الله في أجلي لتغلَّبت على هذا الشعور المُنطوي على الحماقة، لكن مثلي لم يُخلَق ليعيش طويلاً، فإن متاعبي وآلامي العقليّة والجسمانية أثقل من أن أستطيع حملها، ولذا عوَّلت على أن أضع حدّاً لهذه الآلام إذا ما نجحت في إتمام الترتيبات اللازمة كي أضمن لك السعادة، وليغفر لى الله إذا اقترفت إثماً فإنني لن أعيش أكثر من عامٍ واحد....»

فهتفت مقاطِعاً:

- أكبر ظنّي أنه انتحر.

فلم يُجِب "ليو"، ولكنه استأنف قراءة الرسالة:

«....كفاني الآن حديثاً عن نفسي، إذ يجب أن أتحدَّث عنك، لأنك لا تزال على قيْد الحياة، أمّا أنا فقد طواني الموْت وانتقلت إلى عالم النسيان.

لا ريْب أن صديقي "هولي" الذي سأجعله وصيّاً عليك - إذا قَبِل - قد أفضى إليك بشيءٍ من تاريخ أُسرتك القديم، وستجد داخل هذه العُلبة ما يكفي لإثبات ذلك التاريخ، وقد أعطاني أبي وهو على فراش الموْت قطعةً من الخزف التي سجلت جدّتك الأولى عليها قصّتها الغريبة، فأثَّرت

في ذِهني تأثيراً عجيباً، وحاولت أن أستجلي غموضها وأنا في التاسعة عشرة، كما حاول أحد أجدادنا أيضاً إبّان حُكم الملكة "اليصابات"، ولست بمستطيعٍ الآن أن أسرد عليك تفاصيل ما أصابني، لكن يكفي أن أُقرِّر أنني شاهدت صخرةً تُشبِه رأس زنجيٍ على شاطئ "أفريقيا" - لم تُكتَشَف بعد - على مبعدةٍ من شمال مصب نهر "الزمبيزي"، وهذه الصخرة تُشبِه تمام الشبه تلك التي جاء ذِكرها في الأوراق القديمة، وقد نزلت إلى البر في تلك البقعة وعلمت من أحد الوطنيّين الجوَّالين - الذين نفاهم مواطنوهم لجرائمٍ اقترفوها - أن في الأراضي الداخلية جبالاً سامقة (شاهقة) على هيْئة أوْعية، وكهوفاً تُحيط بها مستنقعاتٌ لا حد لها.

كما علمت أيضاً أن السُكّان هناك يتكلّمون اللغة العربيّة وتحكمهم امرأةٌ بيضاء جميلة، لا يروْنها إلّا لماماً (نادراً)، ولكنها تحظى بسُلطةٍ واسعةٍ تشمل الأحيـاء والأموات معاً.

وبعد أن تحقَّقت من صحّة أقواله بيوميْن مات الرجل، وكان قد تعهَّد بُمرافقتي فلم أجد مندوحةً من العوْدة لقِلَّة المؤن ولإصابتي بمرضٍ ألزمني الفراش فيما بعد.

وقد لاقيْت في عوْدتي أهوالاً شداداً، إذ جنحت بي السفينة على شاطئ جزيرة "مدغشقر"، وأنقذتني إحدى السُفُن الإنجليزيّة بعد عِدّة شهور، ونقلتني إلى "عدن"، ومنها أتيْتُ إلى "إنجلترا" وفي نيّتي مواصلة البحث بعد أن أعيد ترتيب أوراقي وأعد العدة لرحلةٍ أخرى، على أنني عرجت في طريقي على "اليونان"، وفيها التقيت بأُمّك المحبوبة وتحابيْنا، وارتبطنا برباطةٍ زوْجيّة، ولكن وا أسفاه؛ فقد ماتتت أُمّك عقب

ولادتك، ثم أصابني مرضي الأخير، فعُدت إلى هنا لأموت، بيْد أنني لم أقطع الأمل، فتعلَّمت اللغة العربيّة، وقد حزمت أمري على العودة الى شاطيء "أفريقيا" إذا تحسَّنت صحّتي لأحِل اللُغز المُغلَق الذي فشل أفراد أُسرتنا في إماطة اللثام عنه عبر العصور، ولكن صحّتي زادت سوءاً، فانتهت المسألة عند ذلك بالنسبة لي، ولكنها لم تنتِه بالنسبة إليك، وهأنذا أعهد إليك بنتيجة أبحاثي مع البراهين التاريخيّة عن مصدرها.

وقد رأيْت ألّا تصلك هذه البراهين إلّا وأنت في سِنٍّ تستطيع فيها أن تختار بين البحث في أمرٍ إذا صَحَّ كان أعظم سِرٍّ في العالم، أو نبذه كأسطورةٍ اخترعها ذِهن مُضطرِب لامرأةٍ مكلومة، على أنني لا اعتقد إنها كذلك، إنما أعتقد أنه إذا أمكن معرفة سِرّها - أي الأسطورة - سَهُلَ الوصول إلى حيث توجد القوّة الحيويّة للعالم، إذ لمّا كانت الحياة موجودةً فعلاً؛ فلماذا لا توجد كذلك الوسائل اللازمة لصيانتها إلى أجلٍ غير مُسمَّى؟!

مهما يكُن من أمرك وقارك فلا رغبةٌ عندي في التأثير عليك، فاقرأ واحكُم نبفسك، فإن شِئتَ في النهاية أن تقوم بالمهمّة فقد زوَّدتك بما أنت في حاجةٍ إليه من الوثائق، أمّا إذا أخذت القصّة على أنها أسطورة فأوصيك أن تعدِم قطعة الخزف والكتابات المُرفَقة بها حتى تستريح أُسرتنا من هذا الأمر إلى الأبد.

فاختَر يا بُنيَّ لنفسك ماتشاء، ولتحفظك تلك القوّة التي تُسيْطِر على الجميع ولتُرشِدك إلى سعادتك وسعادة العالم.»

وبهذا انتهت الرسالة دون تاريخٍ أو توقيع.

وضع "ليو" الرسالة على المنضدة وهو يلهث، ثم قال:

- ما رأيك أيّها العم "هولي" .. ها نحن أولاء قد عثرنا على اللُغز الذي سعيْنا إليه.

فأجبت:

- أتريد رأيي؟ .. ليكُن .. لقد ركب أبوك متن الشطط ولا ريْب .. وقد كان هذا رأيي فيه منذ عشرين عاماً عندما جاء إلى غُرفتي .. ولا يخالجني الشك الآن في أنه

قضى على نفسه .. وهذا جنونٌ محض.

فقال "جوب" مُعقِّباً:

- أصبت يا سيّدي.

فالتقط "ليو" الترجمة التي كتبها أبوه، وقال:

- لننظر الآن فيما جاء بقطعة الخزف.

وقرأ علينا ما يلي:

«أنا "أمنارتس" من البيْت الملكي في "مصر" وزوْجة "كاليكراتس" (الجميل ذو البأس) وهو أحد كهنة المعبودة "إيزيس"، أقول لابني الصغير "فينسينيس" "المُنتقِم الجبّار" وأنا على وشك الموْت أنني هربت مع أبيه من "مصر" في عهد الملك "نختافيس"، بعد أن دفعه حُبّه لي إلى التنكُّر لعهود الرهبنة التي قطعها على نفسه، فأوْغلنا صوْب الجنوب وعبرنا المياه، وتجوَّلنا عاميْن على شاطئ "أفريقيا" المواجه للشمس عند مشرِقها حيث توجد صخرةٌ كبيرة تُشبِه رأس زنجيٍ ضخم بجانب النهر العظيم وقد قذفتنا المياه على مسيرة أربعة أيّامٍ من مصب هذا النهر، فغرق بعضنا، وقضت الأمراض على البعض الآخر، وأمّا نحن فقد قبض علينا قوْمٌ زنوجٌ متوَحِّشون، وحملونا كَرْها معهم واجتازوا بنا

صحارى ومرتفعات، وظلّوا يضربون في بطن الأرض عشرة أيّامٍ حتى بلغنا جبلاً مُجوَّفاً شُيِّدَت بمداخله مدينةٌ تهدَّمت، بها كهوفٌ ومغائر (جمع مغارة) لم تكتحل عيْنا أحدٍ برؤية نهايتها، وهناك قدَّمونا إلى ملكتهم الحاكمة، وهي ساحرةٌ تعرف كل شيْء، وتتمتَّع بجمالٍ وحيويّةٍ لا يفنيان بل خالدتان خلود الدهر، فلما وقع بصرها على أبيك أحبّته وأرادت التُخلُّص مني لتستخلِصه لنفسها وتتزوّجه، ولكنه كان يهيم بي حُبّاً فلم يُذعِن لإرادتها.

وأخيراً؛ ساقتنا بوسائلٍ سحريّةٍ مُروِّعةٍ إلى الهاوية السحيقة التي وضعت جُثّة أحد الفلاسفة عند مدخلها، وأرَتنا "عامود الحياة الدائر" سر الخلود والذي يُشبِه صوْته صوْت الرعد، ثم دخلت فيه وتوسَّطت النيران فلم يمسسها أذى، وبعد بُرهةٍ خرجت من بين اللهب سالمةً وقد ازدادت قوّةً وفِتنةً وخلوداً، ثم أقسمت أن تسمح لأبيك بالدخول في نار "عامود الحياة" لتجعله في مأمنٍ من الموْت مثلها إذا قتلني ووهبها نفسه حيث أنها لم تسطِع قتلي بسحرها إذ كنت أقوى منها سحراً، بيْد أن أبيك أبي أن يُذعِن أيضاً، وغطَّى عيْنيْه بيديْه، فاستشاطت غضباً وسلَّطت عليه سحرها فقتلته في الحال بعد أن تملّكتها نوْبة غضبٍ سريعة، ولكنها ثابت لرشدها فجأة بعد أن سبق السيْف العَذَل فجلست بجوار جثمانه تبكي عليه طويلاً، وحملته وهي تعول (تُكثِر من النواح والعويل)، ولمّا كانت تهابني فإنها أرسلتني إلى مصب النهر العظيم حيث حملتني إحدى السُفُن إلى مكانٍ سحيق، وهُناك ولدتك يا "فينسينيس"، وبعد التجوُّل في عدّة بلدانٍ مجهولة وصلت إلى "أثينا".

يا بُني: ابحث عن هذه المرأة ، وتعلّم سِر الحياة، وإذا استطعت فاقتلها انتقاماً لأبيك "كاليكراتس"، أمّا إذا تقاعست - جُبناً منك أو عجزاً - فليقُم بإتمام هذا الواجب المُقدَّس أيٌّ ممَّن يجيئون بعدك من سلالتك، فليغتسل بنيران الخلود ويرتقي عرش الفراعنة.

ربما يخطر ببالك أن ما أُحدِّثك عنه من باب الأساطير والخرافات، ولكنني أؤكِّد لك أنها حقائقٌ ثابتةٌ لا أثر للكذب أو الاختلاق فيها.»

وكان "جوب" يُصغي إلى تلك القصّة الخارقة وهو مأخود، فلم يلبث أن صاح:

- عفا الله عنها.

وأمّا أنا فلذُتُ بالصمت، وخطر لي بادئ الأمر أن صديقي المسكين "فنسي" اخترع القصّة كلها عندما فقد وعيه، ولو أني كنت واثقاً أن أى إنسانٍ يعجز عن اختراع مثل هذه القصّة المُدهِشة، ولكى أُزيل هواجسي وريبتي التقطت قطعة الخزف، وشرعت أقرأ الكتابة اليونانيّة المُسطَّرة فوقها فألفيتها بخطٍّ جميلٍ قديم ولهجةٍ صحيحةٍ بالنسبة لأميرةٍ مصريّةٍ من بيْت فرعوْن، أمّا الترجمة اللاتينيّة والإنجليزيّة فقد كانت دقيقةً إلى أقصى حد،

قلَّبتُ قطعة الخزف في يدي وقد زادت حيرتي، فوقع بصري على توْقيعاتٍ وملاحظاتٍ كُتِبَتْ باللغة اليونانيّة واللاتينيّة والإنجليزيّة، ومن بينها العبارة التالية موقَّعاً عليها بإمضاء "فينسينيس" ومكتوبةً باللغة اليونانيّة القديمة:

«لم أستطِع الذهاب ... من "فينسينيس" إلى ابنه "كاليكراتس الثاني"»

وأمّا :كاليكراتس الثاني" فقد سجَّل العبارة التاليـة باليونـانيّة القديمة أيضاً بعد أن حاول إتمام المهمّـة ففشل:

«لم أستطِع لأن الآلهة قاومتني ... من "كاليكراتس الثاني" إلى ابنه»

وهكذا كان أفراد العائلة يتوارثون هذه المهمّة الشاقّة من جيلٍ إلى آخر وقد تلت ذلك قائمةٌ بأسماء كثيرين سجَّلوا أسماءهم بالخط الروماني ممّا يدل على أن الأُسرة هاجرت إلى "روما"، ويعقب ذلك قائمةٌ أُخـرى مكتوبةٌ بالإنجليزيّة وجميعها يحمل لقب "فنسي".

كل هذه الأسانيد التاريخيّة القاطعة جعلتني أُجزِم بأن القصّة حقيقيّةٌ لا غُبار عليها رغم غرابتها وشذوذها.

وإذ فرغت من فحص هذه النقوش العجيبة تحوَّلت إلى "ليو"، وقلت:

- هذه هي كل القصّة يا "ليو" .. فكوِّن رأيك عنـها .. أمّا أنا فقد كوَّنته.

فأسرع "ليو" يقول:

- وما هو؟

- أرى أن ما جاء بقطعة الخزف صحيح .. وأن هذه القِطعة في حوْزة أُسرتك منذ القرن الرابع قبل الميلاد .. ولا أدل على ذلك من النقوش التي في بطنـها .. فيجب قبول الحقيقة على عِلّاتها.

فسأل "ليو":

- وما رأيك فيما ذكره أبي عمّا رآه وسمعه هناك؟

- ذلك من قبيل الصُدَف .. إذ لا ريْب في أن الشاطيء الأفريقي مزدحمٌ بالصخور التي تُشبه رأس إنسان .. كما أن كثيرين من سُكّان القارّة يتكلّمون لغةً عربيّةً غير صحيحة .. ويؤسفني أن أُقرِّر أن أباك لم يكن يتمتع بكامل قواه العقلية عندما كتب هذه الرسالة .. ولا ريْب عندي أن

إيمانه العميق بهذه القصّة ملأ ذِهنه .. وهو بطبيعته رجلٌ خيالي .. فجسَّمت له مُخيِّلته المُضطرِبة ما فيها من حقائق قد لا تعدو ما نراه كل يوم .. لكن مهما يكن؛ فإني لن أُصدِّق حتى أرى بعيْني تلك النيران المقدَّسة التي جاء ذكرها والتي تُمكِّن الإنسان من التخلُّص من الشيْخوخة والموْت ولو إلى حين.

وتحوَّلت إلى "جوب" وسألته:

- ما رأيك يا "جوب"؟

- إنها قصّةٌ مكذوبةٌ ياسيّدي .. وحتى إذا كانت صحيحة؛ أرجو ألّا يعيرها مستر "ليو" أي اهتمام .. إذ لا جدوى منها ولا خيْر من ورائها.

ثم قال "ليو" في لهجةٍ حازمة:

- قد تكونان صادقيْن .. ولكنني حزمت أمرى على وضع حدٍ لهذه المشكلة إلى الأبد .. فإذا لم ترغبا في مُرافقتي فسأذهب وحدي.

أمعنت النظر في وجهه، فتميّزت أمارات العزم والتصميم مرتسمةً عليه، وعندئذ تملَّكني الإعجاب برجولته وبطولته، وقرَّرت فيما بيني وبين نفسي أن أرافقه في رحلته.

استطرد "ليو" والحماسة تعلو قسماته (ملامحه وتقاطيعه):

- نعم .. لقد قرَّرت الرحيل يا عمّاه .. فإذا لم أعثر على "عامود الحياة الدائر" فإنني على الأقل سأجد المجال واسعاً لصيْد الوحوش في غابات "أفريقيا".

وحينئذٍ وجدت الفُرصة مناسِبةً للتدخُّل، فقلت:

- الصيْد؟! .. حقّاً .. لم يخطر ذلك ببالي .. نعم .. إن "أفريقيا" قارّةٌ واسعةٌ مُكتظَّةٌ بالحيوانات والوحوش .. ولَعَمري أن الفرصة سانحة لكي

نجرِّب مهاراتنا في إصابة الهدف .. فإذا كنتَ مُصمِّماً على السفر فسأرافقك إلى "أفريقيا" بكل ارتياح.

فقال الشاب:

- حسناً تفعل .. لكن كيف السبيل للحصول على المال اللازم؟

- لا تهتم بالمال .. فعندنا منه الشيء الكثير.

وهنا تدخَّل "جوب" في الحديث وأعرب عن رغبته في مرافقتنا، فأجبناه إلى طلبه لِما عهدناه فيه من أمانةٍ وإخلاص خلال العشرين عاماً الماضية.

وبعد ثلاثة أشهرٍ ركبنا البحر في طريقنا الى "زنزيبار".

* * *

(5)

عاصفةٌ في البحر

انتصف الليل، وآوى أغلب رُكّاب السفينة إلى قُمراتهم إلّا أعرابيّا قوي الجسم اسمه "محمد" وقف بجانب الدَفّة، يُحرِّكها مُسترشِداً بالنجوم.

وفجأة، برز من جوْف البحر خطٌّ ضئيلٌ لا يكاد يُرى على مبعدة ثلاثة أميال، وكان هذا الخط شاطئ وسط "أفريقيا" وفيما كنا نرقب الطبيعة الساحرة؛ إذ مزَّق السكون صوْتٌ مُروِّع صادرٌ من ناحية الشاطئ .. فرفع الأعرابي يده مشيراً إلى مصدر الصوْت وقال:

- هذا أسد.

وتكرَّر الزئير فارتعدت أوصالنا جميعاً، وقلت لـ"ليو":

- ينبغي أن نبحث غداً صباحاً عن الصخرة التي تُشبِه رأس الزنجي لنبدأ بالصيْد.

فابتسم "ليو" وأخرج غليونه من فمه، ثم أجاب:

- بل لنبدأ بالبحث عن أطلال المدينة المُخرَّبة و"عامود الحياة الدائر".

- حديث خُرافة .. لقد سمعتك تتحدَّث إلى الأعرابي اليوْم بلغته .. فماذا قال لك؟ .. إنه قضى معظم حياته في الاتجار بالرقيق في هذه البقاع وشاهد الصخرة الغريبة ولا ريْب .. فهل يعرف شيئاً عن المدينة المُخرَّبة أو المغاور والكهوف؟

- لا .. لقد قال أن الأراضي الداخليّة ملأى بالمستنقعات .. وتكثر فيها الأفاعي والوحوش .. وأنها خالية من السُكّان.

- هذا صحيح .. وكذلك تكثُر فيها الأمراض .. وإني لعلى ثقةٍ من أننا لو أطلعنا أحداً ممَّن يرافقوننا في هذه الرحلة على الحقيقة لرمونا بالجنون .. فخيْر لنا أن نعود أدراجنا إلى "إنجلترا" على أن نقذف بأنفسنا بين الوحوش والسفّاكين.

- رويْدك يا عمّاه .. لقد قَرَّ رأيي على إتمام هذه الرحلة .. ولن أعدِل عن هذا الرأي مهما كانت الظروف .. أنظر .. ما هذه السحابة؟!

وأشار إلى بقعةٍ سوْداء على مبعدة بِضعة أميالٍ من مؤخِّرة السفينة، فأجبته:

- اذهب وسَل الرجل الواقف عند الدَفّة.

فأطاع، ولم يلبث أن عاد وقال:

- يقول أنها زوْبعة .. ولكنها ستمر بعيداً عَنّا.

وأقبل "جوب" في تلك اللحظة وهو يرتدي ملابس الصيْد، وترتسم على وجهه أمارات القلق وقال:

- أرى من الأوْفق أن أنام داخل الزوْرق الصغير في مؤخِّرة السفينة حيث توجد بنادقنا وأمتعتنا لأتولّى حراسته بما فيه .. فإنني لا أستطيع احتمال نظرات هؤلاء السود التي تُشبِه نظرات اللصوص .. لنفرض أن أحدهم تسلَّل إلى الزوْرق وقطع الحبل الذي يشدّه إلى السفينة فماذا يكون حالنا؟!

أعجبني اقتراح "جوب" فقد كنا نعتز بهذا الزوْرق الذي صنعناه في "إنجلترا" خصّيصاً للتجوال في الفجوات الضيّقة التي يمتاز بها الشاطئ الأفريقي، حيث كان لهذا الزوْرق حافظاتٌ هوائيّةٌ مبنيّةٌ فيه ومن شأنها أن تجعله طافياً حتى إذا امتلأ من الداخل بالماء ،وكنا قد وضعناه على

صفحة الماء خلف السفينة وربطناه بحبلٍ متينٍ بخلفيّتها لتجرّه ورائها أثناء تلك الرحلة البحريّة، فقلت لـ"جوب":

- ليكُن ما تشاء يا "جوب".

ثم تعاونّا في شد الحبل الواصل بين السفينة والزوْرق فجذبناه حتى حاذي السفينة، فقفز "جوب " إلى داخله، وسقط بين الأمتعة كما لو كان جوالاً من البطاطس، وأمّا أنا و"ليو" فعدنا إلى أماكننا وجلسنا حوالي الساعة ثم غلب علينا النعاس فنمنا.

ولا أذكر شيئاً بعد ذلك سوى أنني استيقظت فجأةً على زئير الرياح ورشاش ماء المحيط وهو يضرب وجوهنا بقسوة، ورأيت الرجال يحاولون إنزال الشراع لكنهم أخفقوا ،فانبعثت واقفاً وتعلَّقت بأحد الحبال وكان الجوْ مُظلِماً من ناحية المؤخِّرة ولكن القمر كان ينير لنا السبيل من ناحية المقدِّمة، ثم لم ألبث أن رأيْت موْجةً جبّارةً مُقبِلةً نحونا بسرعةٍ هائلة وأشعة القمر الفضيّة تنعكس على قِمَّتها المُغطّاة بالزَبَد، وجاءت مياه الموْجة مندفعةً إلى الأمام بقوّةٍ فأغرقت كل شيءٍ على سطح السفينة، وبعد أن مرّت تلك الموْجة العملاقة رأيْت صاري السفينة ينكسر وشراع السفينة يطير بعيداً كأنه سحابةٌ تدفعها الريح، ومالت السفينة للخلف بشِدَّة آخذةً في الغرق، حينئذٍ سمعت "جوب" يناديني وهو متشبّثٌ بسور الزوْرق صارخاً:

- تعالَ إلى الزوْرق .. اقفز بسُرعة.

غاص قلبي بين جنبيَّ في تلك اللحظة فقد غمرني الماء حتى خصري، وبدأت السفينة تغوص ببطءٍ إلى قاع المحيط، وكان الزوْرق يترنَّح بقوّةٍ تبعاً لاهتزاز السفينة، ثم رأيت "محمداً" الأعرابي يقفز إلى القارب،

فجذبت الحبل الذي يشدّه إلى السفينة بكل قوّتي إلى أن اقترب الزوْرق مني فوثبتُ إليه وتلقّاني "جوب" بين ذراعيْه، وأسرع "محمد" فقطع بمطواته الحبل الذي يربط الزوْرق بالسفينة حتى لا تشد الزوْرق معها إلى الأعماق، وما هي إلّا لحظاتٌ حتى ابتلع اليَم السفينة بالكامل، وبعد هُنيْهة كان الزوْرق يسير بنا مُبتعِداً عن الزوْبعة.

وبعد أن تمالكت أعصابي صرخت فجأة:

- يا إلهي .. أين "ليو"؟! .. "ليو" .. "ليو".

فصاح "جوب" في أُذُني - وكان صياحه كهمسٍ خفيفٍ لشِدَّة هبوب الزوْبعة – قائلاً في حُزن:

- لقد ذهب ياسيّدي .. فليساعده الله.

فضربت كفّاً بكفٍ في يأسٍ وقنوط فقد مات "ليو" وبقيت أنا حيّاً أندبه، وهتف "جوب":

- حذارِ ياسيّدي .. فقد أقبلت موْجةٌ أُخرى.

أدرت عيْني فرأيت موجةً هائلةً قادمةً نحونا فتمنيْت لو أغرقتنا.

ولمّا راقبت الموْجة باهتمام - وكان القمر قد اختفى ولم يبقَ إلّا ضوْءٌ ضئيل - رأيْت فوق قِمَّتها جسماً داكناً معتماً لم يلبث أن اقترب منا، فمددت ذراعي نحو هذ الجسم بدافعٍ خفيٍ لم أدرِ كنهه، وعندئذٍ شعرت بشيءٍ يقبض على يدي بعنف، وعلى الرغم من قوَّة بنيتي وساعديَّ فقد شعرت في تلك اللحظة بأن ذراعيَّ تكادان تنفصلان عن جسدي بسبب ثقل الجسم الطافي، ولو قد استمرَّت زوْبعة هذه الموْجة لحظةً أخرى لأفلت ذلك الجسم من يديَّ أو لسقطت أنا في اليم، بيْد أن الموْجة مرَّت بعد أن غمرت المياه الزوْرق إلى منتصفه، وصاح "جوب":

- انزح الماء .. انزح الماء.

بيْد أنني لم آبه له؛ إذ كنت منصرفاً إلى انتشال الجسم بمعاونة الأعرابي، وقد نجحنا أخيراً في إخراجه من الماء ومددناه في الزورق.

وفي تلك الأثناء تبدَّد الظلام قليلاً فتفرّست في وجه ذلك الغريق، ولشد ما كانت دهشتي وفرحي حين عرفت فيه أنه "ليو"، وصرخ "جوب":

- انزحوا الماء .. انزحوا الماء.

فتناول كلٌ مِنّا وعاءً وأخذنا ننزح الماء لإنقاد أرواحنا، وكانت الزوْبعة تزأر من حوْلنا وتتلاعب بالزوْرق، ولكننا لم نأبه لها وانصرفنا إلى عملنا حتى أمكننا أن ننزح الماء بعد خمس دقائق.

لكن وا أسفاه، طغت علينا في تلك اللحظة أمواجٌ أُخرى أشد هوْلاً من الأولى، ولكن "محمداً" استطاع أن يتغلَّب عليها جميعاً بفضل خبرته الواسعة ومعرفته بأحوال تلك البقاع الغريبة.

طلع القمر ثانيةً، فرأينا على ضوئه رأسا صخريّاً داخلاً في البحر إلى مسافة نصف ميلٍ أو أكثر وينتهي بأكَمَةٍ غريبة الشكل لا تبعد عنا أكثر من ميلٍ واحد.

فتح "ليو" عْينيْه في تلك الأثناء، وشرع يهذي بكلامٍ غير مفهوم، فأمرته أن يُغمِض عيْنيْه ويلزم الصمت، فأطاع دون أن يُدرِك دِقّة موقفنا، وأمّا نحن فانصرفنا إلى الابتهال والصلاة لعل الله يُنقِذنا من تلك الورطة المؤلمة، وكان الإعياء قد بلغ منا كل مبلغٍ فلم نستطِع التحرُّك، إلّا "محمداً" فإنه ظل يُحرِّك الدَفّة والزوْرق يسير بنا حوْل الصخرة التي مر ذِكرها.

والتف الزوْرق حوْل الصخرة يدفعه التيار إلى أن قلّت سرعته فجأة ثم وقف تماماً، إذ كنا قد بلغنا منطقة المياه الراكدة.

وهدأت الزوْبعة، وانقشعت الغُيوم، وصفا الجوْ، فألفيْنا أنفسنا عند مصب نهرٍ كبير فولجناه، ثم سِرنا فيه بهدوءٍ وسلام، وكان "ليو" نائماً نوْماً عميقاً فرأيت من الحكمة ألّا أوقظه خشية أن يُؤثِّر ذلك في أعصابه، وآثرت أن أتركه بثيابه المُبتلَّة حتى يستيْقظ من تلقاء نفسه فلم تكُن لديْنا ثيابٌ جافّة.

وهكذا قضت الزوْبعة على رُكّاب السفينة جميعاً إلا نحن الأربعة .

* * *

(6)

بعض الصدق في القصة

طلع الفجر أخيراً، فجلست في الزوْرق أُصغي إلى حفيف الماء، وأرقُب قُرص الشمس وهو يظهر في الأفق رويْدا رويْداً، وسرعان ما أخذت عيناي الصخرة الغريبة أو الأَكَمَة التي تنتهي بالرأس الصخري، فرُحت أحدق فيها حتى نزلنا إلى الشاطئ، وسِرت نحوها وأنا ذاهل، فقد كان شكلها يُشبِه رأس زنجيٍ له وجهٌ مُخيف، كان المنظر غريباً فلم تُساوِرني الريْبة في أن هذا الرأس ليس من صُنع الطبيعة، وإنما من صُنع شعبٍ مجهولٍ نحته في الصخر رمزاً لقوّته وسخريةً من أعدائه، كما قصد قدماء المصريّين من صُنع "أبي الهوْل".

بيْد أنني لم استطِع التثبُّت من حقيقة الأمر لاستحالة وصولي إلى الصخرة برّاً أو بحراً، على أن الحقائق التي تكشفت لنا فيما بعد أثبتت أن هذا الرأس من صُنع الإنسان، وأنه قد انقضى عليه ألفا عامٍ وهو رابضٌ في مكانه ينظر إلى المحيط بعيْنيْه الجامدتيْن، وسيظل هكذا جيلاً بعد جيل.

وكان "جوب" جالساً على حافّة الزوْرق، فأشرت إلى رأس الزنجي وسألته:

- ما رأيك في ذلك يا "جوب"؟

وللمرّة الأولى حوَّل "جوب" عيْنيْه إلى حيث أسير، ولم يلبث أن هتف:

- يا إلهي! .. أكبر ظنّي أن هذا السيّد قضى طيلة حياته في انتظار المُصوِّر ليلتقط صورته.

فانفجرت ضاحكاً بصوْت عالٍ، فاستيقظ "ليو" على ضِحكي وصاح:

- يا الله! .. ماذا دهاني؟! .. أشعر بالجمود يُسيْطِر على جميع أعضاء جسمي .. أين السفينة؟ .. إليَّ بكأسٍ من الخمر يا "جوب".

فقلت له:

- شد ما يسرني أنك نجوْت من الموْت يا بُني .. لقد غرقت السفينة بمَن عليها إلّا نحن .. وأمّا أنت فقد نجوْت من الموْت بمعجزة.

وطفقت أقص عليه ما لاقيْناه من أهوالٍ شدادٍ أثناء الليل، وأخيراً قال بصوْتٍ خافت:

- يا للسماء! .. إن مجرِّد التفكير فيما تقول يُرسِل الذُعر إلى القلب.

وأقبل "جوب" بزجاجة خمرٍ في تلك اللحظة، فشربنا جميعاً كميّةً كبيرةً منها، وشعرنا بالدماء تتدفَّق في عروقنا بعد أن كاد يجمد، وأرسل "ليو" بصره إلى المحيط، ثم هتف:

- آه!! .. هو ذا الرأس الذي جاء ذِكره في الكتابة العتيقة.

فقُلت:

- نعم .. ها هو.

فقال بلهجةٍ جديّة:

- إذن فالقصّة كلها حقيقيّة!

- لست أرى ما يحملنا على هذا الاعتقاد .. فقد رآها أبوك من قبل وكنا نعلم أنها هنا .. ومن المُحتَمَل أن تكون هذه هي الصخرة نفسها التي ورد ذِكرها في الكتابة العتيقة .. ولكن ذلك لايدل على شيء.

فانفرجت شَفتا "ليو" عن ابتسامةٍ خفيفةٍ وقال:

- إنك يهوديٌ مُكابِر أيّها العم "هولي" .. مَن يعِش يرَ.

- أصبت يا بُني .. إننا سائرون الآن نحو مصب النهر .. أمسك المجداف يا "جوب" .. ودعنا نبحث عن مكانٍ لننزل فيه إلى البر ونُعسكِر هناك.

وأعملنا المجاديف في اليم، ولم تلبث أن هبَّت ريحٌ قويّة ساعدت الزوْرق على السيْر، وبعد قليلٍ وصلنا إلى مصب النهر، فأجَلنا البصر على شاطئه، فرأينا مستنقعاتٍ واسعةً وتماسيح ممدَّدةً فوْق الطمي كجذوع الأشجار، وعلى مبعدة ميلٍ إلى الأمام لمحنا أرضاً يابسة فجدَّفنا نحوها، ولم يمضِ وقتُ طويلٌ حتى بلغناها، فشدَدنا الزوْرق إلى جذع شجرةٍ على شاطئ النهر، ونزلنا إلى البر، وخلعنا ثيابنا وتركناها لتجفَّ في الشمس، ثم اغتسلنا في النهر وصعدنا إلى البر، فأفطرنا بشهيّة، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث بعض الوقت.

وأخيراً؛ فرغنا من تناول الطعام، فرُحنا نقلِّب الطرف فيما حوْلنا فألفيْنا أنفسنا في قطعة أرضٍ جافّة عرضها نحو مائتي ياردة وطولها نحو خمسمائة، يحيط بها النهر من ناحية وتُحيط بها مستنقعاتٌ تمتد إلى مدى البصر من النواحي الثلاث الأُخرى، وكانت هذه البقعة تمتد إلى مدى البصر من النواحي الثلاث الأخرى، كما كانت مرتفعةً فوق سطح النهر والمستنقعات بنحو خمسة وعشرين قدماً، ويُوحي شكلها بأنها من صُنع الإنسان.

هتف "ليو" بلهجة التوْكيد:

- لقد كانت هذه البقعة رصيف ميناء .

- حديث خرافة .. مَنذا الذي يبلغ به الجنون إلى حد أن يبني رصيفاً في بلادٍ كلّها مستنقعات وسُكّانها من المتوَحِّشين؟

ثم استدركت:

- هذا إذا كان فيها سكان.

فقال ليو:

- ربما لم تكُن هذه البلاد مملوءةً بالمستنقعات في الماضي .. وربما لم يكُن أهلها من المتوَحِّشين.

وأشار إلى شجرة مانجوليا اقتلعتها العاصفة من جذورها في الليْلة الماضية وقد اقتلعت معها جُزءاً من الأرض، ثم قال:

- انظر هناك .. أليست هذه أحجار بناء؟

فقُلت للمرّة الثانية:

- حديث خرافة.

وتقدَّمنا من الشجرة، ثم أنعمنا النظر في الحُفرة التي قُطِعَت منها فرأينا بها الأحجار وأثر الأسمنت، ووجدنا في قاعها حلقةً حجريّة، وعندئذٍ لُذْتُ بالصمت التام، في حين قال "ليو":

- يُخيِّل أنه كان هنا رصيف ميناءٍ لرسو السُفُن الكبرى .. أليس كذلك أيّها العم "هولي"؟

حاولت أن أُسَفِّه رأيه ثانيةً ولكن الكلمات انحبست في حلقي، فقد أفصحت الحلقة عن تاريخها بما لا يدع مجالاً للشك، وقلت لنفسي أنه من المُحتَمَل أن تكون المدينة التي كانت تنقل هذه السفائن تجارتها واقعةً وراء هذه المستنقعات.

قال "ليو":

- يبدو أن في القصّة شيئاً من الحقيقة أيّها العم "هولي".

فلم أُجِب مباشرةً، وما كان في استطاعتي أن أُجيب بعد أن رأيْت هذه الأدِلَّة الساطعة التي تفقأ العيْن المُبصِرة، وأخيرا قُلت:

- لا بُد أن تكون في الممالك الأفريقيّة آثار قومٍ ماتوا من زمنٍ بعيد .. فإن أحداً لا يستطيع أن يُحدِّد عُمر المدنيّة المصرية، ومن المُحتَمَل أنه كانت لها فروعٌ، ثم أن هناك الفينيقيّين والبابليّين والفُرس وغيرهم من الشعوب التي بلغت حَدَّاً كبيراً من الحضارة والرُقي، فمن المحتمل أنه كان لأحد هذه الشعوب مستعمراتٌ هنا أو أسواقٌ للتجارة.

- أصبت أيّها العم .. ولكنك لم تقُل ذلك من قبل.

فقلت مُغيِّراً مجرى الحديث:

- حسناً .. والآن ماذا ستفعل؟

ولمّا لم يُجِب؛ سِرنا إلى حافّة المُستنقعات، وأطلن النظر إليها، ولكننا رأيْناها تمتد على مدى البصر وقد خيَّم فوقها الضباب وأخذت تتصاعد منها روائحٌ كريهة، فانثنيْت إلى رفاقي الثلاثة وقلت:

- ثَمّة أمران لا يقبلان الجدل: أوّلهما استحالة اجتياز هذه المستنقعات .. وثانيهما أننا إذا بقينا هُنا لفتكت بنا الأوبئة .. فإمّا أن نعود إلى زوْرقنا لنبحث عن أحد المرافئ - وهو عملٌ محفوفٌ بالأخطار - وإما أن نسير في النهر.

فقال "ليو":

- لقد حزمت رأيي على السيْر في النهر.

فتأوَّه "جوب" والأعرابي، أمّا أنا فقد مِلتُ إلى الأخذ برأى "ليو"، إذ أثارت رأس الزنجي ورصيف الميناء فى نفسي عوامل الفضول إلى حدٍّ مُعيَّن.

عُدنا إلى الزوْرق ونشرنا الشراع ثم انطلقنا في النهر تساعدنا ريحٌ مُعتدِلة، وكلّما وقع بصرنا على أحد الطيور البحريّة اصطدناه حتى تجمَّع لدينا عددٌ وافرٌ منها.

وانتصف النهار واشتدَّت حرارة الشمس إلى درجة لا تُطاق، وكانت الروائح الكريهة تتصاعد من المستنقعات فاضطررنا إلى تناول مقدارٍ من "الكينا" (نوع من المشروبات)، وبعد قليلٍ كفَّت الريح عن الهبوب فآثرنا الالتجاء إلى الشاطئ من وهج الشمس وقد رسوْنا تحت ظلال أشجارٍ تُشبِه أشجار الصفصاف حتى أذنت الشمس بالمغيب فخفَّت آلامنا ومتاعبنا.

وقد اصطاد "ليو" وعلاً جميلاً جاء ليشرب من النهر، فعوَّلنا على البقاء في هذه البُقعة لنتخذ منه طعاماً للعشاء، وإذ فرغنا من تناول الطعام حاولنا النوْم، ولكن عبثاً؛ فقد داهمتنا جيوشٌ هائلةٌ من البعوض أخذت تلدغنا بوحشيّةٍ حتى كدنا نفقد عقولنا، فاضطُرِرنا إلى الاحتماء بالأغطية من قِمَّة الرأس الى إخمص القدم.

وفجأة؛ مزَّق السكون زئير أسدٍ أعقبه زئير أسدٍ آخر وسط الغابات على قيْد نحو سِتّين ياردةٍ مِنّا، فأخرج "ليو" رأسه من تحت الغطاء، ولم يلبث أن هتف:

- يا للشيْطان! .. انظروا هناك.

فأطل كلٌ منا برأسه، وهتف "جوب":

- إنها الأسود تزحف نحونا لتفترسنا ياسيّدي.

وتناول "ليو" بندقيّته في الحال، فاقتديْت به، بيْد أننا لم نلبث أن رأينا لبؤةً تتقدَّم نحونا حتى صارت على قيْد خمسة عشر قدماً، ثم زأرت، فانتهز "ليو" الفُرصة وأطلق عليها رصاصةً اخترقت فمها المفتوح ونفذت من عنقها، فسقطت في الماء وأحدث سقوطها دويّاً عظيماً، وعندئذٍ زأر الأسد وصرخ صرخةً مروِّعةً انخلعت لها قلوبنا، ثم وثب إلى داخل المياه، فصاح "محمد":

- يا الله! .. لقد أمسكه تمساحٌ من قائمته الخلفيّة.

وفي الواقع رأينا تمساحاً يُمسِك بالأسد من قائمته، فحاول الأسد أن يفلِت منه، ولمّا لم يفلح أخذ يملأ الجوْ بزئيره المخيف، ثم قبض على رأس التمساح واشتبكا في صراعٍ عنيف، انتصر التمساح في نهايته على الأسد فقتله، ولكن هذا لطم التمساح في رأسه وهو في النزع الأخير فقتله أيْضاً.

كان هذا الصراع المميت منظراً عجيباً ومُخيفاً معاً، وأكبر ظنّي أن قلائل من البشر رأوا مثله.

* * *

(7)

صعوداً مع النـهر

تأهَّبنا للرحيل عند الفجر، بيْد أنه ما كاد بصري يقع على وجهيْ "جوب" و"ليو" حتى انفجرت ضاحكا، لقد تَوَرَّم وجهاهما من لدغات البعوض، أمّا أنا فكنت أحسن حالاً منها بكثير وذلك لخشونة جلد وجهي ولأن معظمه مُغَطًّى بالشعر.

وإذ طلعت الشمس فرفعنا الشراع وسِرنا في النهر، فلمّا انتصف النهار هدأت الريح واشتد الحَر فنزلنا إلى الشاطئ، وضربنا خيامنا ثم تغديْنا، وقرَّرنا البقاء في هذه البُقعة حتى صباح اليوْم التالي.

انقضى اليوْمان التاليان على هذه الحال، وفي اليوْم الخامس من رحلتنا – وكنا قد قطعنا حوالي مائةً وأربعين ميلاً من النهر - وقع لنا أوّل حادثٍ هام؛ ذلك أننا كنا قد بلغنا في فجر اليوم الخامس تُرعةً ذات عرضٍ ثابتٍ قدرة نحو خمسين قدماً تتَّصل بالنهر الأكبر، وكانت هُناك بعض الأشجار مغروسةً فوق الشاطئ فاسترحنا تحت ظلالها، ولمّا كانت الأرض جافّةً في تلك البُقعة فقد انطلقت مع "ليو" لنصطاد بعض الطيور لطعامنا ونستطلع حالة المنطقة، لكن ما أن سِرنا نحو خمسين ياردةً فقط حتى أدركنا استحالة التقدُّم في النهر لتحوُّله إلى مستنقعاتٍ واسعة لا يزيد عُمقها على سِتّة قراريط، وعندئذٍ عُدنا أدراجنا، وسِرنا علي شاطئ النهر الصغير الآخر، ولكن سرعان ما أدركنا من مختلف الإدِلّة أنه ليس

بنهر، بل تُرعةٌ قديمةٌ من صُنع الإنسان، وكانت شواطئها وعُمقها على نَسَقٍ واحد، وقد نبتت الحشائش على جانبيْها.

أدركت أنه من العبث استئناف السيْر في النهر الأكبر وأنه لم يعُد أمامنا سوى أحد أمريْن: إمّا أن نسير في التُرعة أو نعود إلى المحيط، إذ لم يكن في استطاعتنا البقاء خشية الشمس المُحرِقة والأمراض الفتّاكة.

قلت:

- أكبر ظنّي أنه يتعيَّن علينا السيْر في الترعة.

فأمَّن الجميع على قوْلي، وما أن قَرُبَت الشمس حتى أعملنا المجاديف في اليَم نحو ساعة، ولكن الأعشاب والحشائش أقامت في طريقنا سدّاً حتى تعذَّر علينا تحريك المجاديف، فاضطررنا أن نلجأ إلى وسيلةٍ ثانيه؛ هي جذب الزوْرق، فكنت أنا من ناحية و"محمد" من الناحية الأخرى نجذب الزوْرق في حين راح "ليو" وهو جالسٌ داخله يُزيل الأعشاب من طريقه بسيْف "محمد"، حتى إذا جَنَّ الليْل نمنا في الزوْرق، وفي الفجر استأنفنا عملنا إلى الساعة العاشرة حين داهمتنا زوْبعةٌ عاتية، ثم أمطرتنا السماء بماءٍ منهمر.

لا أراني بحاجةٍ إلى ذِكر تفاصيل رحلتنا في الأيّام الأربعة التالية، ويكفي أن أقول أنها كانت أتعس أيّامٍ قضيْتها في حياتي، وأنه لوْلا جرعات "الكينا" التي كنا نتناولها لقضت علينا الحُمى.

ظللنا على هذه الحال أربعة أيّام، ولكننا لم نستطِع الاستمرار، فقد أعيانا التعب وما بذلنا من جهد، ولم يعُد في استطاعتنا جذب الزوْرق خطوةً أخرى، وخُيِّل إلينا أن أفضل وسيلةٍ ممكنةٍ هي أن نُلقي بأنفسنا إلى هذه المستنقعات، وأخيراً قرَّرنا أن ننام لنستريح.

غلبني النعاس مباشرةً فأغمضت عيْني واستسلمت لنوْمٍ مُضطَّربٍ لم ألبث أن أفقت منه مُنزعِجاً على أثر حُلم مروِّع، ولكن سرعان ما انتفضت لمشهدٍ أكثر هوْلاً، فقد رأيت عيْنيْن واسعتيْن تحدقان في وجهي، فانبعثت واقفاً، وأخذت في الصراخ حتى استيْقظ رفاقي، نهضوا وهم يترنَّحون من تأثير الخوْف والنوْم معاً، ولكني لم ألبث أن رأيت حُساماً مسلولاً وُضِعَ فوْق عُنقي وخلفه رِماحٌ تلمع بشكلٍ مخيف، ثم سمعت صوتاً يقـول باللغة العربيّة:

- لا تخافوا .. مَن أنتم الذين جِئتم تسبحون فوق الماء؟ .. تكلّموا وإلّا قتلناكم.

وضغط بالحُسام على عُنقي، فغاص قلبي بين ضلوعي وانتابني الذعر، وأجبت بالعربية:

- نحن سائحون .. أتيْنا إلى هُنا مُصادَفةً.

ففهم قوْلي على ما يبدو، فرفع حُسامه عن عنقي ثم التفت إلى رجلٍ طويل القامة وسأله:

- هل نقتلهم يا أبي؟ .. هم بيض اللوْن.

فأجابه صوْتٌ غليظ:

- لا .. لا تقتلهم .. لقد تلقيْت أمراً من "هي" - التي يجب أن تُطاع - بألّا أقتل الرجال البيض الذين يأتون .. فهيّا احملوهم إلى بيت "هي" التي يجب أن تُطاع.

فبسط الآخر يده إليَّ وجذبني إلى الشاطئ، و في الوقت ذاته رأيت آخرين يفعلون برفاقي مثلما فعلوا بي.

رأينا على الشاطيء نحو خمسين رجلاً يحملون رِماحاً طويلة، وهم طوال القامة، سُمْر الوجوه، ضخام الأجسام، عرايا إلّا من قطعٍ من الجلد لُفَّت حول وسطهم.

وفي تلك اللحظة حدث هرجٌ ومرج، ورأينا "محمداً" يسقط عند أقدامنا، وفي أثره رجلٌ رفع رُمحه، وهتف "محمد":

- رُحماك يا إلهي.

فقال أحد الرجال:

- هو ذا رجلٌ أسودٌ يا أبى .. فماذا قالت "هي" - التي يجب أن تُطاع - عنه؟

- لم تقُل شيئاً .. فلا تقتله .. تعالَ هُنا يا بُني.

فتقدَّم منه الرجل، فأسرَّ إليه الشيْخ بصوْتٍ خافت لم نسمعه، ولكننا سمعنا "محمداًط يرد عليه قائلاً:

- نعم .. نعم.

فقال الشيْخ آمراً رجاله:

- حسناً .. إذن ائتوا بما أعددتموه للرجال البيض .. وخذوا معكم كل ما تستطيعون من ذلك الشيء الذي يعوم (يقصد الزوْرق).

* * *

(8)

شعب الأحجار

وعلى أثر ذلك تقدَّم الرجال منا وهم يحملون على أكتافهم عدداً من الهوادِج المُقْفَلة، يحمل كل هوْدجٍ منها أربعة رجال ورجلان احتياطيّان، ثم أشاروا إلينا لنركب، فضحك "ليو" وهتف:

- من رحمة الله بنا أن نجد رجالاً يحملوننا بعد أن حملنا أنفسنا كل هذه المسافة الطويلة.

ركبت هوْدجي بعد أن ركب الآخرون هوادجهم، وسرعان ما تحرَّك الرَكْب بين غناء الرجال وأناشيدهم، ومرَّت رُبع ساعةٍ وأنا منصرفٌ إلى التفكير فيما ستنجلي عنه هذه المغامرة الممقوتة، وبينا أنا حائرٌ قلِق إذ استوْلى عليَّ النُعاس فنمت.

واستيْقظت أخيراً فوجدت الشمس تتوسَّط كبد السماء فنظرت من خلال ستائر الهوْدج وكم سُرِرت حين تأكَّدت أننا اجتزنا منطقة المستنقعات الشاسعة، وأننا نجتاز سهولاً كثيرة الكلأ، ووجهتنا نحو تلٍّ يُشبِه الوعاء.

حوَّلت اهتمامي إلى الرجال الذين يحملونني فألفيْتهم أقوياء الأجسام يُشبِهون سُكّان بلاد "الصومال"، يتدلَّى شعرهم على أكتافهم في جدائلٍ سوْداء لامعة، وفي تقاطيع وجوههم جاذبيّةٌ ملحوظة، وأسنانهم صغيرة، بيْد أن أمارات القسوة والخشونة كانت مُجَسَّمةً عليهم، وكانوا لا يبتسمون إلا لماماً وهم شديدو الصمت قليلو الكلام.

تُرى؛ إلى أي شعبٍ ينتمون؟، أن لغتهم هي العربية غير الصحيحة، ولكنهم ليسوا عرباً لأن لوْنهم أسمر يضرب إلى الصُفرة.

وبينا أنا في حيرتي إذ حاذاني هوْدجٌ آخر، أبصرت بداخله رجلاً يرتدي ثياباً بيضاء فضفاضة، ولم يكن القادم غير ذلك الرجل الذي كانوا يدعونه بـ"أبي"، وكان رجلاً غريباً له لحيةٌ بيْضاء وأنفٌ مُحدَّب وعيناه تلمعان كعيْنيْ الثُعبان، وتُفصِح ملامحه عمّا يتمتّع به من حِكمةٍ ورزانةٍ لا حد لهما.

ابتدرني قائلاً بلهجةٍ عميقةٍ هادئة:

- هل أفقت من نوْمك أيّها الغريب؟

فقلت بتأدُّبٍ:

- نعم يا أبي.

فعبث بأصابعه في لحيته وابتسم، ثم قال:

- من أين أنتم؟ .. ولماذا جئتم إلى هذه البلاد التي لم يطأها إلّا قليلٌ من الغرباء مُذ خُلِقَ الإنسان؟ .. هل سئمتم الحياة؟!

فقلت بشجاعة:

- جئنا للبحث عن أشياءٍ جديدة .. لقد عافت نفوسنا القديم .. جئنا من البحر لنستطلع خفــايا المجهول .. ونحن من شعب لا يهاب الموْت يا أبي .. لعلّنا نقف على أشياءٍ جديدةٍ قبل أن نموت.

- ربّما .. من سَخَف الرأي أن أعترضك وإلّا لرميتك بالكذب يا بُني .. على أني أقول أن "هي" - التي يجب أن تُطاع - ستُحقِّق رغباتك هذه.

فسألته بلهفة:

- ومَن "هي" التي يجب أن تُطاع؟

فأجال الشيْخ بصره بين الحمّالين، ثم ابتسم ابتسامةً كادت تقف لها دقّات قلبي، وأجاب:

- ستعلم كل شيءٍ عمّا قريبٍ يا بُني .. هذا إذا شاءت أن تُقابِلك بالجسد.

- بالجسد؟! .. ماذا تعني يا أبي؟

ضحك الشيْخ ضحكةً مُخيفة وسكت، فسألته:

- وما اسم شعبك يا أبي؟

- اسمه "أُمّة حجر" لأننا نعيش في الصخور والجبال.

- وما اسمك يا أبي؟

- اسمي "بلال".

ثم أشار إلى حمّاليه فغذوا السيْر إلى أن وصلوا إلى هوْدج "ليو"، فلم أجد مندوحةً من الاستسلام للنوْم لأُرَفِّه عن نفسي.

وعندما استيْقظت وجدت أننا نسير في أرضٍ صخريّةٍ مُنحَدِرة كثيرة الأشجار والمروج الخضراء، ثم انحرفنا إلى اليمين فبدا أمامى منظرٌ جميلٌ ساحر، إذ ظهر صحنٌ واسعٌ من الأرض يمتد إلى مسافة خمسة أو سِتّة أميال، وجوانب هذا الصحن صخريّةٌ مُغَشَّاةٌ بالأشجار والأعشاب، أمّا وسطه فكان أرضاً خصبة غُرِسَت فيها أشجارٌ نضيرةٌ تُروَى من ينابيعٍ طيّبة، وكانت قطعان المواشي والأغنام ترعى فيها، وقد علمت فيما بعد أن هذه البُقعة كانت بُركاناً ثم تحوَّلت بُحيْرةً جفَّت بطريقةٍ غامضة.

وقد زادني حيرةً أن رأيْت الناس يرعون المواشي دون أن أرى أثرا لمساكنهم، فتساءلت:

- تُرى؛ أين يسكنون؟

ولكن لم تطُل حيرتي؛ فما أن انعطفنا إلى اليسار وسارت بنا الهوادج نحو نصف ميلٍ حتى وقف الرَكْب، وهبط الشيخ "بلال" من هوْدجه فاقتديْتُ به، وكذلك فعل "ليو" و"جوب"، وعندئذٍ رأيْت "محمداً الأعرابي وهو يُلقي بنفسه فوْق الأرض من فرط الإعياء لأنهم أرغموه على اجتياز المسافة التي قطعها الركب سيْراً على قدميْه.

أجلت بصري فيما حوْلي فألفيْتنا واقفين فوْق رصيفٍ واسعٍ أمام مدخل كهفٍ كبير، ثم رأيْت أمتعتنا - بما فيها شراع الزوْرق والمجاديف - وقد كُوِّمت فوق الرصيف، وكان الحمّالون وآخرون على شاكلتهم ينتشرون حوْل الكهف وجميعهم طوال القامة، ولوْ أن اللوْن لم يكُن واحداً، إذ كان البعض سُمر الوجوه كالعرب والبعض الآخر صُفرها كالصينيّين، ولم يخلُ الواقفون من النساء، وكُن يرتدين جلد الغزال، حسناوات الوجوه، سوْداوات العيون، غزيرات الشعر، وكان بعضهن - وهُن قليلات - يرتدين ثياباً من الكِتّان كالتي يرتديها الشيْخ "بلال"، وقد علمت - فيما بعد - أن هذا الرداء امتيازٌ يُعطى لنساء الطبقة العُليا فقط.

تكأكأ (تزاحم وتجمّع) الرجال و النساء حوْلنا على أثر نزولنا من الهوادج، وراحوا يرمقوننا بنظرات الدهشة والعجب، وبعد لحظةٍ اتَّجهت الأنظار جميعها إلى "ليو" وهو واقفٌ بوجهه الجميل المُشرِق وقوامه الطويل المُعتدِل، ولمّا رفع قُبَّعته باحترامٍ ليُحيّيهم بدا شعره الأصفر فتعالت أصوات الإعجاب.

وقد لاحظت أن أجمل الحاضرات - وكانت ترتدي ثوْباً - راحت ترمق "ليو" بنظرها من قِمَّة رأسه إلى أخمص قدميْه، ثم لم تلبث أن تقدَّمت منه بخطواتٍ مُتَّزِنة إلى أن أحاطت عُنقه بذراعيْها ثم قبَّلته في شفتيْه.

مادت بي الأرض، وتوقَّعت أن يحمل الواقفون على "ليو" ويطعنونه برماحهم، ولكن شد ما كانت دهشتي حين رأيتهم يلزمون أماكنهم ولا يُبدون حِراكاً، أمـّا "ليو" فقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة، ولكنه قابل التحيّة بمثلها؛ فعانق الفتاة.

وابتسم الواقفون ابتسامةً باهتة، وقد ظللت على جهلٍ بهذا التصرُّف الشاذ إلى أن علمت أن النساء في "أُمّة حجر" على نقيض أخواتهن في الشعوب الأخرى؛ فهُن - كالرجال - يتمتَّعن بنفس الحقوق، ولا تربطهن بالرجال أيّة روابطٍ أو قيود، والنسب لديهم يُقتَفى من ناحية الأم، وأمـّا الرجال فلا قيمة له عندهم.

ولكل قبيلةٍ رئيسٌ أسمى ينتخبونه ويسمّونه "الأب"، فالشيْخ "بلال" مثلاً كان رئيس هذه القبيلة التي يبلغ تعدادها سبعة آلاف رجل، فإذا اتُّفِقَ وأحبت امرأةٌ أحد الرجال أعربت عن ذلك بمعانقته أمام الملأ كما فعلت تلك الفتاة - وتُدعى "أوستين" - مع "ليو"، فإذا رد قبلتها كان ذلك دليلاً على أنه رضى بها فيظلّان مرتبطيْن إلى أن يسأم أحدهما الآخر فيستبدله.

* * *

(9)

الراحة في الكهف

على أثر هذا الموْقف العجيب تقدَّم الشيْخ نحونا وأشار إلى الكهف فولجناه ومعنا "أوستين" غير عابئةٍ بتلميحاتي لها عن رغبتنا في العُزلة والانفراد، ولم نكَد نتقدَّم عدّة خطوات داخل الكهف حتى أيْقنتُ أنه من صُنع الإنسان، وكان طوله نحو مائة قدم وعرضه خمسين وارتفاعه عشرين، وتتفرَّع عنه دهاليزٌ يبعد أحدها عن الآخر نحو اثنيْ عشر قدماً تؤدِّي إلى غُرفٍ قصيرة، وعلى مبعدةٍ من مدخل الكهف وقع بصري على نارٍ موقدةٍ تُضيء جوانب الكهف المُعتَمة.

توقف "بلالٌ" في سيْره ثم أمرنا بالجلوس ريثما نتناول الطعام فامتثلنا، وافترشنا جلوداً جافّة، وسرعان ما قدَّموا لنا لحماً مسلوقاً من الضأن ولبناً في أوْعيةٍ من الخزف تحملها فتيات، فأكلنا حتى شبعنا.

ونهض مُضيِّفنا "بلال" عندئذٍ وقال:- إن ما حدث اليوْم لهو من الغرابة بمكانٍ عظيم .. فما من أحدٍ مِنّا رأى أو سمع بأن رجالاً من البيض جاءوا إلى بلاد "أُمّة حجر" .. حقيقةً أننا كنا نعلم بوجود هذا الجنس من الرجال السود القلائل الذين وفدوا على هذه البقاع .. ولكنهم (أي الرجال البيض) لم يحاولوا الوصول إليها .. وقد رأيْناكم تمخرون (تبحرون في) التُرعة بزوْرقكم فأمرت بقتلكم .. ولكن جاءني رسولٌ من قِبَل "هي" - التي يجب أن تُطاع - وأمرني أن آتي بكم إلى هُنا سالمين.

فقاطعته أنا قائلاً:- معذرة يا أبي .. إذا كانت "هي" - التي يجب أن تُطاع - تقطن بعيداً عن هنا فكيف عَلِمَتْ بحضورنا؟

قلَّب "بلالٌ" الطرف حوْله، فلمّا استوْثق من أننا على انفراد ضحك ضحكةً غريبةً، ثم قال:- أفي بلادكم مَن يرى بغير عيْنيْن أو يسمع بلا أُذُنيْن؟! .. لا تسَل .. إنها عرفت وكفى.

فهززت كتفي استخفافاً وسكت، أمّا هو فاستطرد:- إن الموْقف يقتضي ذهابي إلى "هي" - التي يجب أن تُطاع - لأتلقّى أوامرها بشأنكم .. لأنها ملكتنا كما تعلمون.

فلمّا سألته عن موْعد عوْدته أجاب بأنه سيحاول أن يؤوب (يعود) بعد خمسة أيّام، ثم أضاف بأن وسائل الراحة ستكون متوفِّرةً لدينا، وأعرب عن أمله في أن يأتينا بجوابٍ مُطَمْئِن، ولكنه عاد فأبدى ارتيابه في ذلك بقوْله أن جميع الغرباء الذين قَدِموا إلى بلاد "أُمّة حجر" في أيّام جدّته وأيّام أمّه أُعدِموا دون شفقةٍ أو رحمة، وكان إعدامهم بأمر "هي" أو بموافقتها على الأقل، لأنها لم تتدخَّل لإنقاذهم، فقلت له:- ما هذا الذي تقول يا أبي؟ .. إنك شيْخٌ طاعنٌ في السِن .. والعهد الذي تتحدَّث عنه يرجِع إلى عُمر ثلاثة أشخاصٍ مضوا .. فكيف تستطيع "هي" أن تأمر بقتل أحدٍ في أيّام جدّتك مع أنها لم تكن قد وُلِدَتْ بعد؟!

فابتسم "بلالٌ" ثانيةً، ثم هز رأسه لشأنه، وانطلق لشأنه، فلم نرَه إلّا بعد خمسة أيّامٍ كما ذكر.

جلسنا نتشاور في الأمر ونحن مضطربو الخواطر، وأمّا أنا فشعرت بنفورٍ شديد من ناحية "هي"، واقشعر بدني لمجرَّد التفكير في أنها تقضي بالموْت على كل مَن أوْقعه سوء الحظ من الغرباء في طريقها،

ولم يكن "ليو" بأقل مني اضطرابا؛ ولكنه كان يُعزّي نفسه بأن "هي" هي المرأة التي ورد ذِكرها في الكتابة المنقوشة على قطعة الخزف والتي أشار إليها أبوه في رسالته، وكان "ليو" يُدلِّل على صحة اعتقاده هذا بما ذكره "بلالٌ" عن عُمرها ونفوذها.

كنت مُتعَباً فلم أشَأ مناقشة "ليو" في رأيه، واقترحت على رفاقي أن نغتسل، وقادنا أحد الخدم إلى خارج الكهف، فألفيْنا جمهرةً كبيرةً من السُكّان يترقَّبون خروجنا، وإذ رأونا ندُخِّن وننفث دخان الغليون من أنوفنا خافوا وتفرَّقوا من حوْلنا وقالوا أننا سحرةٌ أقوياء.

وصلنا أخيراً إلى غدير ماء فاغتسلنا، ثم كررنا عائدين إلى الكهف فألفيْناه غاصّاً (مليئاً) بالسُكّان، وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب، وكان السُكّان يجلسون جماعاتٍ حول مواقد النار وهم يتناولون طعام العشاء على ضوْء المصابيح التي كانت مُعَلَّقةً في الجدران، وهي مصنوعةٌ من الخزف وتُضاء بالدهن بواسطة فتيلٍ ينفذ من قرصٍ من الخشب يُغطّي فوَّهة المصباح.

راقبناهم بُرهةً وهم يلتهمون طعامهم كالوحوش، ثم أشرت إلى الخادم كي يأخذنا إلى الفراش، فقادني الرجل بأدبٍ إلى ممرٍّ من الممرّات الصغيرة التي تتفرَّع من الكهف، ولم نكَد نسير بضع خطواتٍ في الدهليز حتى اتسع فجأة واستحال إلى غُرفةٍ صغيرةٍ مُرَبَّعةٍ منحوتةٍ في الصخر، وفي أحد جوانبها مصطبةٌ ارتفاعها ثلاثة أقدامٍ وتمتد بطول الجدار.

وأشار مُرشدي إلى تلك المصطبة وقال أنها فِراشي، فأَجَلْتُ البصر في أنحاء الغُرفة فلم أجد منفذاً للهواء ولا أثاثاً، ولمّا أنعمت النظر قليلاً أدركت أن هذه الغرفة كانت تُستَخدَم فيما مضى قبراً للموْتى، وأن هذه

المصطبة كانت قد أُعِدَّت لوضع الجُثث فوقها، وقد تحقَّقت من صدق استنتاجي هذا فيما بعد.

تملَّكني الذُعر من هذه الفكرة المُخيفة، ولكن لم أجد مفرّاً من النوْم، فتغلَّبت على مخاوفي بعد لأي (تعب ومجهود)، وعُدت إلى الكهف لأُحضِر غطائي من أمتعتنا، وهناك التقيْت بـ"جوب" الذي كانوا قد أخذوه إلى غُرفةٍ مماثلة فرفض أن ينام فيها قائلاً أن منظرها يُرسِل الذُعر إلى القلوب، وأصر على أن ينام معي فقبلت مُغتبِطاً (مسروراً).

استيْقظنا في صباح اليوْم التالي على قرع طبلة، وانطلقنا إلى الغدير فاغتسلنا، ثم عُدنا لتناول الطعام، وبينا نحن جلوس إذ أقبلت امرأةٌ في الثلاثين من عُمرها وتقدَّمت من "جوب" ثم قبَّلته أمام الملأ، فانزعج "جوب" وارتسمت على وجهه أمارات الاستياء، ثم انبعث واقفاً ودفع المرأة عنه، وقال لاهثاً:- لا .. لا أُريدكِ.

ظنَّت المرأة أنه خجول فعانقته ثانيةً، فزاد غضبه وصاح وهو يلوِّح بالملعقة الخشبيّة التي كانت في يده في وجهها:- ويحكِ .. اغربي عن وجهي أيّتها المرأة .. معذرةً أيّها الرجال .. فأنا لم أشجِّعها على مثل هذا العمل .. أوّاه يا إلهي .. ها هي قادمةٌ إليَّ مرّةً ثالثة .. حِل بينها وبيني يا مستر "هولي" .. أرجوك .. إن هذا مخالفٌ لطبيعتي.

ثم عدا خارج الكهف، فضَجَّ الحاضرون بالضحك، وأمّا المرأة فغضبت وزاد في غضبها ما رأته من سخرية زميلاتها منها، ووقفت المرأة وهى تهدر، فوددت لو أن "جوب" سلك مسلكاً آخر غير ذلك المسلك الذي عرَّض أرواحنا للخطر كما سيأتي فيما بعد، ولم تلبث المرأة أن انسحبت فعاد "جوب" إلى الكهف وهو بادي الاضطراب والسخط، وأخذ ينظر

بعيْن القلق إلى كل امرأةٍ تقترب منه، فأدركت أن من واجبي أن اقول لمُضيِّفنا أن "جوب" رجلٌ متزوِّجٌ ولم يُوَفَّق في حياته الزوْجية وأنه رافقنا في رحلتنـا ليتخلَّص من متاعبها، وأن هذا هو سبب اضطرابه عنـد رؤية النساء، ومع ذلك قابل الجالسون قوْلي بالصمت التام.

خرجنا بعد الإفطار لتفقُّد حقول "أمّة حجر" ومواشيها، وكانت على نوْعيْن: أحدهما يُدِر لبناً غزيراً دَسِماً والنوْع الآخر كثير الشحم واللحم، وأمّا الزراعة فكانت بسيطةً فطريّةً ولا يقوم بها سوى الرجال.

* * *

(10)

بعد أربعة أيّام

وانقضت أربعة أيّامٍ دون حادثٍ يُذكَر، بيْد اننا أننا أُفِدنا ببعض المعلومات عن هذا الشعب الغريب من "أوستين" صديقة "ليو" والتي لم تكن تفارقه لحظةً واحدة، قالت "أوستين" أنها لا تعرف أصل قوْمها، وأن هناك أماكن مبنيّةٌ وأعمدةٌ تُسَمَّى "خوري" بجوار المكان الذي تعيش فيه "هي"، ويقول العارفون أن هذه الأبنية كانت منازل فيما مضى يقطنها شعبٌ تناسلت منه "أُمّة حجر"، ثم أضافت "أوستين" بأن أحداً لا يجرؤ على الدنو من هذه الخرائب لأنها مسكونةٌ بالأشباح والشياطين، وأنها سمعت أن هُناك خرائب أخرى في أنحاءٍ مختلفةٍ من البلاد، وأنه ليست لدى قومها قوانين يسيرون بمُقتضاها، وإنما يتَّبِعون عاداتٍ لايستطيعون نقضها، ومَن نقضها قُتِلَ بأمر "أب" القبيلة، فسألتها:- وكيف يُقتَل؟

فابتسمت الفتاة ثم أجابت:- سوف ترى ذات يوْم.

واستطردت بعد هُنيْهة:- إن لنا ملكةً اسمها "هي" .. وهي لا تظهر إلّا قليلاً .. وربما كان ذلك مرةً كل عاميْن أو ثلاثة عندما تأتي لمحاكمة بعض المجرمين .. فإذا ما أتت التفَّت بوشاحٍ كبيرٍ فلا يستطيع أحدٌ أن يرى وجهها .. وخدمها خُرْسٌ بُكْم .. ولذا لا يستطيعون أن يقصّوا من أخبارها شيئاً .. ولو أن الشائع أنها ذات جمالٍ رائعٍ فتّان .. ويُقال أنها خالدةٌ لا تموت ولا تمرض ولا تصيبها الشيخوخة والوهن .. كما أنها

ساحرةٌ عظيمة وتتحكّم بسحرها وسُلطتها في كل شيء .. وفي اعتقادي أن الملكة ليست خالدةً كما يُشيعون عنها .. أغلب ظنّي أنها تختار لنفسها زوْجاً مجهولاً من حينٍ إلى آخر .. فإذا وضعت ابناً فإنها تقتل هذا الولد مع أبيه .. أمّا لو وضعت ابنة فهي تقتل الزوْج فقط وتُخفي أمره تماماً .. فإذا ما كبرت الابنة تولَّت الحُكم بعد موْت أمّها ، وتقوم الملكة الابنة بدفن الملكة الأُم في الكهوف الكبرى دون أن يدري أحدٌ من العوام بذلك فتظهر أمامهم وكأنها نفس الملكة "هي" الواحدة الخالدة التي تتعاقب عليها الأجيال وهي لا تزال في أوْج شبابها وصحّتها وسُلطانها .. بيْد أن هذه الظنون مجرَّد استنتاجات .. فلا أحدٌ يعرف الحقيقة .. وكل ما أعلمه أن لهذه الملكة نفوذاً مُطلَقاً .. وأن الموْت من نصيب مَن يعارضها.

فسألتُ "أوستين" عن مساحة بلادها وعدد سُكّانها فأجابت:- توجَد عشر قبائل كهذه .. منها القبيلة الكُبرى التي تحكمها الملكة .. وتسكن جميع القبائل المغاور والكهوف في أماكن مرتفعةٍ عن المستنقعات .. ولا يُمكِن الوصول إليها إلّا بطُرُقٍ سِرّيّة .. وكثيراً ما تشتبك القبائل مع بعضها البعض في حروبٍ وحشيّة .. ولكنهم سرعان ما يكفّون عنها حين تُرسِل "هي" أمرها بذلك.

كانت هذه المعلومات سبباً في اضطرابنا، وذلك لأنها تتَّفِق مع الكتابة القديمة المسطَّرة على قطعة الخزف، على أنني لم أشَأ التسليم على طول الخط، ورُحت أُسَفِّه آراء "ليو" في هذا الموْضوع مُكابرةً مني وعناداً.

حلَّت الليْلة الرابعة لسفر "بلال" فوقع لنا حادثٌ غريب، إذ بينا كنا جالسين حوْل النار - ومعنا "أوستين" داخل الكهف قُبيْل ذهابنا إلى

مضاجعنا - نهضت الفتاة فجأةً من مكانها، ثم وضعت يدها على شعر "ليو" الذهبي، ورمته بنظرةٍ ساحرةٍ تُفصِح عمّا يعتمل بين جنبيْها من وَجْدٍ وهيام، ثم شرعت تُغني بصوْتٍ يُشبِه تغريد البُلبُل، فأنشدت قطعةً غراميّةً ضمَّنتها حُبّها ومدح حبيبها، وتنبّأت فيها بأن "هي" ستنتزعه منها وتقتلها.

وكَفَّت الفتاة عن الغناء فجأة، وحدقت في الظل الكثيف أمامها، وسرعان ما بدا الذُعر في عيْنيْها كأنما رأت شبحاً مُخيفاً، ورفعت يدها عن رأس "ليو" وأشارت أمامها، فحوَّلنا أبصارنا إلى حيث تُشير، ولكننا لم نرَ شيئاً، وترنَّحت الفتاة ثم سقطت فاقدةً الوعي.

واضطرب "ليو" وبدا الحُزن على وجهه، أمّا أنا فكاد الخوْف يسحق قلبي من هوْل الموْقِف، بيْد أن "أوستين" أفاقت بعد قليل، ثم جلست وهي تنتفض قليلاً، فقال لها "ليو":- ماذا تقصدين بأُغنيتك هذه؟!

فتكلَّفت الضحك، ثم أجابت:- لا أعني شيئاً ياعزيزي .. فتلك عادة قوْمي في الغناء.

ورمقت "ليو" بنظرةٍ رقيقةٍ لم أرَ مثلها في عيْني امرأةٍ من قبل، ثم أخذت رأسه بين يديْها وقبّلته فوْق جبينه، وقالت:- أرجو أن تُفكِّر فيَّ إذا ما ابتعدت عنك .. أو إذا مددت يدك أثناء الليْل ولم تجدني .. لأنني أحبّك حُبّاً قويّاً صادقاً .. ولو أنني لا أستحق أن أكون جاريةً عندك .. دعنا نرتشف الآن من مناهل الحُب الصافية .. فلا يوجد في القبور حبٌّ ولا غرام .. ولا تقبيلٌ ولا عناقٌ بعد الموْت .. إن اليوْم يوْمنا .. فلمَن يكون الغد؟!

(11)

معركةٌ في الكهف

دعانا القوْم إلى مأدُبةٍ تكريميّةٍ في اليوْم التـالي فحاولت أن أعتذر، ولكنني اضطررت إلى الإذعان في النـهاية لما رأيْته على وجوههم من أمـــــارات التـذمُّر والاستياء.

وجاءنا مَن يدعونا إلى الوليمة عند الغروب، فانطلقت إلى الكهف مع "جوب"، وهناك وجدت "ليو" و"أوستين"، وكانا قد خرجا منذ ساعةٍ للتجوال في الخارج، ولم يعلما بأمر المأدُبة إلّا حين عادا إلى الكهف، فلمـا علمت "أوستين" بها بدا الاضطراب والذُعر على وجهها الجميل، ولم تلبث أن استوقفت أوّل قادمٍ وسألته شيئاً بلـهجة الآمر، ويبدو أن إجابته كانت مطمئنة فقد اختفت أمارات الذُعر من ملامحها وبدا عليها الارتياح نوعاً ما.

كانت النار شديدة التوهُّج تلك الليْلة على غير المألوف، وقد جلس حوْلها نحوٍ من خمسةٍ وثلاثين رجلاً وامرأتان هما "أوستين" والمرأة التي قبَّلت "جوب" فأهاجته، وكان الرجال سكوتاً كعادتهم في حين وضع كل منهم رمحه وراء ظهره.

ولأمرٍ ما توسَّطت "أوستين" رجليْن من الجالسين، ثم قال "جوب" بلـهجة المستريب:

- تُرى ماذا يُريدون؟! .. يا إلهى .. هذه هي المرأة التي أزعجتني .. ولكني واثقٌ من أنها لن تُزعجني ثانيةً .. انظروا .. لقد دعوا "محمداً" الأعرابي إلى المأدُبة أيضاً .. وها هي المرأة اللعينة تُحدِّثه برفقٍ وتأدُّب.
صدق "جوب"، فقد رأيْتُ المرأة وهى تنهض من مكانها وتتقدَّم من "محمدٍ" وهو جالسٌ في رُكنه يُصلّي وينتفض، ثم أمسكته من يده فنهض وقد اصفرَّ وجهه من شِدَّة الخوْف، انثنيْت إلى رِفاقي وقلت:
- لست مُطمئِناً إلى موْقفنا هذا .. لكن لا مندوحةً من مواجهته .. فاحشوا مُسدّساتكم للطواريء.
فقال "جوب":
- معي مسدّسي ياسيّدي .. لكن مستر "ليو" لا يملك غير سكّين الصيْد فقط وهي كافية.
وعندئذٍ تقدَّمنا من الجمع بشجاعةٍ وأخذنا مجلسنا بينهم وظهورنا إلى الجدار، وما هي إلّا بُرهةٌ حتى جاءوا بوعاءٍ به سائلٌ مُتخمِّرٌ كالجعّة، ثم انقضى وقتٌ طويلٌ ساد فيه الصمت الحاضرين، فأخذنا ننظر إلى لهيب النار المُشتعلة أمامنا.
كانت المأدُبة غريبة؛ إذ لم يُقدَّم لنا طعامٌ لنأكله حتى شعرت بدوارٍ في رأسي، بيْد أنني سمعت رجلاً من الطرف الآخر وقد صاح فجأة:
- أين اللحم الذي سنأكله؟
فبسط كل من الحاضرين ذراعه الأيمن نحو النار، وصاح الجميع معاً:
- سيأتي اللحم .. سيأتي اللحم.
فقال الرجل نفسه:
- أهو لحم شاة؟

فردَّد الجمع من ورائه:

- إنه شاةٌ بغير قرون .. وأكثر من شاة .. وسنذبحها.

ثم استداروا إلى الخلف وقبضوا على رماحهم، وعادوا فتركوها، ثم قال ذلك الرجل:

- أهو ثوْر؟

فأجابوه بصوْتٍ عالٍ لا يخلو من وحشيّة:

- إنه ثوْرٌ بدون قرون .. وأكثر من ثوْر .. وسنذبحه.

واستداروا ثانيةً وقبضوا على رماحهم، ثم تركوها مرّةً أخرى، وخيَّم السكون على أرجاء المكان، وشد ما كان قلقي وذُعري حين لاحظت أن المرأة الجالسة بجانب "محمد" قد أخذت تلاطفه وتضع يدها برفقٍ على وجهه وتناديه بأسماءٍ تُفصِح عن الحب، بينا كانت عيْناها المتَّقِدتان تُحدِقان في وجهه المصفر.

لست أدري لماذا هالتنا رؤية هذا المنظر، ولكن الخوْف تسرَّب إلى قلوبنا، ولا سيّما "ليو"، أمّا الأعرابي فقد تجسَّمت صُفرة الموْت على وجهه.

عاد المتكلِّم الأوّل يسأل بصوْتٍ مخيفٍ تردَّد صداه في أنحاء الكهف:

- هل أُعِدَّ اللحم للطهي؟

- نعم أُعِد .. نعم أُعِد.

- وهل حُميت القِدر إلى درجةٍ تكفى لطهيه؟

- نعم .. نعم.

حينئذٍ التفت "ليو" ناحيتي وهتف قائلاً:

- يا إلهي .. هل تتذكَّر الكتابة؟ .. لقد وردت فيها العبارة التالية: "الشعب الذي يضع القِدر على رؤوس الغرباء".

ما أن أتمَّ "ليو" عبارته حتى نهض رجلان غليظان وأمسكا كمّاشتيْن طويلتيْن من الحديد ووضعاهما في النار، بينما أخرجت المرأة التي كانت تتودَّد إلى "محمد" حبلاً، وفي لمح البصر شدَّت وثاقه، في حين قبض عليه جاره من ساقيْه، وفي نفس اللحظة رفع الرجلان الواقفان قِدراً كبيرةً من الخزف من وسط النار بالكمّاشتيْن، ووثبا إلى حيث كان "محمدٌ" يُقاوِم ويُناضِل ويصرخ مُستغيثاً دون أن يترك للرجليْن فرصة إتمام مهمّتهما وهي وضع القِدر المُحمّاة فوْق رأسه، لم أُطِق رؤية ذلك المنظر المخيف فصرخت صرخةً داوية، وحملت على الجميع، ثم أطلقت مُسدّسي على المرأة - وكانت تقبض على "محمد" بين ذراعيْها - فأصابتها الرصاصة في ظهرها وأردتها قتيلة، وكم سُرِرت فيما بعد لأنني قتلتها إذ تبيّن لي أنها هي التي دعت "أُمّة حجر" إلى هذا العمل الممقوت انتقاماً لما أصابها على يد "جوب".

وعندما خرَّت المرأة صريعة رأيْت الأعرابي وهو يفلت من آسريه ثم يقفز في الهواء ليسقط ميّتاً فوْق جُثّة المرأة، إذ اخترقت الرصاصة جسمها وأصابته في صدره فقتلتهما معاً.

وساد سكونٌ مقرونٌ بالدهشة والذهول، ولا عجب؛ فإن هذا الشعب الهمجي لم يسمع من قبل دوي الرصاص، فلمّا سمعوه لأوّل مرّةٍ بُهِتوا وارتبكوا، ولكن سرعان ما أفاقوا من ذهولهم، فرفع أحدهم رُمحه استعداداً لطعن "ليو" - وكان قريباً منه – فصِحتُ صارخاً:

- لوذوا بالهرب.

وعدوْت في الكهف بكل قواي، بيْد أنني لم أكَد أقترب من بابه حتى اعترض طريقي بعض الرجال، وكان رفيقاي قد لحقا بي في تلك الآونة يتبعهم رهطٌ كبيرٌ من المطارِدين وهم يحملون الحِراب في أيديهم.

أُسقِط في يدنا ولم نجد مخرجاً من مأزقنا، بيْد أنني لمحت إفريزاً صغيراً بارزاً عند قِمّة الكهف فعدوْت نحوه ووثبت لأقف عليه، واقتدى بي رفيقاي، ثم تأهَّبنا لمعركةٍ حاسمة.

وكان "ليو" مضطرباً جزعاً، ولكنه أعد مديته (مطواته) للدفاع عن نفسه، ثم عانقني وغمغم قائلاً:

- الوداع يا مَن كُنتَ لي خيْراً من أب.

فاستجمعت أطراف شجاعتي، وقلت:

- لتكن إرادة الله.

وصاح "جوب" في تلك اللحظة، ثم أطلق مُسدّسه فأصاب رجلاً، وعندئذٍ حمل علينا المهاجمون، فأمطرتهم برصاص مُسدّسي فجندلت خمسةً منهم، ولكن سرعان ما نفذ منا الرصاص.

ووثب رجلٌ ضخمٌ فوْق الإفريز ، فعاجله "ليو" بضربةٍ من مديته شجَّت رأسه وألقته صريعاً، ولكن حدث أن أفلح أحد المهاجمين في القبض على "جوب" من وسطه ثم ألقاه من فوق الإفريز، وكانت المدية قد سقطت من "ليو" ولكن لحسن الحظ سقط غريمه فوْق سِنّها فقتلته، ولكني لا أدري ماذا حل بـ"جوب" بعد ذلك.

وأمّا أنا فقد اشتبكت مع رجليْن أعزليْن في نضالٍ مرير، ولكنني لففت ذراعي اليُمنى حوْل وسط أحدهما واليُسرى حوْل وسط الآخر ثم هويْنا جميعاً إلى الأرض ورُحنا نتدحرج، ولكنني كنت يائساً فضممت الرجلين

بين ذراعيَّ وشددت عليهما بكل قوّتي حتى تحطَّمت ضلوعهما، وسرعان ما فاضت روحهما، فاتَّخذت من جُثّتيْهما دِرعاً يقيني أسِنّة الرِماح، وكان الآخرون يمرّون بنا دون أن يُعيرونا التفاتاً ظنّاً منهم بأننا جُثَثٌ هامدة.

حوَّلت رأسي ببطء فرأيت "ليو" قد نزل من فوق الإفريز وأحاطت به جماعةٌ من المهاجمين وهو يقاتلهم ببسالةٍ تدعو إلى الإعجاب، ولكن لم يلبث أحدهم أن اختطف المدية منه، وتركه مُجرَّداً من وسائل الدفاع، وعندئذ أدركت أنه - لا محالة - هالك.

ولكن حدث ما لم يكُن في الحسبان، ذلك أن الشاب استطاع الإفلات من آسريه، ثم حمل جُثّة أحد الذين قتلهم ورفعها في الهواء ثم قذف بها مهاجميه، فأوْقعت خمسةً منهم على الأرض، ولكنهم سرعان ما انقضّوا عليه وطرحوه أرضاً وقد شلّوا حركته تماماً.

وصاح أحدهم:

- إليَّ بسِكّينٍ ووعاء .. لأقطع عنقه .. وأتلقّى دمه.

فاقشعر بدني، وأغمضت عيْني، وتفطَّر قلبي حُزناً لعجزي عن مساعدة الشاب، فقد خارت قواي من الجهود المُضني الذي بذلته في قتالي مع الرجليْن اللذيْن يحميانني الآن.

وفجأة؛ عمَّت الضوْضاء المكان، ففتحت عيْني رغم إرادتى فرأيْت "أوستين"، قد ألقت بنفسها فوق جسم "ليو"، وجعلت من جسمها دِرعاً يحميه، فحاول الرجال أن يبعدوها عنه ولكنها طوَّقت عنقه بذراعيْها ولفَّت ساقيْها حوْل ساقيْه وتشبَّثت به، فذهبت جهودهم أدراج الرياح، وأخيراً حاولوا أن يطعنوه دون أن يمسّوها بسوءٍ ولكنهم لم يفلحوا وإنما جرحوه فقط، وإذ عيل (نفذ وفرغ) صبرهم صاح أحدهم:

- اطعنوهما معاً .. وبهذا يتم زواجهما.

وتهيّأ حامل الرُمح لإتمام مهمّته فأغمضت عيْني ثانيةً، وفي تلك اللحظة سمعت صوْتاً غليظاً - تردَّد صداه في أرجاء الكهف - يقول:

- قِفوا.

ثم أُغمي عليْ.

* * *

(12)

بعدالمعركة

عندما أفقت من إغمائي ألفيْتني مُمَدَّداً فوق قطعةٍ من جلد الماعز وبجانبي "ليو" وكان لايزال فاقد الرُشد، بينما كانت "أوستين" تغسل له جرحاً غائراً في جانبه بالماء، ثم عصَّبته بقطعةٍ من قماش الكِتّان، وكان "جوب" يستند إلى الجدار خلفها وهو سليمٌ مُعافى ولكنه كان ينتفض، وأمّا جُثث القتلى فكانت على الجانب الآخر من النار، فقُمت بإحصاء عددهم، وإذا بهم اثنا عشر رجلاً، وأمّا صديقنا الشيخ "بلال" فكان يُراقِب الجرحى ويُرشِد رجاله إلى طُرُق إسعافهم، فتارةً يأمر ببتر عضوٍ مصابٍ لم تعُد منه فائدةٌ لصاحبه، وأخرى يشير باستعمال صنفٍ مُعيَّنٍ من الأعشاب الطبيّة، وكان يفعل ذلك في هدوءٍ وبغير اكتراث.

وبعد هُنَيْهةٍ انثني "بلال" ناحيتي وسألني في دعةٍ عن حالي فشكرته في تأدُّب، ومن ثَّمَّ تقدَّم من "ليو" وفحص جُرحه، ثم قال:

- هو جُرحٌ بليغ .. ولكن ذَباب (سِن أو طرف) الرُمح لم يخترق الأمعاء .. فقط يحتاج بعض الوقت ليُشفى.

فشكرته ثانيةً، وقلت:

- لولا قدومك في هذه الساعة لقضى رجالك علينا كما قضوا على خادمنا (وأشرت إلى الأعرابي التَعِس).

فزمجر الشيْخ وقال:

- ستكون عقوبتهم رادعة .. فإن "هي" لا تأخذها شفقةً بأحد رعاياها إذا عصى أوامرها .. هل لك أن تُحدِّثني كيف حدثت هذه المعركة؟

فأطلعته على ما حدث بإيجاز، فقال:

- مهما يكن .. فقد أبليْتم بلاءً حسناً وأظهرتم من ضروب الشجاعة والإقدام في القتال ما لم أسمع بمثله من قبل .. أتعلم أيها البابون العجوز (البابون: نوع من أنواع القرود، قوي العضلات - ضخم الجسم - طويل الذراعيْن، قريب في الشبه من تكوين جسم "هولي") أنك حطَّمت أضلاع رجليْن كما يكسر الإنسان غلاف بيضة؟! .. وكذلك أبدى صديقك الشاب الأسد (يقصد "ليو") شجاعةً فائقةً، فقتل عدداً كبيراً من رجالي.

وأعقب ذلك حديثٌ قصيرٌ عن المُسدّسات والرصاص وما يفعله في الجسم، وقد دُهِشَ الشيْخ "بلال" حين علم أن الرصاص يُحدِث ثقوباً في جسد الإنسان، وأنه إذا أصاب عضواً هاماً فإنه يُسبِّب الوفاة، وأصر الشيْخ على إجراء تجربةٍ في الحال، وأمر بإحضار أحد الأسرى لتُجرَى عليه التجربة�� فرحت أُقنِعه بأن قانوننا لا يبيح قتل الإنسان للثأر أو لإجراء التجارب، لأنه - أي القانون - هو الذي يتكفَّل بذلك، ثم وعدته بإجراء التجربة على الحيوان في اقرب فرصة، فقَبِلَ مسروراً.

وإذ فتح "ليو" عيْنيْه بفضل جرعةٍ من الخمر سكبها "جوب" في فمه انقطع حديثي مع الشيْخ، وحاولنا أن ننقل "ليو" إلى فراشه وكانت حالته سيّئةً للغاية، وعاونتنا "أوستين" في نقله، ثم تركناه معها لتقوم على خدمته، وانصرفنا كلٌ إلى فراشه.

وفي صباح اليوم التالي زارني "بلال" في غُرفتي، واقترح عليَّ أن نبدأ رحلتنا إلى "خور" وهو المكان الذي تقيم فيه "هي" مع قسمٍ من

شعبها، ولكني اعترضت بأن حالتنا جميعاً لا تسمح بالسفر، فقد كنت متعباً منهوكاً، كما خشيت أن تشتد آلام "ليو" بسبب جرحه، وأخيراً اتفقنا على الرحيل بعد ثلاثة ايام.

ومضت الأيّام الثلاثة بسلام، وحانت ساعة الرحيل فجيء بخمسة هوادج إلى باب الكهف، يصحب كل هوْدجٍ منها أربعة رجالٍ واثنان احتياطيّان، وكان معهم حرسٌ مكوَّنٌ من خمسين رجلاً لحمل الأمتعة وحراستها أثناء الطريق.

قلت مُخاطِباً الشيخ "بلال" وهو واقفٌ يُشرِف على أعمال الرجال:

- هل ترافقنا "أوستين" يا أبي؟

فهز الشيْخ كتفيْه وأجاب:

- كما تشاء .. إن النساء أحرارٌ في هذه البلاد .. ونحن نعبدهن وندعهن يسلكن الطريق التي يردن .. لأن العالم لايسير بدونهن .. فهن منبع الحياة.

ولمّا رآني أهِمُّ بالكلام استطرد قائلاً:

- إننا نعبدهن إلى حدٍ مُعيّن .. أي إلى أن يتجاوزن سن الخصوبة والحمل .. ثم نقتلهن بعد ذلك .. ليكون من ذلك عبرةٌ لمَن هُن في سِن الشباب .. ولنُريهن أننا أقوى منهن.

فدُهِشت لقوْله، وحاولت أن أتبسَّط معه في الحديث لعلّي أستدرجه إلى التصريح بشيءٍ من عادات القوْم وفلسفتهم في الحياة، ولكنه كان ذكيّاً فَطِناً إذ استطاع أن يُغيِّر مجرى الحديث إلى ناحيةٍ أخرى بلباقة وقال:

- إن "أوستين" فتاةٌ باسلة .. وهي تحب الأسد (يقصد "ليو") .. فقد رأيت كيف تعلَّقت به وأنقذت حياته .. ثم أنها تُعتَبَر زوْجته طِبقا لعاداتنا .. ولذا فلها حق مرافقته أينما ذهبا .. اللهمَّ إلّا إذا ....

واستطرد بلهجةٍ ذات مغزى:

- اللهمَّ إلّا إذا قالت لها "هي": "لا" .. لأن كلمة "هي" فوْق كل حق.

فقلت مُتسائِلاً:

- ولنفرض أنها عصيت أمر "هي" فماذا سيحدث؟

فهزَّ الشيْخ كتفيْه، وأجاب:

- ماذا يحدث لو أمرت العاصفة شجرةً ضعيفةً أن تنثني فأبت؟!

ولم ينتظر حتى يسمع جوابي، وإنما انطلق إلى هوْدجه فارتقاه ثم أمر الرَكْب بالمسير.

* * *

(13)

الرحلة إلى "خور"

قضينا أكثر من ساعةٍ في اجتياز السهل، ثم تسلَّقنا حافّته الواقعة في الناحية الأخرى، فلمّا بلغنا قِمَّة هذا المُرتَفَع رأينا أمامنا مُنحدَراً طويلاً عند نهايته، وعلى بُعد عشرة أميالٍ أمامنا مُستَنقَعٌ طويلٌ عقد البُخار فوْقه سُحُباً كثيفة، وقد وجد الحمّالون الطريق سهلاً عند هبوطه من المُنحَدَر، فبلغنا طرف المُستَنقَع عند الظُهر، فتوقَّفنا ريْثما تتناول طعام الغداء، ثم استأنفنا السيْر في طُرُقٍ كثيرة التعاريج وسط المستنقع، ولم يلبث أن بدا الطريق أمامنا غامضاً، واستحال تمييزه، بيْد أن الرجال لم يجدوا صعوبةً في الاهتداء إليه، ولعَمري لا أدري حتى اليوْم كيف كانوا يفعلون ذلك.

وإذ غربت الشمس كنا قد وصلنا إلى أرضٍ مُرتفِعةٍ خارج المستنقعات، فأعلن "بلال" أننا سنقضي الليْل في تلك المنطقة، فأوْقد الرجال ناراً جلسنا حوْلها، ثم التفَّ كلٌ بغطائه والتمس النوْم.

أدرت رأسي ونظرت إلى "ليو" وهو مُمَدَّدٌ بجانبي فوجدت وجهه مُتوَهِّجاً بشكلٍ لا يدعو إلى الارتياح، وقد رأيْت "أوستين" بجانبه ترقُب وجهه بقلقٍ كبيرٍ ما بين الفيْنة والفيْنة.

تملَّكني الحُزن من أجل الشاب، ولكني كنت عاجزاً عن تخفيف آلامه بعد أن أعطيْته جرعةً كبيرةً من "الكينا" هي كل ما نملك من وسائل الوقاية،

وعندئذٍ استلقيْت بجانبه وأخذت أرقُب النجوم وهي تُشرِق، حتى امتلأت السماء بنُقَطٍ لامعة.

وأخذت أُفكِّر في مُهمّتنا والأخطار المُحدِقة بنا، ومع ذلك فقد تملَّكني العجب لأنها تتَّفق كل الاتفاق مع ما كُتِبَ منذ قرونٍ على قطعة الخزف العتيقة.

تُرى مَن تكون تلك الملكة الغريبة التي تحكم شعباً غريباً مثلها في معزلٍ عن نور الحضارة والمدنيّة؟، وما معنى تلك القصة - قصة نيران "عامود الحياة الدائر" - التي تمنح حياةً أبديّة؟، هل يُمكِن أن تكون هناك مادةٌ أو سائلٌ يمنح الجسم البشري قوّةً تُمَكِّنه من مقاومة الفَناء من جيلٍ لآخر؟، قد يكون ذلك في حيّز الإمكان ولو أنه بعيد الاحتمال، فإن دوام الحياة إلى أجلٍ غير مُسمَّى لا يكون - كما قال "فنسي" المسكين - أكثر غرابةً من إيجاد الروح وبقائها مُدّة، وإذا كان ذلك حقيقيّاً فماذا يكون؟، لا ريْب أن الشخص الذي يجد هذه الحياة يستطيع أن يحكم العالم بأسره ويحصل على ثروته ويتمتَّع بكل أسباب القوّة والحكمة.

حسناً؛ إذا كان ذلك واقِعاً وكانت "هي" هذه أبديّةً لا تفنى - وهو ما لا أصدِّقه قط - فكيف فضَّلت أن تعيش في كهفٍ معزولٍ وبين شعبٍ همجي؟، لا ريْب أن الوقوف على جوابٍ عن هذا السؤال يسوّي المشكلة جميعها.

أعياني التفكير في أمر هذه المرأة العجيبة، وأخيراً ثقل جفناي ثم رُحت في سُباتٍ عميق.

واستيْقظت عند الفجر، وكان الحمّالون والحُرّاس يروحون ويغدون استعداداً للرحيل، فنهضت وأنا أنتفض من شِدَّة البرد، وألقيْت ببصرى إلى "ليو" فوجدته جالساً وقد اعتمد رأسه بين يديْه، وكان وجهه لا يزال مُحتَقِناً، وعيْناه تلمعان ببريقٍ خاطف، وتُحيط بهما هالةٌ صفراء، فسألته:

- كيف حالك يا "ليو"؟

فأجاب بصوْتٍ أجش:

- إني أشعر بدنو أجلي .. فرأسي يكاد ينفجر .. وجسمي يرتعد.

أيْقنت أنه أُصيب بحُمَّى شديدة، فأسرعت آتيه بجرعةٍ من "الكينا" ثم ذهبت وأطلعت "بلال" على جليّة الأمر، فرافقني إلى حيث "ليو" ولم يلبث أن قال لي على انفراد:

- إنه مصابٌ بالحُمَّى .. ولكنه شابٌّ في مُقتَبَل العُمر .. ومن المُحتمل أن يبرأ.

ولمّا لم يكُن من الميْسور أن نبقى ريثما تتحسَّن حال "ليو" فقد أعطى "بلال" أمراً باستئناف السيْر.

ومرّت الساعات الثلاث الأولى بسلام، ثم وقع حادثٌ كاد يُفقِدنا صديقنا "بلال"، وتفصيل ذلك أن هوْدج هذا الشيْخ كان يسير في المُقدِّمة، وكنا في تلك اللحظة سائرين في مستنقعٍ خطيرٍ قليل الغوْر في بعض أجزائه وشديد العُمق في البعض الآخر، وفجأة سمعت صرخةً داوية أعقبتها صيْحات استغراب، ثم صوْت ارتطام جسمٍ بالماء، وعلى أثر ذلك وقف الرَكْب تماماً، فقفزت من هوْدجي وهرولت إلى الأمام، فرأيت بِرْكةً على يمين الطريق الذي كنا نسلكه، وأمّا الطريق نفسه فكان شديد الانحدار،

وكان هوْدج "بلال" عائماً على سطح ماء المستنقع، وأمّا الشيْخ نفسه فلم أرَ له أثراً.

كان أحد الرجال الذين كانوا يحملون هوْدج "بلال" قد صادف في طريقه ثُعباناً سامّاً عضَّه في مُؤخِّرة قدمه فتخلَّى عن الهوْدج، وعندئذٍ ألفي نفسه يهوى إلى المستنقع، فعاد يتشبَّث بالهوْدج كيلا يسقط، فهوى معه في أثره و"بلالٌ" بداخله.

ولكنني لم أرَ للرجليْن أثراً، أمّا الحمّال فمن المحتمل أنه لاقى حتفه، وأمّا "بلال" فكان مكانه من الهوْدج معروفاً بالرغم من احتجابه عن الأنظار.

قال أحد الرجال وهو يُشير إلى الهوْدج:

- إنه هناك .. إن أبانا هناك.

ولكن أحداً منهم لم يحاول إنقاذه، بل جمدوا في أماكنهم وهم يحدقون في الماء بذهول، فصحت بهم أن يُفسِحوا الطريق، ثم خلعت قُبَّعتي ووثبت إلى الماء، وسبحت حتى بلغت الهوْدج، فاستطعت إخراج "بلال" - ولا أدري كيف - من تحت الهوْدج، وكان رأسه كُلّه مُغطًّى بطبقةٍ خضراء.

وكان "بلال" شيْخا حازماً، فاستسلم إليَّ وبذلك استطعت أن أجذبه معي إلى الشاطئ سالماً، وتحوّل الرجل إلى رجاله وهو يقطر ماء، وصاح فيهم:

- يا لكم من أوغاد! .. لوْلا هذا الغريب - ابني البابون - لغرقت بلا مراء .. حسناً .. لن أنسى لكم ذلك.

ثم أطال إليَّ النظر ولم يلبث أن أمسك بيدي، وقال:

- وأمّا أنت يا ولدي فثِق بأني سأكون صديقك ما حييت .. لقد أنقذت حياتي .. وربما يأتي يوْمٌ أرد إليك فيه هذا الصنيع.

وبعد دقائقٍ معدودات استأنف الركب سيْره.

* * *

(14)

مسكن "هي"

اجتزنا منطقة المستنقعات قبل غروب الشمس بساعة، ثم شرعنا نعبر أرضاً كانت ترتفع بالتدريج، حتى إذا جَنَّ الليْل قرَّرنا المبيت في عرض الطريق، وقد أردت الاطمئنان على صحة "ليو"، ولكني للاسف وجدته أسوأ حالاً من الصباح، وحالته تدعو إلى القلق الشديد، وقد استمر يقيء حتى الصباح.

ولم أذُق طعم النوْم تلك الليْلة، فقد سهرت لتمريض "ليو"، وساعدتني في ذلك "أوستين" التي أثبتت أنها مُمرِّضةٌ لا تعرف الكلل أو الملل، وأخيراً طلع الفجر، وكانت حالة "ليو" قد وصلت إلى طوْرٍ خطير، فانتابني الهَم واستحوذ عليَّ القلق والخوْف خشية أن تسوء العُقبي.

وإذ كنت غارقاً في هواجسي جاءني "بلال"، وقال أنه ينبغي أن نستأنف السيْر من فوْرنا كي نصل إلى مكانٍ يستطيع "ليو" أن يجد فيه الراحة التامّة والتمريض الصحيح قبل أن تنصرم اثنتا عشرة ساعةً أُخرى وإلّا قضى الشاب نَحبه بعد يوْمٍ أو اثنيْن على الأكثر، فأذعنت مُكرَهاً، وحملنا "ليو" إلى هوْدجه واستأنفنا السيْر، وكانت "أوستين" تسير بجانبه كي تطرد الذباب عن وجهه وتراقبه كي لا يسقط من الهوْدج.

وقبل غروب الشمس بنصف ساعةٍ وصلنا إلى قِمَّة الطريق، فتجلَّى لناظريْنا منظرٌ طبيعيٌّ يأخذ بالألباب، فقد كانت تمتد تحتنا أرضٌ مُنبَسِطةٌ سُندسيّةٌ تُغطِّيها زهورٌ ورياحينٌ ذات أريجٍ عاطر، ثم شاهدنا على بُعد

ثمانية عشر ميلاً تقريباً جبلاً هائلاً يرتفع من السهل، قاعدته عبارةٌ عن مُنحدَرٍ نبتت فوقه الحشائش، ويعلو هذا المُنحدَر سورٌ حجريٌ ارتفاعه نحو ألفٍ وخمسمائة قدم.

تولَّتني الدهشة والعجب ممّا أرى، وسرعان ما اقترب "بلالٌ" مني بهوْدجه، وقال:

- انظر على منزل "هي" التي يجب أن تُطاع .. هل من ملكةٍ تمتَّعت بعرشٍ كهذا من قبل؟

- إنه منظرٌ جميلٌ يا أبي .. لكن هل يمكن الوصول إلى هذا المنزل؟ .. إن هذه الأكام متعذِّرة التسلُّق.

- سترى أيّها البابون .. انظر إلى الطريق الذي تحتنا .. ماذا تظن؟ .. إنك رجلٌ حكيم .. تعالَ وحدِّثني .. ماذا ترى؟

فنظرت ورأيْت خطّاً يمتد إلى الأمام إلى أن يصل إلى قاعدة الجبل مباشرةً ولكنه مُغطَّى بالحشائش، قلت:

- أظن يا أبي أنه طريق .. ولو أنني أُرجِّح أنه مجرى نهرٍ أو تُرعة

- صدقت يا بُني .. إنه مجرى حَفَرَه الذين عاشوا من قبلنا هنا لتصريف المياه في بُحيْرةٍ عظيمةٍ بقيت إلى إيّامهم .. فلمّا جَفَّت البُحيْرة أنشأ الرجال الذين حدَّثتك عنهم مدينةَ عظيمةً فوْقها أطلقوا عليها اسم "خور" .. ولكن لم يبقَ منها الآن سوى أطلالها البالية .. ثم أخذوا ينحتون في الجبال بيوتاً وممراتٍ سنراها في فرصةٍ أُخرى.

- قد يكون ذلك .. ولكن أليس هناك طريقٌ آخر يؤدِّي إلى الجبل الكبير غير طريق البُحيْرة الذي نسلكه؟

- هناك طريقٌ آخر تجتازه الخِراف والرجال المُشاة بمشقَّةٍ عظيمة .. ولكنه طريقٌ سِرّي لا يمكن لشخصٍ يجهله أن يعثر عليه .. ولا يُستَخدَم هذا الطريق إلّا مرّةً في كل عام وذلك عندما تسلكه قطعان الأغنام الى الداخل بعد أن تقضي عامها في المرعى فوْق منحدرات الجبل.
- وهل تعيش "هي" هُناك أبداً؟ .. أو هل تخرج أحياناً وتختار منطقة الجبل؟
- لا يا بُني .. إنها لا تغادر مكانها أبداً.
وقبل غروب الشمس بساعتيْن وصلنا إلى قاعدة الجبل الهائل، ثم واصلنا السيْر فوق المنحدر الصخرى، ولم نلبث أن بدأنا في اجتياز طريقٍ نُحِتَ في الصخر ومُمتَدٍّ طويلاً إلى الداخل، وشد ما عجبت لتلك الأيْدى التي استُخدِمَت في تعبيد هذا الطريق، وتساءلت: كم من آلاف السنين انقضت حتى تم نحته وإعداده دون أن تُستَخدَم فيه موادٌ مُفرقِعةٌ كالديناميت وغيره.
وأخيرا بلغنا الربوة، فألفيْنا أنفسنا على باب نفقٍ مُظلِمٍ يخرج منه مجرى ماء، وكان النفق مُنقسِماً إلى قِسميْن: أحدهما لجريان الماء والآخر لسيْر الناس على الأقدام، وكان الثاني يرتفع عن الأوّل نحو ثمانية اقدام.
وكف الرجال عن السيْر عند باب النفق، وإذ كان بعضهم مُنهَمِكاً في إضاءة مصابيح الخزف هبط "بلالٌ" من هوْدجه، ثم تقدَّم نحوي وقال بأدب أن "هي" - التي يجب أن تُطاع - أمرت بأن تُعصَب عيوننا كيلا نعرف سِر الطُرُق المنحوتة في الجبال، فلم اعترض، وعندئذ عصبوا أعيُننا - أنا و"جوب" و"أوستين" - وأمّا "ليو" فكان فاقد الشعور فلم تكن بهم من حاجةٍ لعصب عيْنيْه، واستأنفنا السيْر مباشرةً.

ولم تمضِ فترةٌ وجيزةٌ حتى أدركت من صدى وقع الأقدام وخرير الماء - وهو ينحدر - أننا نسير في بطن الجبل، ولكن سرعان ما استحال الهواء الساكن إلى تيّارٍ قوي استمر حتى انحدر الرجال بنا إلى مُنعَطَفٍ جديدٍ فسكن الهواء ثانيةً، وهكذا دواليك، حتى استحال عليَّ أن أتصوّر شكل الطريق في ذِهني، إذ كنت أُؤمِّل أن تُتاح لنا ذات يوْمٍ فرصة الهرب والنجاة.

ومضت ساعةٌ أُخرى ثم خرجنا إلى الهواء الطَلْق، إذ اخترق الضوْء العِصابة التي فوْق عيْني، ولم تنقضِ بضع دقائقٍ أُخرى حتى كَفَّ الرجال عن السيْر، وسمعت "بلالاً" يأمرنا برفع الحجاب عن أعيُننا، ففعلت، وأدرت الطرف فيما حوْلي، فألفيْتُنا قد اجتزنا الربوة ووصلنا إلى طرفها الآخر.

كنا في صحنٍ واسعٍ تحيطه الصخور من كل ناحيةٍ تبلغ مساحته عشرة أمثال ذلك الذي تعيش فيه قبيلة "بلال"، وكانت في منتصف المكان تقريباً آثارٌ عتيقة، ولكنني لم أُلقِ إليها بالي، إذ لم ألبث أن وجدت نفسي بين جمهورٍ كبيرٍ من "أُمّة حجر"، لا يفترقون في شيءٍ عن إخوانهم الذين مَرَّ ذِكرهم في قبيلة "بلال".

وما هي إلّا هُنيْهةٌ حتى رأيت جماعةً من الرجال المُسلَّحين يُهرولون نحونا يقودهم ضباطٌ ويحملون في أيْديهم عصيّاً قصيرةً من العاج، وكانوا قد خرجوا من الأَكَمَة (مكانٍ مرتفعٍ) المحيطة بالمكان، وجميعهم يرتدون ثياباً تحت جلد الفهد الذي شُدَّ إلى وسطهم، وهمس "بلال":

- هم حرس "هي" الخاص.

وتقدَّم قائد القوّة من "بلال" وحيّاه بوضع عصاه العاجيّة أُفُقيّةً على جبهته، ثم ألقى عليه بضعة أسئلةٍ لم تبلغ أُذني، فأجابه "بلالٌ" عليها بإيجاز، وعندئذٍ سار الجنود على جانب الأَكَمة يتبعهم الحمّالون، حتى إذا قطع الرَكْب نصف ميلٍ توقَّفنا ثانيةً عن السيْر أمام مدخل كهفٍ كبيرٍ ارتفاعه نحو السِتّين قدماً وعرضه حوالي الثمانين.

هبط "بلال" من هوْدجه، وأشار إليَّ وإلى "جوب" بأن نتبعه، وأمّا "ليو" فكان عاجزاً عن الحركة.

تبعنا الشيخ "بلال" ودخلنا الكهف العظيم، وكانت أشعة الشمس تتخلَّله إلى مسافةٍ بعيدةٍ بداخله، وأما جوْفه فكانت تُضيئه مصابيح تمتد إلى مسافةٍ لا نهاية لها، وكانت الجُدران منقوشةً برسومٍ جميلةٍ تُمثِّل الحب والصيْد والقتل وتعذيب المُذنِبين بالقِدْر المُحمّاة إلى غير ذلك من النقوش التي لا تشير إلى الحروب والمعارك ممّا دلَّني على أن هذا الشعب يعيش مُنعزِلاً عن العالم.

لم يتعدَّ رجال الحرس مدخل الكهف وإنما اصطفّوا على جانبيْه، ولم نكد نسير فيه بضع خطواتٍ حتى التقيْنا برجلٍ يرتدي ثوْباً أبيض حيّانا بإحناء رأسه ولكنه لم يقُل شيئاً، وقد علمنا فيما بعد أنه أخرسٌ أصم.

وقد وقع بصرنا على بُعد عشرين قدماً من مدخل الكهف الرئيسي على كهفٍ صغيرٍ أو دهليزٍ واسعٍ يخترق الصخر إلى اليمين واليسار، وكان أمام الدهليز الأيْمن رجلان من الحرس، فتبادر إلى ذِهني أن هذا الدهليز هو الطريق المُؤدِّي إلى الغُرَف التي تقطن فيها "هي".

وأمّا مدخل الدهليز الثاني فلم يكن محفوراً، وقد أشار إلينا الأبكم أن نتبعه إلى داخله ففعلنا، وكان الدهليز مضاءً بالمصابيح، إلى أن وصلنا

إلى مدخل غرفةٍ أُسدِل عليه ستارٌ مصنوعٌ من مادَّةٍ تُشبِه الحشائش الطويلة، أزاح الأبكم هذا الستار، وأحنى رأسه مرّةً أُخرى، ثم تقدَّمنا إلى غرفةٍ متوسِّطة الحجم نُحِتَت في الصخر ولكنها تُضاء بواسطة كُوّاتٍ (فتحاتٍ أو ثغراتٍ) صغيرةٍ تُطِل على الخارج، وكان أثاثها عبارةً عن سريرٍ من الحجر وأوعيـةٍ من الماء للاغتسال وجلودٍ مدبوغةٍ من جلد الفهد للغطاء.

تركنا "ليو" - وكان لا يزال فاقد الوعى - في هذه الغرفة، وتركنا "أوستين" معه لتعتني به، ثم تبعنا الأبكم إلى غُرفةٍ أُخرى مماثلةٍ نزل فيها "جوب"، وبعدئذٍ انطلقنا إلى غُرفتيْن أُخرييْن: أُعِدَت إحداهما لي والأُخرى لـ"بلال".

* * *

(15)

"هي" تريد رؤيتك

كان أوّل ما فعلته أن اغتسلت وأبدلت ثيابى، ثم جلست في انتظار تطور الحوادث، ولكن سرعان ما شعرت بجوعٍ شديد، وعجبت هل سيتركنا هؤلاء القوم نموت جوعاً!، ولكن ما هي إلّا هُنيْهةً حتى أُزيح الستار، وظهرت من خلفه فتاةٌ بكماء أشارت إليَّ أشارةً ذات مغزى فهمت منها أن الطعام قد أُعِدَّ لنا، فسِرتُ في أثرها إلى الغُرفة المجاورة.

وهناك وجدت "جوب" قد سبقني إليها، وكانت مساحة هذه الغرفة ضِعف مساحة الغُرفة التي أُعِدَّت لنوْمنا، وكانت تمتد على أحد جوانبها منضدةٌ صخريّةٌ عرضها ثلاثة أقدامٍ وارتفاعها سِتّة تلتصق قاعدتها بأرض الغُرفة الصخريّة، وكانت كل منضدةٍ تختلف عن الأخرى، فالمنضدة التي إلى يسار الداخل تُستَعمَل للتحنيط بلا شك، إذ كانت مُفرَّغةً من الوسط على شكل جسم إنسان، وكان للرأس مكانٌ خاص وللعنق مكانٌ مُرتفِع، بينما كان بها ثقوبٌ لإزالة المواد السائلة، وقد تبادر هذا الخاطر إلى ذِهني ممّا رأيته مرسوماً فوق الجدار وقد بدا أنه رسماً فرعونيّاً، فقد شاهدت رسماً لشيْخٍ ذي لحيةٍ بيضاء وهو يموت، ثم وهو يُحنَّط، وبعدئذٍ وهو يُدفَن.

وأمّا الصورة الأولى فكانت تُمثِّل الشيْخ وهو يُعاني سكرات الموْت بينا التفَّت حوْله النساء والأطفال وهم يبكون ويُوَلوِلون، وأمّا الصورة الثانية فتُمَثِّله أثناء التحنيط فكان يُرى وهو مُمَدَّدٌ فوْق مِنضدةٍ حجريّةٍ تُشبه

التي كانت أمامنا ولعلَّها هي عينها، وحوْل الشيّخ الميّت ثلاثة رجالٍ أحدهم يحمل قُمعاً وُضِعَ طرفه المُدَبَّب في قلب الشيْخ، بينا كان الثاني يحمل في يده وعاءً كبيراً يسكُب منه سائلاً مُعيّناً في القُمع، وأمّا الثالث فكان يُشرِف على عمل الآخرين، واخيراً كانت الصورة الثالثة تُمثِّل الشيْخ عند الدَفن، فكانت الجُثّة تُرى وهي جامدةٌ باردة وقد لُفَّت بقماشٍ من الكِتّان ووُضِعت على أفريزٍ حجري كذلك الذي نِمت فوْقه عندما كنا ضيوفاً على الشيْخ "بلال"، وكان حوْل الجُثمان أناسٌ كثيرون يقرعون الطبل.

أخذت عيْني كل هذه الرسومات في لمحةٍ خاطفةٍ ثم جلست، وتناولنا طعاماً شهيّاً من لحم الضأن المسلوق واللبن والكعك، وقد قُدِّمت إلينا في أوعيةٍ خشبيّةٍ نظيفة، وإذ فرغنا من تناول الطعام انطلقنا إلى غُرفة "ليو" لنقف على حالته، وأمّا "بلال" فذهب للمثول بين يديْ "هي" وتلقّي أوامرها.

ألفيْنا "ليو" في حالةٍ سيّئة، وكان قد أفاق من إغمائه وأخذ يهذي، بيْد أنه ما كاد يسمع صوْتي حتى هدأ قليلاً، فأمكنني أن أعطيه جرعةً من "الكينا"، وقد قضيْتُ مع "ليو" حوالي الساعة، حتى جاءني "بلال" وأفضى إليَّ بأن "هي" قد تنازلت وأعربت عن رغبتها في مقابلتي، وهو شرفٌ لا يحظى به إلّا القليلون؛ فتلقيْت الدعوة ببرودٍ هال الشيْخ "بلال"، ولكنني كنت في الواقع مُضطرِباً من ناحية "ليو" وما يتهدَّد حياته من خطرٍ عاجل، وفيما كنت أهِمُّ بالسيْر في أثر "بلال" إذ وقع بصري على خاتمٍ يلمع فوْق أرض الغُرفة فالتقطته، فإذا به خاتم "ليو" الذي يحمل فَصّاً هو الجُعران الذي عثرنا عليه في العُلبة الفضيّة التي كانت بين

مُخلَّفات "فنسي"، وكان منقوشاً على الجُعران دائرةٌ بداخلها رسمٌ لأوْزةٍ وحرفٍ آخر هيروغليفي معناهما "ابن الشمس الملكي" ويبدو أن "ليو" طرح يده وهو يهذي فسقط منه الخاتم فوق الأرض، وضعت الخاتم في إصبعي خشية الضياع ثم تبعت الشيْخ "بلال".

سرنا في الدهليز واجتزنا الكهف، ووصلنا إلى الدهليز المُماثِل في الناحية الأُخرى، وكان يقف على بابه حارسان أشبه بتمثاليْن، فلمّا وصلنا إليهما أحنيا رأسيْهما تعظيماً، ووضع كلاهما رُمحه أفقيّاً على جبهته، فسِرنا من بينهما، وانطلقنا في دهليزٍ مستطيلٍ ساطع الضوْء، لكن ما أن خطوْنا بضع خطواتٍ حتى التقيْنا بأربعة حُرّاس - رجليْن وامرأتيْن - أحنوا رؤوسهم ثم سجدوا، ومن ثَمَّ تقدَّمتنا المرأتان، وسار الرجلان خلفنا.

وفي نهاية الدهليز رأيْتُ باباً وقف أمامه حارسان آخران وسمحا لنا بالمرور، فاجتزنا عِدَّة غُرَفٍ ودهاليز حتى انتهيْنا إلى غُرفةٍ كبيرةٍ - طولها نحو أربعين قدماً وعرضها يقرب من طولها - مضاءةٍ بالمصابيح، وقد وقع بصري بداخلها على ثماني نساء صفراوات الشعر جلست كل واحدةٍ منهن على أريكةٍ وهن يُطرِّزن بإبرٍ من العاج، وجميعهن صُمٌ بُكمٌ أيضاً، وفي نهاية هذه الغُرفة رأيْتُ باباً أُسدِل عليه ستارٌ كثيفٌ من نسيجٍ مُطَرَّزٍ يُشبِه الأنسجة الشرقيّة، ووقفت أمامه فتاتان جميلتان، جذبت كلتاهما شِقاً من شِقَّيْ السِتار في خشوعٍ واحترام، وفجأة خَرَّ "بلال" ساجداً وزحف على يديْه ورُكبتيْه ولحيته تكنس الأرض كلّما تقدَّم، بينا تبعته إلى الداخل سائراً على قدميَّ، ونظر إليَّ "بلالٌ" من فوق كتفه وهتف:

- اركع يا بُني .. اركع أيّها البابون .. ازحف مثلي .. فإنك ستَمَثُل الآن بين يديْ "هي" .. فإذا لم تجدك مُتواضِعاً قضت عليك في الحال.

جمدت في مكاني وتسرَّب الخوْف إلى قلبي فارتعدت رُكبتاي .. بيْد أن كِبريائي لم تلبثْ أن تغلَّبَتْ على خوْفي فرفضتُ الإذعان، وسِرتُ بخطواتٍ ثابتة، وعندئذٍ وجدت نفسي في دهليزٍ آخر صغير أُسدِلت على جدرانه ستائر فاخرة علمتُ فيما بعد أنها من صُنع النساء البكماوات اللاتي مررت بهن، وكانت هناك مقاعد - من خشبٍ أسودٍ جميلٍ يُشبِه الأبنوس مُطعَّم بالعاج - موضوعةٌ لصق الجدران، بينا كانت أرض الغُرفة مُغطّاةً بالسجاجيد، ولكن كان المكان خالياً، وأخيراً بلغنا بهواً ضخماً في آخره عرش الملكة "هي" وعلى مقربةٍ منه بابٌ أُسدِل فوْقه سِتارٌ ثمين، وعندئذٍ انبطح "بلالٌ" على وجهه، وبسط ذراعيْه أمامه كأنما فارقته الحياة، وأمّا أنا فتولّاني الارتباك، ورُحت أُقلِّب الطرف حوْلى، وسرعان ما أدركت أن شخصاً يُراقبني من خلف الستار.

لم أرَ ذلك الشخص، ولكن كنت أشعر بنظراته أو نظراتها لا أدري، إذ أثَّرت في أعصابي تأثيراً غريباً، ولم يلبث أن تملَّكني خوْفٌ غامضٌ لا أدرى كُنهه، وساد السكون بينا بقي "بلالٌ" مُنبَطِحاً كالتمثال وعبير الروائح الذكيّة ينبعث من وراء الستائر.

وأخيراً بدأ السِتار يتحرَّك ببطء، ثم ظهرت يدٌ بيضاء كالثلج، ذات أصابع رقيقةٍ تنتهي بأنامل دقيقةٍ ورديّة اللوْن، وجذبت اليد الستار جانباً، ثم سمعت صوْتاً يتكلّم، صوْتاً كتغريد البلابل رِقّةً وشجواً، قال الصوْت بالعربيّة الفُصحى:

- لِمَ يبدو عليك الخوْف أيّها الغريب؟

أدهشني هذا السؤال، بيْد أنني لم أكَد أُفَكِّر في إجابةٍ عن سؤالها حتى أُزيح السِتار جانباً بالكامل، وظهر شبحٌ طويلٌ أمامي، نعم؛ كان شبح امرأةٍ مديدة القامة لفَّت جسمها ووجهها بوشاحٍ رقيقٍ أبيض، كـجُثّةٍ كُفِّنَتْ لتُسجى في قبرها، وكانت الغلالة التي التفَّت بها رقيقةً جِدّاً، حتى لقد استطعت أن أتبيَّن لوْن بشرتها من خلالها، فلم أتمالك أن اشتد اضطرابي واقشعر بدني.

ومهما يكن؛ فقد أدركت أن الشبح الملتف الماثل أمامي هو قوام امرأةٍ بديع تَجَسَّمَ الجمال في كل عضوٍ من أعضائه.

عاد الصوْت الساحر يقول مرّةً أخرى:

- خبِّرني أيّها الغريب: لِمَ يبدو عليك الخوْف؟ .. هل ترى في شخصي ما يُخيف؟ .. إذا كنت كذلك فقد تغيَّر الرجال عمّا كانوا عليه.

ثم أتت بحركةٍ رشيقةٍ ودارت على عقبيْها، ورفعت إحدى ذراعيْها كي تكشف عن جمالها وسحرها، وظهر شعرها الأسود الذي كان يتدلّى إلى قدميْها تقريباً فوْق ثوبها الأبيض الجميل، فأجبت بتواضعٍ وأنا لا أعي ما أقول:

- إنه سحركِ الذي أخافني أيّتها الملكة.

فقال "بلالٌ" بصوْت خافت وهو لا يزال مُنبَطِحاً على وجهه فوْق الأرض:

- أحسنت أيّها البابون .. أحسنت.

فضحكت "هي" ضحكةً عذبةً رقيقة كان لها رنين ناقوسٍ فضّي، ثم قـالت:

- أرى أن الرجال مازالوا يعرفون كيف يخدعوننا - نحن معشر النساء - بالكلمات المعسولة .. آهٍ أيّها الغريب .. لم يكن خوْفك وليد تأثُّرك بجمالي وإنما مرجعه إلى أن عيْنيَّ كانتا تستطلعان خفايا قلبك وسبر غوْرك (معرفة ما بأعماق نفسك) .. ولكني سأصفح عن فريتك لأنك قرنتها بتقريظٍ ظريف .. والآن خَبِّرني كيف جئتم إلى هذه الأرض التي يسكن أهلها المغاور والكهوف؟ .. ما الذي أتيتم لتشهدوه؟ .. كيف تُجازِفون بأرواحكم فتضعونها بين يديْ "هي"؟ .. "هي" التي يجب أن تُطاع .. وحدِّثني أيضاً كيف تعلَّمت اللغة العربية التي أتكلمها وهي لُغةٌ قديمة؟ .. أَمَا تزال هذه اللغة متداولةً في العالم؟ .. أنت ترى أنني أعيش بمعزلٍ عنه .. بين الكهوف والموْتى .. لا أعلم من أمره شيئاً ولا لأهتم بمعرفته .. لقد عشت - أيّها الغريب - على ذكرياتي .. وذكرياتي حبيسة قبرٍ حفرته يداي.

ورنَّ صوْتها رنيناً يُشِبه تغريد البُلبُل، وحانت منها التفاتةٌ إلى الأرض، فوقع بصرها على الشيْخ "بلال" وهو منبطحٌ على وجهه، فقالت:

- أما زلت هُنا أيّها الشيْخ؟ .. أخبرني: لِمَ اضطربت الأحوال في قبيلتك .. يبدو أنكم اعتديْتم على ضيوفي .. بل لقد كان أحدهم يُلاقى حتفه لتوضع القِدر المُحمّاة فوْق رأسه كي يأكله أولادك الوحوش .. فما معنى ذلك أيّها الشيخ؟ .. ما دفاعك وإلّا أسلمتك للذين يُنفِذون انتقامي؟

وكان صوْت "هي" قد ارتفع في ثوْرة غضبها، وتردَّد مداه في جوانب الغُرفة الصخريّة مُخيفاً يبعث الذُعر في القلوب، وقد خُيِّل إليَّ أنني أرى عيْنيْها تتقدان من خلف القناع المُسدَل فوْقه، وأمّا "بلال" المسكين فقد اضطرب وقال بذِلّة:

- أي "هي": كوني رحيمةً كما أنتِ عظيمة .. فأنا مازلت خادمك المطيع .. و لا شأن لي بما حدث .. بل هم أولئك الأشرار الذين يُسمَّون أولادى".

وطفق يقص عليها قصة المعركة كما سمعها مني، وختم حديثه قائلاً:

- ولكن البابون والأسد وخادمهما قاتلوا كالأبطال وصرعوا كثيرين إلى أن وصلت وأنقذتهم .. وقد أرسلت المُذنبين إلى هُنا - "خور" - ليُحاكَموا إمام عظمتك.

فقالت:

- نعم أيّها الرجل العجوز .. أعلم ذلك .. وسأجلس غداً في القاعة الكُبرى لمحاكمتهم .. فلا تخَف .. وأمّا إنت فقد صفحت عنك .. ولكن عليك أن تكون أكثر حزماً مع أولادك في المستقبل .. والآن اذهب!

نهض "بلالّ" على ركبتيْه بنشاطٍ مُدهِش، وأحنى راسه ثلاثاً، ثم زحف على بطنه إلى أن غادر المكان.

* * *

(16)

وحيداً مع الملكة

قالت "هي":

- ها قد ذهب ذلك الشيْخ الأحمق ذو اللحية البيضاء .. آه .. ما أقل محصول الإنسان من المعرفة .. إنه يجمعها كالماء .. ولكنها كالماء أيضاً تتسرَّب من بين أصابعه .. ومع ذلك إذا ابتلَّت يداه كما تبتل بالندى يصيح الجُهلاء قائلين: "انظروا، إنه رجلٌ حكيم" .. أليس كذلك يا .... ماذا يسمّونك؟ .. لقد دعاك بالبابون (ثم ضحكت) .. ولكن بماذا يدعونك في بلادك أيها الغريب؟

- يدعونني باسم "هولي" أيتها الملكة.

فنطقت الكلمة بشيءٍ من الصعوبة ولكن بلهجـةٍ رقيقةٍ جذّابة، ثم سألت:

- وما معنى "هولي"؟

- هو اسم شجرةٌ شائكة.

- لقد وُفِّقوا في اختيار هذا الاسم إذن .. فهو ينطبق عليك تمام الانطباق .. ولكن إذا صدق ظنّي فأنت أمينٌ يُمكِن الاعتماد عليك .. تعال يا "هولي" واجلِس إلى جانبي .. ولكن لا تزحف على بطنك كما يفعل أولئك العبيد .. فقد سئمت نفسي عبادتهم .. ولطالما قضيْتُ على الكثيرين منهم لمجرد التسلية.

وأزاحتْ "هي" السِتار بيدها البيضاء فدخلتُ الغُرفة ورُكبتاي ترتجفان - ولا عجب - فقد كان لهذه المرأة من قوّة التأثير والتسلُّط بحيث تبعث الرعب إلى أشد القلوب ثباتاً.

وكانت الغرفة مُربَّعة، بها أريكةٌ ونضد عليه فواكه وقدح من الماء، وبجانب النضد وعاءٌ من الصخر مملوءٌ بالماء الرقراق، وكانت الروائح الذكيّة تملأ جوانب الغرفة كما كانت تتصاعد من شعر "هي" الأسود الجميل وثيابها البيضاء فتُرسِل البهجة والانشراح إلى النفس.

أشارت إلى الأريكة وقالت:

- اجلس .. ولكن إيّاك أن تأتي بما يُثير غضبي وإلّا قتلتك في الحال .. فكُن رقيقاً بشوشاً.

فجلستُ على طرف الأريكة بحوار الوعاء الصخرى المملوء، بينا جلست "هي" في الطرف الآخر منها، ثم قالت:

- والآن .. حدِّثني يا "هولي": كيف تعلّمت اللغة العربيّة؟ .. إنها لُغتي العزيزة .. إذ أني عربيّة الموْلد وأنتمى إلى قبيلة "العرب العرباء" من نسل أبينا "يَعرُب بن قحطان" .. وقد وُلِدْتُ في مدينة "أوزال" القديمة في ولاية "اليمن" .. ولكني أراك لا تتكلَّم العربيّة كما نتكلَّمها نحن .. إذ تنقصك نغمة أهل "حِمْيَر" (مملكة قديمة غابرة بـ"اليمن") الرقيقة.

فقُلت:

- لقد تعلَّمتُها منذ أعوامٍ طويلة .. والناس يتكلَّمون بها في "مِصر" وغيرها.

- أحقّاً تقول؟! .. ألَا تزال "مِصر" موجودة؟! .. وفرعوْن؛ هل لا يزال جالساً على عرشه أم استولى عليه الفُرس؟

- لقد ذهب الفُرس من "مِصر" منذ ألفيْ سنةً تقريباً .. ثم احتلَّها البطالسة فالرومان وغيرهم .. ولكن كيف عرفتِ باحتلال الفُرس لـ"مِصر"؟

فضحكتْ وتغاضتْ عن سؤالي، ثم سألتْ:

- و"اليونان"؛ هل لا تزال بلاد "اليونان" موجودةً كذلك؟ .. آه .. إنني أُحب اليونانيّين .. هم رائعو الجمال .. كثيرو الحركة والنشاط .. ولكنهم مع ذلك غلاظ القلوب متقلِّبون.

- نعم .. لا تزال بلاد "اليونان" موجودة .. وقد عاد سعيها إلى الحياة في الفترة الأخيرة.

- والعِبرانيّون؛ أهُم في "أورشليم" حتى الآن؟ .. ألا يزال الهيْكل الذي شَيّده الملك "سليْمان" الحكيم موْجوداً؟ .. وأى إلهٍ يعبدون الآن؟ .. هل جاء "المسيح" الذي تكلَّموا عنه كثيراً؟ .. وهل هو يحكم الأرض كما كانوا يتنبَّأون؟

فأجبت:

- قد تشتَّت شمل اليهود ودالت دوْلتهم .. ولم يبقَ منهم إلّا القليلون .. وهم مُبعثَرون الآن في أنحاء المعمورة .. وأمّا الهيْكل الذي شيَّده "هيرودس" ....

فقاطعتني:

- "هيرودس" .. لست أعرف "هيرودس" هذا .. ومع ذلك استمِر.

استطردتُ مُتمِّماً حديثي:

- .... فقد أحرقه الرومان .. وتُحلِّق النسور الآن فوْق أطلاله.

- أحقّاً؟! .. لقد كان أولئك الرومان شعباً عريقاً بلغ غايته في مُدَّةٍ وجيزة .. ثم خلَّف السلام وراءه.

فقُلتُ باللاتينيّة:

- إن الوحدة تدعو إلى السلام والوئام.

فقالت بدهشة:

- آه! .. إنك تتكلَّم اللاتينيّة أيضاً! .. يُخَيَّل إليَّ أنك رجلٌ غزير العلم واسع الاطلاع .. هل تعرف اليونانيّة أيضاً؟

- نعم أيتها الملكة .. وعلى إلمامٍ كذلك بالعِبرانيّة.

فصفَّقت بيدها سروراً كما يفعل صِغار الأطفال، وقالت:

- إنك شجرةٌ قبيحة المنظر ولكنها تحمل ثمار الحِكمة والمعرفة .. حدِّثني يا "هولي" عن أولئك اليهود الذين أبغضهم من كل قلبي لأنهم كانوا يُطلِقون عليَّ اسم "الوثنيّة" كلّما أردتُ أن أعلِّمهم فلسفتي .. خبِّرني: هل جاء مسيحهم؟ .. وهل حكم العالم؟

قلت باحترام:

- نعم .. جاء المسيح .. ولكنه جاء مُعدَماً .. فلم يُعيروه أدنى اهتمام.

فقالت غاضبةً:

- هذا شأن أولئك الوحوش دائماً . هم ذئابٌ جشعون .. لطالما سحقوا قلبي وجعلوني أنظر إلى العالم بمنظارٍ أسود .. فهُم الذين ساقوني إلى هنا .. إلى هذا المكان الموحِش .. وشَدَّ ما يسرني أن أعلم أنهم مُشرَّدون في الأرض .. إنني كنتُ كلّما حاولتُ أن أُعلِّمهم الحكمة في "أورشليم" رجموني بالحجارة .. نعم .. كان الكهنة يُحرِّضون الناس ليرجموني بالأحجار .. أنظر .. مازال أثر عملهم باقياً حتى اليوْم.

وكشفت "هي" فجأةً عن ساعدٍ ملفوفٍ ناصع البياض، وأشارت إلى أثر جُرحٍ صغيرٍ أحمر، فتراجعتُ إلى الوراء مأخوذاً، وهتفت:

- أرجو صَفحكِ أيتها الملكة .. إنني لا أُصدِّق أُذُني .. فقد مضى نحو ألفيْ عامٍ على صَلْب "المسيح" .. فكيف استطعتِ أن تُعلِّمي اليهود فلسفتكِ قبل ولادته؟! .. إنكِ امرأةٌ كسائر النساء ولستِ روحاً .. فكيف تستطيع امرأةٌ أن تعيش ألفيْ عام؟! .. لا شك أنكِ تسخرين مني أيتها الملكة.

اضطجعتْ "هي" إلى الخلف، ثم نظرت إليَّ بإمعانٍ وقالت بهدوء:

- اصغَ إليَّ يا "هولي" .. يبدو أن ثمَّة أسراراً باقيةً في العالم مازِلتَ تجهلها .. هل تعتقد أن جميع المخلوقات مآلها إلى الفَناء كما يعتقد أولئك اليهود؟ .. هذا خطأٌ يا "هولي" .. إن المسألة كلها لا تعدو أن تكون "تغييراً".

وأشارت إلى بعض الرسوم على الجدران، واستطردت:

- انظر .. لقد انقضى نحو سِتّة آلاف سنةٍ على الوباء الذي فتك بآخر سلالة الشعب العريق الذي رسم هذه الصور .. ومع ذلك فإنهم لم يموتوا ولا يزالون على قيْد الحياة حتى الآن .. وربما كانت أرواحهم ترقبنا الآن.

وتلفَّتتْ فيما حوْلها، واستطردتْ:

- لعَمري؛ يُخَيَّل إليَّ أحياناً أنني أشعر بأرواحهم تهيم حوْلي.

- لقد ماتوا بالنسبة إلى هذا العالم.

- نعم .. ولكن لمُدَّةٍ مُعيَّنةٍ ثم يُولدون ثانيةً وثالثة .. أقول أنني أنا "عائشة" - وهو اسمي أيها الغريب - أنتظر الآن شخصاً أحببته سيولَد من جديد .. وسأبقى هنا إلى أن يجدني .. إنني واثقةٌ كل الثِقة من أنه

سيأتي إلى هنا - وهنا فقط - وسيلقاني ويعانقني .. فهل تدري لماذا أنني أنا صاحبة القوّة والبأس؟ .. أنا التي يفوق جمالي جمال "هيلانة" (قِدّيسةٌ عُرِفَت بجمالها الأخّاذ) الإغريقيّة؟ .. أنا التي أحطتُ بأسرار الأرض وكنوزها؟ .. أنا التي تغلَّبتُ مُدَّةً من الزمن على "التغيير" الذي تُطلقون عليه أنتم اسم "الموْت"؟ .. أقول هل تدري أيها الغريب السبب الذي حملني على البقاء مع هؤلاء البرابرة الهمج طوال هذا الزمن؟

فقلت بتواضُع:

- كلا ياسيّدتي .. لا أدري.

- إنني أنتظر هُنا قدوم الذي أحببته .. ربما كانت حياتي شرّيرة .. ولذا فأنا أخاف أن أتخلّى عن الخلود الذي أستمِدُّه من هُنا فأعود فانيةً لأذهب للبحث عنه حيث يوجد خشية أن يُقام بيني وبينه سدٌ لا أستطيع عبوره .. مهما يكُن؛ فلابد أن يأتي اليوْم - وقد يكون ذلك بعد مُضي خمسة آلاف سنة كما قد يكون ذلك غداً - الذي يولَد فيه حبيبي مرّةً أخرى .. ثم يخضع لقوّةٍ قاهرةٍ فيأتي ليلقاني هُنا حيث تبادلنا القبلات ذات مرّة .. ولا بُد أن تلين لي قناته ويخضع لحُبّي حتى لوْ أسأتُ إليه.

استوْلى عليَّ الذهول، وعقدت الدهشة لساني، وحاولتُ أن أهضم تلك القِصّة العجيبة التي لا يسيغها العقل فلم أستطِع، وأخيرا قُلت:

- لنفرض أن ذلك صحيحٌ أيتها الملكة .. لنفرض أننا نحن الرجال قوام التوالُد والنسل .. فإذن هذا الافتراض لا ينطبق عليكِ إذا كُنتِ تقرِّرين الحقيقة.

فرمقتني بنظرةٍ غاضبةٍ من عيْنيْها المحجَّبتيْن، فأسرعتُ أقول:

- أنتِ التي لم تذوقي طعم الموْت؟

- هذا صحيح .. فقد أمكنني بطريق الصُدفة وطريق العِلم أن أحل سِرّاً من أعظم الأسرار .. أخبرني أيها الغريب: ما هي الحياة؟ .. ألَا يُمكِن مَدَّها وقتاً آخر؟ .. ماذا تكون عشرة آلاف سنةٍ أو عشرين أو خمسين ألفاً في تاريخ الحياة؟ .. إن الأمطار والعواصف لا تستطيع أن تهدم قيراطاً من قِمَّة جبلٍ في عشرة آلاف سنة .. إن ألفيْ سنةٍ لم تُغيِّر شيئاً من هذه الكهوف .. لم يتبدَّل فيها إلّا الوحوش والإنسان .. ليس في الأمر شيءٌ غريبٌ لو أمكنك أن تُدرِك الحقيقة .. نعم إن الحياة غريبة .. ولكن إذا طالت قليلاً فهل يكون ذلك أمراً غريباً؟ .. إن الطبيعة وحدها هي التي تتغيَّر لأنها ليست أبديّةً بل يجب أن تموت أو بالأحرى تتغيَّر أو تنام إلى إن يحين الوقت لتُبعَث من جديد .. ولكن متى تموت؟ .. لم يِحن ذلك الوقت بعد .. وسيعيش مَن يعرف أسرارها ما دامت هي باقية .. لاريْب أن هذا سِرٌ يستعصى عليك فَهْمه أو إدراكه .. ولذا فلن أُثقِل عليك بهذا الحديث الآن .. ولننتقل إلى موْضوعٍ آخر أسهل إدراكاً وفَهْماً .. لعلَّك دُهِشْتَ لأنني عرفتُ بقدومكم إلى هذه البلاد وأنقذتكم من الغرق؟

- نعم أيتها الملكة.

- إذن انظر إلى هذا الماء.

وأشارت إلى الوعاء المملوء بالماء، ومالت إلى الأمام ثم رفعت يدها فوقه.

* * *

(17)

"عائشة" ترفع الحجاب

نهضت وحملقت في الماء، وعندئذٍ رأيته يتحوَّل إلى لوْنٍ قاتم، ولم يلبث أن راق وصفا، فرأيْت زوْرقنا في تلك التُرعة المروِّعة واضحاً جليّاً، وكان "ليو" نائماً في قاعه وقد غطَّى وجهه بسُترةٍ لتمنع عنه أذي البعوض، ثم رأيت شخصي و"جوب" و"محمداً" ونحن نجذب القارب من فوْق الشاطئ.

تراجعت إلى الخلف خطوةً وأنا مبهوتٌ لرؤية هذا المنظر، وصِحت:

- إن هو إلّا سحر!!

فابتسمت وأجابت:

- لا .. لا يا "هولي" .. ليس هو بسحر .. فالسحر نوْعٌ من الجهل وليس في الدنيا شيءٌ اسمه السحر .. ولو أن هناك ما نُطلِق عليه اسم "معرفة طُرُق الطبيعة السِريّة" .. إن هذا الماء مرآتي التي أستطيع أن أعرف بواسطتها ما يخفى على البشر .. ففي استطاعتي أن أُريك على صفحة هذا الماء ما تريد أن تراه من حوادث الماضي .. ويكفي لذلك أن تُفكِّر في ذلك الشيء لترى صورته منعكسةً على صفحته .. إنني لم أقف بعد على جميع الأسرار .. وليس في استطاعتي معرفة المُستقبَل .. وأمّا هذا الذي أعرفه فسِرٌّ قديمٌ عرفته الساحرات في "مِصر" وبلاد العرب منذ أجيال .. وقد اتُفِقَ ذات يوْمٍ أن فكَّرت في القناة القديمة التي مرَّ على مروري فيها نحو عشرين جيلاً .. وعوَّلت على أن أراها مرّةً أُخرى ..

فنظرت إلى الماء .. وعندئذٍ رأيت زوْرقاً وثلاثة رجالٍ يسيرون على الشاطئ .. بينا كان شابٌ - لم أستطِع أن أتبيَّن وجهه - مُمَدَّداً في الزوْرق .. فأرسلت مَن أنقذكم .. والآن حدِّثني عن هذا الشاب الذي يُسمّيه الشيْخ "بلال" "الأسد" .. فإنني أتوق إلى رؤيته .. ولكنك تقول أنه مريضٌ بالحُمّى ومصابٌ بجُرح.

فقُلت بحزن:

- نعم .. إنه مريضٌ جداً .. أفلا تستطيعين أن تفعلي شيئاً من أجله أيتها الملكة؟ .. يا مَن أُحطتِ من العِلم والمعرفة بما لم نُحِط به؟

- نعم أستطيع أن أُبرِئه .. ولكن لِمَ أنت شديد الحُزن .. هل تحب الشاب؟ .. أظنه ابنك.

- لقد تبنيْته أيتها الملكة .. هل تسمحين بنقله إلى هُنا؟

- كلا .. متى أصابته الحُمّى؟

- منذ ثلاثة أيّام.

- إذن دعه يوْماً آخر .. فربما تغلَّب على الحُمّى بقوّته .. فهذا خيْرٌ من علاجه بعقاري الذي يهز الروح في مكانها .. فإذا لم تتحسَّن حاله حتى مثل هذه الساعة من الغد فسآتي لأُشفيه .. لكن من يتولّى العناية به؟

- خادمنا الأبيض ويُدعى "جوب" .. وامرأةٌ تُدعى "أوستين" .. وهي فتاةٌ جميلةٌ من أهل هذه البلاد جاءت وعانقته عندما وقع بصرها عليه .. ثم لازمته حتى الآن حسب عادة شعبكِ أيتها الملكة.

فهتفت:

- شعبي! .. لا تقُل شيئاً عن شعبي .. فقد مللت البقاء بين هذه الوحوش .. ومجَّت أُذُناي الألقاب وألفاظ التملُّق .. فنادِني باسم "عائشة" .. وأما

"أوستين" هذه فلا أعلم شيئاً عنها .. ولا أدرى إن كانت هي التي حذرت منها . هل لها .... قِف .. سأرى.

ومالت فوق وعاء الماء ومرَّت فوقه بيديْها، ولم تلبث أن قالت:

- انظر .. هل هذه هي المرأة؟

فنظرتُ إلى الماء وعندئذٍ رأيت وجه "أوستين" الجميل مُنعَكِساً فوق صفحته اللامعة، وكانت الفتاة تنحني إلى الأمام وتُرَتِّب شيئاً أمامها، استوْلى عليَّ الاضطراب لرؤية هذا المنظر الغريب وقُلتُ بصوْتٍ خافت:

- نعم .. إنها هي ولا ريْب .. إنها تراقب "ليو" وهو نائم.

فقالت "عائشةٌ" بلهجةٍ مُضطرِبة:

- ليو؟! .. هذا الاسم معناه "الأسد" باللاتينيّة .. لقد نطق الشيْخ "بلالٌ" بهذا الاسم عن حِكمة.

وناجت نفسها قائلة:

- يا له من أمرٍ غريب! .. غريب جِدّاً! .. إنه لكذلك .. ولكن هذا مستحيل.

ومرَّت بيدها فوق سطح الماء مرة أخرى فاختفى المنظر في التوْ، وأطرقت "عائشةٌ" هُنيْهة، ثم رفعت رأسها وقالت:

- هل لديك ما تُريد أن تقوله يا "هولي"؟

فقلت بجرأةٍ لم أعهدها في نفسي من قبل:

- نعم .. أريد أن أُلقي نظرةً واحدةً على وجهكِ.

فضحكت ضحكةً عذبةً ثم قالت:

- فكِّر فيما تقول يا "هولي" .. إذ أخشى أن يصرعك جمال وجهي .. ثم اعلم أيضاً أنني لست لك .. وإنما لرجلٍ مُعيِّنٍ لم يأتِ بعد.

فهززت كتفيَّ استخفافاً وقلت:

- لست أخشى جمالك يا "عائشة" .. فقد صرفت قلبي عن هذه الأمور الزائلة التي تُسمّونـها "الجمال النسوي" .. وهو الذي لا يلبث أن يذبُل كما تذبُل الزهور.

- لا .. إنك مخطىءٌ يا "هولي" .. فإن جمالي لن يذبُل .. وسيبقى مادُمْتُ على قيْد الحيـاة .. لكن على رِسْلك يا صاحبي .. إذا كنت تُصِر على رؤية وجهي فسأجيبك إلى طلبك.

- نعم .. نعم.

فرفعت "هي" ذراعيْها البيضاويْن الملفوفتيْن، وحلَّت ببطءٍ مشبكاً مُلتَصِقاً بشعرها، وسرعان ما سقط وشـاحـهـا الرقيق فوْق الأرض، وعندئذٍ جالت عيْناي في قوامهـا البديع الذي لم يعُد يستره الآن غير ثوْبٍ أبيض شفاف يكشِف عن قوامها المعتدل ورشاقتها الدالَّة على حياةٍ أعظم من الحياة العاديّة وجمالٍ يتضاءل أمامه الجمال البشري، وكانت تلبس في قدميْها الدقيقتيْن حذاءً مكشوفاً (صندلاً) صُنِعَت أربطته من الخيوط الذهبيّة، بينا أحـاط بخصرها وحوْل صديريّتها منطقةٌ (حزامٌ عريض) على شكل ثعبانٍ مزدوج الرأس مصنوعةٌ من الذهب الخالص يتماوج فوْقهـا قوامها البديع إلى أن تنتهي الصديريّة فوْق صدرهـا العاجي النـاصع البياض.

ورفعت عيْني إلى ما فوْق صدرها، إلى وجهها، ولم ألبث أن جمدتُ في مكاني مبهوراً مسلوب اللُب، لقد سمعت عن الجمال الملائكي؛ فهأنذا الآن أراه مُجسَّماً أمامي.

ومن المشكوك فيه أن يستطيع إنسانٌ أن يُصوِّر جمال "عائشة"، ذلك الجمال القاهر الجبّار ذا التأثير السحري النفّاذ.

ومع أن وجه "عائشةٍ" كان وجه امرأةٍ لا تتجاوز الثلاثين من عُمرها إلّا أن الأحزان العميقة والتجارُب المؤلمة والغرام المُلتهب كانت قد رسمت عليه خطوطها وتركت فوْق صفحته أثراً لا يُمحَى، فلم تستطِع تلك الابتسامة الرقيقة التى افتر عنها ثغرها أن تُخفي تلك الأحزان الدفينة التى انعكس أثرها في عيْنيْها النجلاويْن.

شعرتُ بقوّةٍ سحريّةٍ لم أستطِع مقاومتها تجذب عيْنيَّ للنظر إليها، فالتقتا عيْناي بعيْنيْها اللامعتيْن اللتيْن خُيِّل إليَّ كأن تيّاراً كهربائيّاً ينبعث منهما بهر عيْنيَّ وكاد يعميهما.

وضحكت "عائشةٌ" ضحكةً عذبةً ثم أحنت رأسها إليَّ بدلالٍ وقالت:

- أيها الرجل العنيد .. لقد نِلت بغيتك فاحذر أن يقتلك الحُب .. واعلَم يا "هولي" أنني بمأمنٍ من الوقوع فى حُب أى رجلٍ عدا واحداً .. وهو ليس أنت وإنما ذلك الذي لم يأتِ بعد .. والآن: هل أنت قانعٌ بما رأيْت؟

فأجبت بصوْتٍ أجش وقد رفعتُ يدي لأحجب عيْنى:

- لقد نظرتُ إلى الجمال فصرعني.

- أحقٌّ ما تقول؟ .. ماذا قلت لك؟ .. أن الجمال يا "هولي" كالبرق يخطف الأبصار .. ولكنه بديع المنظر .. ثم إنه يُتلِف الأشياء يا "هولي" .. ولا سيّما الأشجار.

وأطرقت ثم ضحكت، وأخذت أراقبها من خلال أصابعي فاذا بوجهها يتغيَّر فجأة، فتبرق عيناها وتتقلَّص عضلات وجهها بشكلٍ مروِّعٍ حتى لقد خُيِّل إليَّ أن اضطراباً شديداً يناضل أملاً كبيراً تولَّد في قلبها المُحطَّم، ولم ألبث أن رأيْتُها وقد رفعت صدرها كالحيّة حين تتأهَّب للقتال، وهتفتْ بصوْتٍ أجش:

- أيّها الرجل: من أين أتيْتَ بهذا الرمز الذى تضعه فى إصبعك؟ .. تكلَّم .. وإلّا بحق "روح الحياة" لقضيْتُ عليك حيث أنت.

وتقدَمت نحوي خُطوةً وعيْناها ترسلان شرراً مُخيفاً، فلم أتمالك أن ترنَّحت هوْلاً وجزعاً، ثم سقطتُ فوق الأرض، وسرعان ما تغيَّر حالها فجاة .. وقالت بصوْتها الرقيق المُعتاد:

- كُن مُطمئِناً .. لقد أخفتك .. فاصفح عني يا "هولي" .. والحقيقة أن عقلي يمل أحياناً الركود الذى لا نهاية له فأُضطَّر إلى استخدام قوّتي للترويح عن نفسي .. ولذا أرجو معذرتك .. والآن أخبرني: أيْن وجدت هذا الرمز؟

فتهضتُ وأنا أرتجف، ثم قُلتُ مُتلَعثِماً:

- لقد عثرت عليه.

والواقع أنني كنت فى حالةٍ عقليّة سيئةٍ وفِكْرٍ مُشوَّشٍ فلم أتذكَّر شيئاً عن الخاتم إلّا أنني وجدته فى كهف "ليو"، ونسيت تماماً أنه خاتم "ليو" الذي سقط من إصبعه على أرضيّة الكهف حيث يرقد محموماً.

زاد اضطراب "عائشة" وغضبها حين سمعت إجابتي، وقالت :

- هذا غريبٌ جِدّاً .. إني أعرف رمزاً كهذا الذي في الخاتم تماماً كان يتدلَّى من عُنُق شخصٍ أحببته.

ثم تنهَّدتْ واستطردتْ:

- فلابد إذن أن هذا الرمز يماثل ذلك الذى أعرفه .. ومع ذلك فإنني لم أرَ له مثيلاً من قبل لأن له تاريخاً مشهوداً .. ثم إن الرمز الذى أعرفه لم يكن موْضوعاً فى خاتمٍ من الذهب كهذا .. اذهب الآن يا "هولي"

واتركني وحدي .. وحاوِل أن تنسى أن جهلك قد جرَّك إلى رؤية جمال "عائشة".

وتحوَّلتْ عني ثم تهالكت فوْق الأريكة ودفنتْ وجهها بيْن يديْها، وأمّا أنا فغادرت الغُرفة وأنا أتعثَّر فى سيْري، ولا أدري كيف بلغت كهفي.

* * *

(18)

لعنة "عائشة"

ذهبتُ إلى فِراشي رأساً وقد استبدت بي الهواجس، ورُحت أستعرض ما رأيت وما سمعت، بيْد إنني كنت كلّما أمعنت في التفكير التبس عليَّ الأمر وزاد غموضاً، فمَنذا يُصدِّق أنني - وأنا الرجل الذي يسخر من الخُرافات والأساطير - كنت مُنهَمِكاً في مُحادَثة امرأةٍ عُمرها حوالي ألفيْ عام؟!، إن الأمر لا يعدو سخافةً أو أُضحوكة.

ولكن ماذا يُستَنتَج من هذه الأُضحوكة؟، ماذا يقول المرء عن الصور التي تمثَّلت في وعاء الماء؟، وعن معرفة المرأة بالماضي البعيد؟، ثم ماذا يستطيع الإنسان أن يقول عن جمالها المُروِّع؟

وللمرّة الأولى في حياتي شعرت بقلبي يخفق بشِدَّة، يا إلهى!!، يُخيَّل لي أنني سقطت أسير تلك المرأة الفاتنة، نعم؛ أعترف - وأنا في نحو الخمسين من عُمري - بأني خضعت كل الخضوع لهذه الساحرة، واستسلمت لإرادتها كل الاستسلام.

وحاولت ألّا أُفكِّر في "عائشة" من حيث هي امرأةٍ جميلة، وتساءلت عمّا كانت تبغيه من كلامها عن الرمز، أنه رمز "ليو" الذي عثرنا عليه داخل الصندوق الذي تركه عندي "فنسي" منذ واحدٍ وعشرين عاماً خَلَتْ، تُرى هل القِصّة حقيقيّة؟، وهل الكتابة المنقوشة فوق قطعة الخزف العتيقة صحيحة؟، وإذا كان ذلك فهل يمكن أن يكون "ليو" هو الرجل الذي تنتظره "هي"؟، أو بعبارةٍ أدق هل هو الرجل الميّت الذي تنتظر

ولادته من جديد؟، هـذا مُستحيل بل هو فرضٌ أقرب إلى الجنون منه إلى العقل؟، إذ مَن سمع برجلٍ وُلِدَ من جديد؟!

ولكن إذا كان من المُستَطاع أن تعيش امرأةٌ ألفيْ عام أفلا تكون الولادة من جديد أمراً مُمكِناً؟، وإذا صحَّت هذه النظريّة فربما أكون أنا شخصاً مات ونُسيَ في العصور الأولى ثم عاد إلى الحياة في شخصي من جديد، ولكنني ـ مع الأسف ـ لا أذكر شيئاً ممّا وقع لي قديماً.

كانت فكرةً سخيفة، فأُغرِقت في الضحك، ولكن سرعان ما تذكَّرت أنني لم أقف بعد على حالة "ليـو" فذهبت لزيارته. وشَدَّ ما راعني منظره وهو يتململ في فراشه بسبب الحُمَّى، وقد اتَّقدت وَجنتاه وأحاطت بعيْنيْه هالتان سوْداوان.

تملَّكني الجزع وخفت أن يموت الشاب، ولكن ألَا يجوز أن يكون هو مُنافسي في حب "عائشة" إذا عاش، وإذا فُرِضَ ولم يكن "ليو" بالرجل الذي تنتظره فإنه ـ لا ريْب ـ سينتصر عليَّ بما أوتي من شبابٍ غض وجمالٍ فاتن.

مهما يكن؛ فقد شكرت الله أن "عائشة" لم تسلبني نِعمة التفكير المُتَّزِن، وابتهلت إليه أن يحفظ حياة "ليو" حتى ولو كان هو الرجل الذي تنتظره "هي".

وعدتُ أدراجي إلى غُرفتي، ولكني لم أستطِع النوْم، فقد كانت صورة تلك المرأة الساحرة تشغل عليَّ كل تفكيري، ولم أتمالك أن قفزتُ من فِراشي، ورُحت أذرع الكهف جيئةً وذهاباً وأنا مُطرَق الرأس، إلى أن وقع بصري فجأةً على شيءٍ لم أفطن إليه من قبل، ذلك أننى رأيْتُ ثغرةً ضيّقةً في الجدار الصخري، فتناولت المصباح وفحصتها، فألفيْتُها تؤدِّي إلى ممر،

ولمّا كنا شِبه أسرى بين هؤلاء الوحوش فلم يكُن مما يبعث الاطمئنان إلى النفس أن يجد الإنسان ممرّاتٍ سِريّةٍ تؤدِّي إلى غُرفته.

وتملَّكتني الرغبة لمعرفة خفايا هذا الممر السِرّى فنفذت إليه حاملاً مصباحي، وألفيْته يؤدِّي إلى دَرجٍ صخري فهبطته، وانطلقت في نفقٍ من الصخر حتى إذا ما قطعت خمسين خُطوَةً تقريباً بلغتُ نفقاً آخر يقطع الذي أسير فيه بزاويةٍ قائمة، وهنا وقع حادثٌ مُروِّع إذ هبّت ريحٌ قويّةٌ أطفأت المصباح وخلَّفتني في ظلامٍ دامس.

خطوْتُ بِضْعَ خُطواتٍ إلى الأمام حتى وصلت إلى الدهليز الآخر، ثم وقفت أُفكِّر فيما عساي أن أفعل، لم يكُن معي ثِقاب (كبريت) وكان من المجازفة أن أحاول العوْدة في هذا الظلام الحالك، بينا لم يكُن في استطاعتي البقاء في مكاني طول الليْل، وإذا فعلت فإن ذلك لن يُجديني نفعاً لأن نور النهار لا يصل إلى قلب الصخر ولا يبدد الظلام الذي يضرب في أنفاقه.

وفجأة رأيْت على مسافةٍ بعيدةٍ مني قَبَساً ضئيلاً يُشبِه بريق النار، فخطر لي أنه ربما كان هنـاك كهفٌ أستطيع أن أجد فيه نوراً أو أهتدي به إلى مخرجٍ من هذه الورطة.

سِرتُ وأنا أتحسَّس طريقي ببطءٍ وحَذَر خشية أن أتردَّى في هوّةٍ سحيقة، فلمّا قطعت ثلاثين خُطوةً رأيْتُ ضوْءاً عظيماً يظهر ويختفي من خلف ستار فواصلت السيْر حتى بلغته، وكانت شِقَّتا هذا الستار مُنفرِجتيْن فاستطعت أن أرى ما خلفه، ويا لغرابة مارأيت!

رأيت كهفاً يُشبِه القبر تُضيئه نارٌ متأجِّجةٌ في وسطه لها لهيبٌ أبيض ولكن لم يكن يتصاعد منها دخان، وإلى اليسار كانت هناك مصطبةٌ حجريّةٌ لها حافّةٌ ارتفاعها ثلاثة قراريطٍ تقريباً وُضِعَ عليها ما ظننته جُثَّةٌ

غُطِّيَتْ برداءٍ أبيض، وكانت إلى اليمين مصطبةٌ أخرى مماثلةٌ عليها أغطيةٌ موشاة، ثم رأيت امرأةً تميل فوق النار وهي تُطيل النظر إلى اللهب على ما يبدو، وكانت راكِعةً على رُكبتيْها ووجهها إلى الجُثَّة وهي ترتدي ثوْباً أسود سابغاً كثياب الراهبات.

وفجأة رأيت المرأة تقف على قدميْها ثم تُلقي عنها الوشاح الأسود فإذا بها "هي" بعيْنها، رأيْتُها في تلك اللحظة كما رأيتها عندما أسفرت عن وجهها الساحر، وبدافعٍ من قوّةٍ خفيّة - لعلَّها قوّة رُعبٍ أكثر منها تأثير جمال - ركَّزتُ عيْنيَّ في وجهها، ذلك الوجه الذي تمثَّلتْ فيه في تلك اللحظة علامات الألم والحُب القاتل، وفي هاتيْن العيْنيْن الزائفتيْن اللتيْن تجلَّى فيهما الشقاء الذي يقصر دونه الوصف.

وقفت "عائشةٌ" جامدةً في مكانها هُنيْهة، ويداها مرفوعتان فوق رأسها، وعندئذٍ انزلق ثوْبها الأبيض إلى منطقتها الذهبيّة، وفجأةً؛ تذكَّرتُ ما قد ألقاه منها لو أنها فطنتْ إلى وجودي، فاضطربت ودبَّ الذُعر في قلبي، ولكني لم أستطِع التحرُّك من مكاني خشية أن تشعر بي.

أسقطتْ "عائشة" ذراعيْها إلى جانبها بعد هُنيْهةٍ ثم عادت فرفعتهما مرّةً أُخرى فوْق رأسها فتبعها لهيب النار وارتفع حتى كاد يلمس سقف الكهف، وخلع على "عائشةٍ" ثوْباً لامعاً من البهاء والجلال كما خلع على كل ما في الكهف ثوْباً من الأرجوان، وأنزلت "عائشة" ذراعيْها بالتالي، ثم تكلَّمت أو بالحري غمغمت بالعربيّة بنغمةٍ كادت تقف لها دقّات قلبي، وقالت:

- لتحل عليها اللعنة .. لتحل عليها اللعنـة إلى الأبد.

وللمرّة الثالثة رفعتهما ثم أسقطتهما ثم فعلت ذلك للمرة الرابعة، وفي كل مرّةٍ يتصاعد اللهب ويهبط تبعاً لحركة ذراعيْها، وقالت:

- لتحل اللعنة على ذِكرى تلك المرأة المصريّة ابنـة النيل لجمالها وفتنتها .. لتحل عليها اللعنـة لأن قوّة سحرها تغلَّبت على قوّتي .. عليها اللعنة لأنـها حالت بيني وبين حبيبي.

وارتفع اللهب مرّةً أُخرى ثم هبط، ورفعت "عائشةُ" يديْها أمام عيْنيْها ثم قالت بصـوتٍ مسموع:

- وماذا تُجدي اللعنات .. إنها انتصرت عليَّ وذهبت.

ثم استطردت بلهجةٍ مُخيفة:

- لتحل عليها اللعنـات أينما كانت .. ولتصل إليها حيث هي .. ولتُقلِق راحـة نفسها .. لتصل إليها اللعنات في عالم الأرواح حيث سألقاها هناك يوماً ما.

وهبط اللهيب، فغطَّت "عائشةُ" عيْنيْها براحتيْها ثم صرخت:

- يا للحماقة! .. مَن يستطيع الوصول إلى الذين ينامون تحت أجنحة قوّة الموْت؟! .. لا أحد .. حتى ولا أنا.

وكأنما بلغ منها الجهد والملل مبلغاً عظيماً، إذ لم تلبث أن جلست فوْق أرض الغُرفة، وأخذتْ تتأوَّه من قلبٍ مكلوم، وعادت تقول:

- لقد انتظرتُ ألفيْ عامٍ وأنا أتناسى الآلام المُبرِّحة .. ينقضي الجيل تِلو الجيل ووخزات الذِكرى المُؤلِمة لا تزال تحز في نفسي .. وقَبَس الأمل لا يزال ضعيفـاً ضئيلاً .. آهٍ ثم آه .. لقد عِشتُ ألفيْ عامٍ أعاني آلام الحُب وهي تنهش صدري .. وخطيئتي ماثلةٌ أمام عيني .. آه .. إنني لم أستطِع أن أنسى آلام الذِكرى على طول عهدي بالحياة .. أيّها الحبيب: لماذا أتت

تلك الغربية إلى هذه البلاد؟ .. ألم أتحمَّل ذلك العذاب القاتل منذ خمسة أجيال؟ .. آهِ أيها العزيز .. إذا كنتُ قد أخطأتُ أَفَلَم أُكَفِّر عن خطيئتي؟ .. متى تعود إليَّ حتى أتذوَّق طعم الحياة؟ .. ماذا أستطيع أن أفعل؟ .. لماذا لم أمُت معك؟ .. أنا التي قتلتك بيدي؟ .. واحسرتاه! .. إنني لا أستطيع أن أموت.

ثم تمدَّدت فوق الأرض، وانخرطت تبكي بحرقةٍ حتى خُيِّل إليَّ أن قلبها سيتمزَّق، لكن سرعان ما كَفَّتْ عن البُكاء فجأة، ووثبت واقفةً فأصلحت هِندامها، ثم تقدَّمت من الجُثَّة المُسجاة، وهتفت:

- "كاليكراتس": لا بُد لي أن أنظر إلى وجهك مرّةً أُخرى برغم أن ذلك يُزيد في آلامي وعذابي .. لقد مضى جيلٌ منذ رأيت جثمانك لآخر مرّة .. أنا التي قتلتك بيدي.

ومدَّت يدها المُرتَعِشة وأمسكت طرف الثوْب الذي يحوي الجُثّة المُسجاة فوق المصطبة الحجريّة وسكتت.

ثم عادت إلى الكلام فقالت بصوتٍ أجش:

- أَأُعيدك إلى الحياة مرّةً أُخرى كي تقف أمامي كما كُنت تفعل قبلاً؟ .. نعم .. في استطاعتي أن أفعل ذلك.

ثم مدَّت يدها فوق الجُثّة وقد تصلَّب جسمها حتى صار يُلقي الذُعر في النفس وخُيِّل إليَّ أن عيْنيْها قد سكنتا في محجريْهما، فاستوْلى عليَّ الفزع وأقشعرَّ بدني وأنا أرقُبها من وراء السِتار، وإذ كنتُ في دهشتي خُيِّل إليَّ أن الجُثّة أخذت تهتز والكفن الذي يشملها يتحرَّك كأنه فوْق صدرٍ نائم، بيْد أن "عائشةً" لم تلبث أن سحبت يدها وخُيِّل لي أن حركة الجُثّة قد سكنت مرّةً أخرى، ثم قالت "هي" بصوتٍ حزين:

- لماذا أرُدّك إلى الحياة؟ .. ما الفائدة من دعوة "شبه الحياة" وأنا لا أستطيع دعوة الروح؟ .. وبفَرْض أنك وقفتَ أمامي؛ فإنك لن تعرفني .. ولا تستطيع أن تقول إلّا ما آمرك به .. لأن "شبه الحياة" التي ستدبُّ فيك هي حياتي أنا وليست حياتك يا "كاليكراتس".

وظلَّت "عائشةٌ" على هذه الحال هُنيْهة ثم جثت جانب الجُثّة وأخذت تُقبِّل القماش وتبكي بدمعٍ هتون (غزير)، ولم أُطِق أن أشهد هذا المنظر الأليم فحوَّلتُ وجهي وزحفت وسط الظلام ببطءٍ وحذر، حتى وصلت إلى الممر الذي يتقاطع مع الدهليز الذي رأيته من قبل، وحينئذٍ استطعتُ أن أعود إلى كهفي وأنا أنتفض من الخوْف.

* * *

(19)

حُكم "عائشة"

أفقتُ من نوْمي في صباح اليوْم التالي وأنا مُهدَّم الأعصاب بادي التعب، فألفيْت "جوب" يُزيل الأتربة التي علقت بثيابي في الليْلة الماضية، وقد سألته عن صحة "ليو" فأنبأني أنها ساءت كثيراً، وعندئذٍ أسرعت بارتداء ثيابي وانطلقت لأراه.

واستفسرت من "أوستين" عن حال الشاب فلم تُجِب، وإنما هزَّت رأسها في أسى وأخذت تبكي، كانت آمالها في نجاته ضعيفةً ولا ريْب، فحزمت أمري على الالتجاء إلى "هي" لتُنقِذه من مخالب الموْت كما وَعَدَتْ.

وفيما كنت أتحدَّث إلى "أوستين" جاء "بلالٌ" ليدعوني إلى مشاهدة محاكمة المُذنِبين الذين حاولوا قتلنا، فحاولت أن أعتذر ولكنه قال أن ذلك أمر "هي" التي يجب أن تُطاع، فسِرتُ في أثره حتى وصلنا إلى كهفٍ كبيرٍ في صدره منصَّةٌ صخريّةٌ مرتفعةٌ فوْقها مقعدٌ خشنٌ من الخشب الأسود مُطعَّم بالعاج وتحته مقعدٌ صغيرٌ خشبيٌ لوضع الأقدام، وكان أمام المنصَّة عددٌ كبيرٌ من الرجال والنساء.

وفجأة؛ سمعت أصواتاً تقول:

- "هي" .. "هي".

فانبطح الحاضرون على الأرض وجمدوا في أماكنهم، وأقبل الحُرّاس من ممرٍّ على اليسار واصطفّوا على جانبيْ المنصّة، وجاء في أثرهم نحو عشرين من الرجال البُكم يتبعهم عددٌ كبيرٌ من النساء البكماوات يحملن

المصابيح، وفي المؤخِّرة سارت "هي" بقامتها الفارعة وثوْبها الأبيض الناصع.

صعدت "عائشة" المنصّة ثم جلست على المقعد وبادلتني حديثاً قصيراً عن حالي وكيف قضيْتُ الليلة الماضية، وأخيراً تحوَّلت إلى قائد الحرس وأمرته بإحضار المُتَّهَمين، وما هي إلّا هُنيْهةٌ حتى أقبل عددٌ من الحُرّاس وهم يقودونهم أمامهم، وكان عددهم حوالي العشرين.

وكانت دلائل الرُعب المستحوذ على قلوبهم الصخريّة باديةً في نظراتهم المُشَرَّدة، واصطفَّ المتهمون أمام المنصّة وتهيّأوا للانبطاح فوق الأرض ولكن "عائشةً" منعتهم من ذلك، وقالت بصوْتها الشجي الرقيق:

- لا .. قِفوا حيث أنتم .. رُبَّما يحين سريعاً ذلك الوقت الذي تملّون فيه الرقاد.

وضحكت ضحكةً رقيقةً مُصطَنَعة، أمّا المجرمون فقد بدت على وجوههم علامات اليأس والجزع، واستعرضت "عائشةٌ" وجوه المتهمين ثم سألتني برزانةٍ وهدوء:

- هل تعرف هؤلاء الرجال يا ضيفي؟

فقُلتُ وهم ينظرون إليَّ شزراً:

شاهد أيضًا

- نعم أيتها الملكة.

فقالت بحزم:

- إذن .. قُص علينا ما حدث.

فأذعنت كارهاً إذ بدأتْ تأخذني الشفقة على هؤلاء البؤساء، فلما فرغت من سرد قصتي قالت هي بصوتٍ هادئٍ جهوريٍ يختلف عن صوْتها العادي:

- ها أنتم قد سمعتم .. فماذا تقولون أيّها الثائرون الهمج؟ .. ألا تستحقّون الانتقام؟

فبرز من بين المتهمين رجلٌ مُتوسِّط القامة وحاول أن يُبَرِّر فِعلتهم، ثم ناشدها الرحمة، ولكنها هزَّت رأسها نفياً، ونطقت بالحُكم الرهيب فقالت :

- ستؤخذون إلى كهف العذاب وتُسَلَّمون إلى المُعذِّبين .. وعند غروب شمس الغد يُقتَل الذين يبقون منكم على قيْد الحياة كما كنتم تريدون قتل خادم ضيوفي.

وكَفَّت "عائشةٌ" عن الكلام فسرت في المكان تمتمةٌ خافتة، وأمّا المذنبون فخارت قواهم وانبطحوا على وجوههم وراحوا يستعطفون "هي" وهم ينتحبون، وكان جوابها عليهم أن أشارت إلى قائد الحرس وقالت له:

- نَفِّذْ إرادتي.

*** * ***

(20)

كهوف المَوْتى

وإذ أُجلي المُجرِمون عن الكهف أشارت "عائشةُ" بيدها فتحوَّل المُتفرِّجون وأخذوا يزحفون على بطونهم إلى الخارج كقطيعٍ من الغنم، ولم يبقَ حاضراً في الكهف غيري وغير الملكة وبعض البُكم وعددٌ قليلٌ من رجال الحَرَس.

خطر لي أن هذه أنسب فرصة، فطلبتُ من "عائشة" أن تأتي لزيارة "ليو"، وحدَّثتها بما وصلتْ إليه حاله من الخطورة، ولكنها أبت أن تأتي، وقالت أنه لن يموت قبل الغروب لأن الذين يصابون بهذه الحُمّى لا يموتون إلّا ليْلاً أو عند الفجر، وأضافت بأنه خيْر له أن يصل المرض إلى أشد درجات الخطورة قبل أن تُبرِئه، وعندئذٍ هممتُ بالانصراف ولكنها استبقتني قائلةً أنها تُريد أن تُريَني عجائب الكهوف، فأذعنتُ مُتأثِّراً بما أصبح لها عليَّ من سُلطانٍ قاهرٍ لا يُقاوَم.

نهضت "عائشةُ" من مقعدها، وأشارت إلى الفتيات البكماوات، فتناولت أربعٌ منهن المصابيح، وسارت اثنتان أمامنا، والأُخريان خلفنا، بينا انصرف الحُرَّاس وبقية الفتيات، وقالت "عائشة":

- انظر إلى هذا الكهف العظيم .. لقد نحته الشعب الذي كان يسكن مدينة السهل من قبل مع كهوفٍ أُخرى .. ولعَمري إنه لشعبٌ عظيم .. ولكنه كان - كالشعب المصري - يهتم بالأموات أكثر من اهتمامه بالأحياء .. انظر .. هذا آخر كهفٍ من الكهوف التي نحتوها.

وتحوَّلت "هي" إلى صخرةٍ بجانبها، وأشارت إلى البكماوات ليرفعن المصابيح فرأيْتُ تمثال شيخٍ جالسٍ على مقعدٍ وفى يده عصا من العاج، وقد نُقِشَتْ على المقعد بعض جُملٍ بخطٍ يُشبه الخط الصيني، وجعلت "عائشةٌ" تفك رموز الكتابة، وكان مضمونها أن هذا الكهف تم نحته في عهد الملك "تسنو" ملك "خور" عام 4259 بعد تأسيس مدينة "خور" الملكيّة، وقد اشتغل الشعب وعبيدهم في نحته مُدَّة ثلاثة أجيالٍ ليكون مقبرةً لمَن سيأتون بعدهم من كبار القوم وعظمائهم.

وقالت "عائشة":

- ها قد رأيْت يا "هولي" أن هذا الشعب قد أسَّس المدينة التي لا تزال أطلالها باقيةً في السهل منذ أربعة آلاف سنةٍ قبل أن ينحتوا هذا الكهف الذي لايزال مُحتَفِظاً برَوْنقه كما كان يوْم رأيْتُه منذ ألفيْ عام .. والآن هَلُمَّ بنا لأُريك كيف سقط هذا الشعب العظيم.

وتقدَّمتني إلى وسط الكهف، ثم وقفت عند نقطةٍ حيث سَدَّتْ صخرةٌ مستديرةٌ ثغرةً تسع حجم رجل، ثم استطردت:

- انظر .. سأُترجِم لك الكتابة المنقوشة على الجدار بجانب الصخرة.

وكان مُجمَل الكتابة يُفيد أن حضارة "خور" قد سقطت، بعد أن فَنَى جميع أهلها على أثر وباءٍ فتّاكٍ حَلَّ بالمدينة، حتى أنه استحال دفن أبنائها حسب التقاليد القديمة بسبب كثرة الموْتى فكُدِّسَتْ جُثثهم في الحُفرة العظيمة تحت الكهف الذي كُنّا واقفين فيه، وأمّا تاريخ تحرير هذه النقوش فكان عام 4803 على تأسيس مدينة "خور".

تنهَّدتُ دهشةً واستغراباً، فابتسمت "عائشة" وقالت:

- ماذا؟ .. يُخَيَّل إليَّ أنك آسفٌ من أجل هذا الشعب العريق الذي عرف المدنيّة وبلغ شأواً بعيداً في العِلمِ والفن لم يبلغه المصريّون الذين جاءوا بعده .. هَلُمَّ معي يا "هولي" لأُريك تلك الحفرة العظيمة التي نحتوها تحت الكهف .. وهي الحُفرة التي ورد ذِكرها في النقوش التي قرأتها لك الآن.

وتقدَّمتني إلى ممرٍّ جانبيٍ يتفرَّع من الكهف الأكبر، ثم هبطت دَرجاً كبيراً، وسِرنا في سردابٍ تحت الأرض لا يقل عن سِتّين قدماً عن سطح الصخرة، ولم ألبث أن وجدتُ الممر قد انتهى حيث وقفتْ "عائشة" التي أمرت الفتيات أن يرفعن المصابيح، وعندئذٍ وقع بصري على منظرٍ لم ولن يُحتَمَل أن أرى له مثيلاً.

ألفيْت نفسي واقفاً على شفا هوّةٍ واسعةٍ تمتد إلى مسافةٍ بعيدة، وكانت مُغطّاةً بعظام الموْتى المُكدَّسة بعضها فوْق بعض، وكان المنظر يبعث الرهبة في القلوب، فلم أتمالك أن أفلتت شفتاي صرخة ذُعرٍ داويةٍ تردَّد صداها في جوانب هذه المقبرة الموحِشة.

صِحتُ بجزع:

- دعينا ننصرف من هذا المكان المُفزِع .. لا ريْب أن هذه جُثث الذين راحوا ضحيّة الوباء .. أليس كذلك؟

فأجابت "عائشة" ونحن نتأهَّب لمغادرة المكان:

- نعم .. إن أبناء "خور" يُحنِّطون موْتاهم كما كان يفعل المصريّون .. ولكنهم كانوا يبزّونهم (يغلبونهم ويفوقونهم) عِلماً .. فالمصريّون نحوا (اتَّجهوا واقتفوا) نحو استخراج المُخ عند التحنيط .. بينا اتبع أهل

"خور" حَقْن الأوْردة بسائلٍ يصل إلى جميع أجزاء الجسم .. ولكن مهلاً فسترى بعيْنيْك.

ووقفتْ أمام بابٍ صغيرٍ في الممر، ثم أشارت إلى الفتيات، ومن ثَمَّ نفذنا إلى غرفةٍ صغيرةٍ كتلك التي نِمتُ فيها ليْلة وصولنا إلى "أُمّة حجر"، مع فارقٍ واحدٍ هو أن تلك الغُرفة كانت تضم بين جُدرانها منصَّتيْن صخريّتيْن بدلاً من واحدة .. وكانت فوق النضد جُثَثٌ مُدرَجةٌ في قماشٍ من الكِتّان، وعليها طبقةٌ خفيفةٌ من الرماد.

قالت "عائشة":

- انزع الأكفان يا "هولي".

فخطوْتُ إلى الأمام لأُنفِّذ الأمر، ولكن سرعان ما نكستُ على عقبيَّ لهوْل المشهد، فضحكت "هي" هازئةً مني، وتقدَّمت من إحدى الجُثث وشرعت تفك الأربطة والكَفَن الذي يشملها - أي الجُثّة - إلى أن ظهر في النهاية وجهٌ جميلٌ مكث محجوباً عن العالم آلافاً من السنين، وكان الوجه وجه امرأةً في ريْعان شبابها لاتزال محتفظةً بطابع الجمال، وملامحها وتقاطيع وجهها لا تزال أيضاً واضحة، مع حاجبيْن دقيقيْن وأهدابٍ طويلة، بينا كان يشمل جسمها البديع التكوين ثوبٌ أبيض يتموَّج فوْقه شعرها الأسود الطويل، وعلى صدر المرأة استقر طفلها الصغير.

كان المنظر رائعاً ومُؤثِّراً معاً، فلم أستطع أن أمسك عبراتي، فأسرعت "هي" بسحب الأكفان فوْق الجثة، ثم تحوَّلت إلى الناحية الأخرى، وكشفت عن الجُثّة المقابلة فرأيْت وجه رجلٍ طاعنٍ في السن ذي لحيةٍ طويلة، يرندى ثوْباً أبيض، ولا ريْب في أنه كان زوْج السيِّدة جاء أليها أخيراً لينام نوْمته الأبديّة إلى جوارها.

تملَّكتني الرهبة وأحسست بالانقباض، ولكن "هي" لم تشأ أن تدعني أنصرف دون أن أرى بقية المقابر، على أن المجال لا يسمح لي بذِكر كل ما وقع عليـه بصري، ويكفى أن أقرر أن الموْتى جميعاً لم تُصِب جُثثهم بالتلف، كأنما هم دُفِنوا بالأمس.

قالت "عائشةُ" بصوْتٍ جهوري ونحن نزور أحد المقابر:

- انظر ماذا يصيب الإنسان يا "هولي" .. إن مصيرنا جميعاً إلى القبر .. حتى أنا التي عَمَّرتُ هذه الأعوام الطويلة لن أسلم من هذا المصير ولو عِشت عشرات الألوف من السنين .. فما هي إذن الفائدة التي جنيْتُها من حياتي الطويلة - بعد أن استطعت أن أدرأ الموْت عن نفسي بما وقفت عليه أسرار الطبيعة - ما دمتُ سأُدرَج في أكفاني في النهاية؟ .. ما هي عشرة آلاف سنة .. أو عشرة أضعاف هذه المُدَّة في تاريخ الزمن؟ .. لاشيء! .. إنها كسحابةٍ تحجب ضوْء الشمس هُنيْهةً ثم تقشع .. انظر ماذا يصيب الإنسان يا "هولي" .. لا مفر من أن يُصيبَنا ما أصابهم ويلحقنا النوْم الأبدي .. ولكن لا ريْب أيضاً في أننا سنستيْقِظ ونعيش مرّةً أخرى .. ولكن تُرى هل تكون نهايتنا الموْت أو الحياة؟ .. ليس الموْت إلّا ليْل الحيـاة .. ومن الليْل يتولَّد النهار .. ثم يلحق الليْل النهار .. فماذا - يا ترى - سيكون مصيرنا يا "هولي" عندما ينتهي الليل والنهار والحياة والموت وتتلاشى جميعاً كما جاءت؟ .. مَن يدري؟ .. لا أحد .. حتى ولا أنا.

وغيَّرتْ لهجتها واستطردت:

- والآن هَلُمَّ بنا يا صديقي .. إذ يُخيَّل إليَّ أنك سئمت النظر إلى هذه المناظر المُفزِعة.

تقدمتنا الفتيات البكماوات وهن يحملن المصابيح، ولم تمضِ بضع دقائق حتى بلغنا دَرجاً صعدناه إلى غرفة "عائشة"، وقد أردت الانصراف ولكنها أبت ذلك وقالت:

- لا .. ابقَ معي يا "هولي" لأن حديثك يشوِّقني .. دعنا نتناول شيئاً من الفاكهة ونتجاذب أطراف الحديث وسأكشف لك عن وجهي يا "هولي" .. وربما زاد ذلك في حِدَّة غرامك بي .. ولكن الذنب كان ذنبك من البداية.

ثم نهضتْ وخلعتْ ثوْبها الأبيض فكشفت عن قوامها الممشوق ووجهها الساحر، وراحت تحدق في وجهي بعيْنيْها النجلاويْن وكأنها استخفها الطرب فضحكت ضحكةً عذبةً رقيقة، وتلاشي من وجهها ذلك الجمود وتلك القسوة التي ارتسمت عليه في قاعة المحاكمة، وغدتْ تمثالاً حيّاً يُعَبِّر عن الملاحة النسائيّة أبلغ التعبير.

قالت "عائشة" بلهجةٍ رقيقة:

- اجلس هُنا يا "هولي" حتى تستطيع شهودي .. اجلِس وحدِّثني وأسمِعني إطراءك لجمالي .. إنني امرأةٌ كسائر النساء أُحب المدح والإطراء .. تأمَّلني جيّداً ثم قُل لي بعدئذ: هل رأيْت مَن هي أجمل مني؟

جثوْتُ أمامها وأنا لا أكاد أتمالك حواسي، ورُحت أُحدِّثها بخليطٍ من اللُغات، قُلت:

- إنني أُحبّكِ يا "عائشة".

فحدجتني بنظرةٍ تنطوي على الدهشة، ثم انفجرت ضاحكةً وضربت كفاً بكفٍ في طربٍ وقالت:

- عجباً لك يا "هولي" .. لم يدُر بخلدي أنك ستسقط بمثل هذه السُرعة .. ولطالما تساءلت عن عدد الدقائق التي ينبغي أن تمر قبل أن تركع فوق رُكبتيْك .. إنني لم أرَ رجلاً يجثو أمامي منذ أجيال .. ولعَمري إن المنظـر بديعٌ يستهوي أي امرأة .. وأنا ما زِلتُ أتمتَّع بنعمة الأنوثة .. لكن يا "هولي": ألم أقُل لك أنني لست لك؟ .. إنني أحب رجلاً معيَّناً .. ولستَ أنت هذا الرجل .. إنك ترتكب شططاً يا "هولي" بالسيْر في ذلك الطريق الذي يدل على الحماقة .. آه .. إنك تريد النظر في عيْنيَّ وتبغي تقبيلي .. حسناً على رسلك.

ومالت نحوي وحدقت بعيْنيْها السوداويْن في عيْنيَّ واستطردت:

- نعم .. قَبِّلني إذا شِئت .. فإن القُبُلات لا تُدمي القلوب .. ولكن ثِق أن هذه القُبلة ستُزيد اشتعال نيران الحب في قلبك وينتهي بك الأمر إلى هلاكٍ مُـحَـقَّق.

ثم دنت مني إلى أن لمس شعرها الناعم جبيني ولفحت أنفاسها العِطريّة وجهي، فتملَّكني الضعف والتخاذُل ومددت ذراعي نحوها، ولكنها ارتدَّت عني فجأة وقد تبدَّلت هيئتها، ثم وضعت يدها فوْق رأسي فخُيِّل إليَّ كأن شيئاً ينبعث منه أرسل البرودة إلى جسمى وأعاد إليَّ صوابي، فأدركتُ ما تقتضيه واجبات اللياقة والضيافة، واستطردتْ "عائشةٌ" بلهجةٍ رزينة:

- كفى حماقةً يا "هولي" .. اصغِ إليَّ .. إنك رجلٌ طيّب القلب وأمين .. وأنا لا أريدك أن تتمادى .. فتذكَّر دائماً أننى لست لك .. ولا تحاول أن تسلك مسلكاً طائشاً .. وإلّا أسدلت القناع على وجهي فلا تراه إلى الأبد.

فنهضتُ واقفاً وتهالكت بجانبها فوق الأريكة وأنا أنتفض من شِدَّة الانفعال، وعادت فقالت:

- عليك بشيءٍ من هذه الفاكهة يا "هولي" فهي الغذاء الصالح للإنسان .. والآن حدِّثني عن فلسفة "المسيح" الذي جاء بعدي ويحكم الآن - كما تقول - "روما" و"اليونان" و"مِصر" وشعوب البرابرة .. لا ريْب في أن فلسفته غربية .. لأن الشعوب كانت تتنكَّر لفلسفتنا .. ولا دين لها غير حُب الشهوات وشُرب الخمر والقتال.

كنتُ قد استعدتُ شيئاً من رباطة جأشي في تلك اللحظة، فأخذت أشرح لها التعاليم المسيحيّة ولكنها لم تكترث لها كثيراً .. وإنما أصغت بانتباهٍ شديدٍ حين حدَّثتها عن نظريتنا عن السماء والنار، وإذ ذكرتُ لها أن نبيّاً آخر اسمه "محمد" قد ظهر بين شعبها - العرب - منذ قرون .. وأنه نادى بتعاليم جديدة ودينٍ جديدٍ يعتنقه الآن ملايين من البشر.

قالت:

- آه .. إذن فهناك الآن دينان جديدان .. لقد عرفت أدياناً كثيرة .. ولا ريْب أنه كانت هناك أديانٌ أُخرى عديدة إذ أني احتجبتُ عن العالَم على أثر قدومي إلى "خور".

وتنهَّدتْ ثم استطردتْ عندما ألفتني مُلتزِماً الصمت من تأثير الصدمة التي هدَّت قواي وهدمت أعصابي:

- ما لي أراك صامتاً يا "هولي"؟! .. هل مللت حديثي عن الفلسفة؟ .. لن أُحدِّثك عنها إذن .. ولنطرق باباً آخر للحديث .. ما الذي ينبغي أن نفعله الآن؟ .. آه .. هَلُمَّ بنا لزيارة "الأسد" .. أعني صديقك الشاب الذي وقع فريسةً للحُمّى .. فلا ريْب أن المرض قد بلغ حَدَّه الآن وأن الموْت يتهدَّده ما بين لحظةٍ وأخرى .. انصرف الآن وسألحق بك بعد إعداد العقار .

(21)

"عائشة" و"ليو"

وانصرفت من حضرتها مُنطلِقاً - من فوري - إلى غرفة "ليو"، فألفيْت "جوب" و"أوستين" في أشد حالات الجزع والحُزن، قال "جوب":

- أين كنتَ ياسيّدي؟ .. لقد بحثنا عنك في كل مكان .. فإن مستر "ليو" يعاني سَكَرات الموْت.

فاندفعتُ إلى الفِراش وتطلَّعت إلى "ليو" فأدركت من فوْري أنه في النزع الأخير.

كان غائباً عن وعيه، ويتنفَّس بصعوبة، وشفتاه ترتجفان، وجسمه ينتفض من وقتٍ لآخر، انتابني الغَم وأنحيْت باللائمة على نفسي، وبدأ ضميري يؤنِّبني لأنني تلكَّأت بجوار "عائشة" بينما كان ابني العزيز يحتضر تدريجيّاً، يا للعنة! .. ما أسهل خضوع الإنسان للشر بتأثير نظرات امرأةٍ فاتنة.

تملَّكني يأسٌ شديد، وتلفَّتُ حوْلي فأخذت عيْناي "أوستين" وهي جالسةٌ بجانب الفِراش، وقد تجسَّمت في عيْنيْها نظرة اليأس المُعتِمة، وأمّا "جوب" فكان واقفاً في أحد أركان الكهف وهو ينظر حوْله بحُزنٍ وألم، وسرعان ما خرج إلى الدهليز وأخذ يبكي.

لم يبقَ لنا أملٌ إلّا في "عائشة"، فحزمت أمري على الذهاب إليها في التوْ واستدعائها على عجل، وإذ تهيّأت لمغادرة الغُرفة اندفع "جوب مُسرِعاً من الخارج وكان ينتفض من فرط الخوْف، ثم قال:

- ليرحمنا الله ياسيّدي .. لقد رأيتُ جُثَّةً ملفوفةً في أكفانها تسير في الدهليز، وهي قادمةٌ إلى هُنا.

تولَّتني الدهشة، بيْد أنني سرعان ما تذكَّرت أنه لابد قد رأى "عائشةً" مُلتَّفةً بثوْبها الأبيض فحسبها شبحاً، وبعد هُنيْهةٍ نفذت "عائشةٌ" إلى الغُرفة، وما كاد بصر "جوب" يقع عليها حتى صرخ:

- إنها تلك الجُثّة التي حدَّثتك عنها.

ثم وثب إلى أحد الأركان والتصق بالجدار، أمّا "أوستين" فانبطحت على وجهها، ولا ريْب أنها عرفت شخصيّة "عائشة"، تقدَّمتُ نحوها وقُلت:

- لقد جئتِ في الوقت المناسب .. إن ابني يموت يا "عائشة".

فقالت بلهجةٍ رقيقةٍ خافتة:

- لا تخَف يا "هولي" .. سأُنقِذه .. اللهمَّ إلّا إن كان قد فارق الحياة .. ولكن مَن يكون ذلك الرجل الذي يقف لصق الجدار؟ .. أهو خادمك؟ .. وهل هذه هي الطريقة التي يحيي بها الخدم ضيوفكم في بلادكم؟!

فأجبت:

- لقد ذُعِرَ من وشاحك الأبيض الذي يُشبِه أكفان الموْتى.

فضحكتْ وقالت:

- ومَن تكون هذه الفتاة؟ .. آه فهمت .. لعلَّها الفتاة التي حدَّثتني عنها .. حسناً .. مُرْهُما بمغادرة الغُرفة لنفحص أسدك المريض .. إنني لا أريد أن يقف هذان الوغدان على حِكمتي.

فتحوَّلتُ إليهما وطلبتُ منهما مغادرة الغُرفة، فامتثل "جوب"، وأمّا "أوستين" فرفضت وهمست:

- ماذا تريد "هي"؟ .. من حق الزوْجة أن تبقى بجوار زوْجها وهو يحتضر .. لا .. لن أذهب يا سيّدي "البابون".

فسألت "عائشة" - وهي لا تزال واقفةً عند طرف الكهف الآخر - وكانت منصرفةً إلى التفرُّج على النقوش المحفورة فوق الجدار:

- لماذا لم تُغادِر هذه المرأة الغُرفة يا "هولي"؟

ارتج عليَّ القوْل ولم أدرِ بماذا أجيبها، وأخيراً قلت:

- إنها لا ترغب في ترك "ليو".

فدارت "عائشةٌ" على عقبيْها بسرعةٍ مُدهِشة وأشارت إلى "أوستين" ونطقت بكلمةٍ واحدةٍ فقط، ولكنها كانت كافية، لأن اللهجة التي ألقتها بها كانت أكثر من أمر إذ صاحت:

- اذهبي.

فزحفت "أوستين" على يديْها وركبتيْها وغادرت الغُرفة دون اعتراض، وضحكت "عائشة" ضحكةً قصيرةً وقالت:

- ها قد رأيت يا "هولي" .. إن الأمر يتطلَّب استعمال الشِدَّة مع هذه الأُمّة .. لقد كادت هذه الفتاة أن تعصى أوامري .. وأظنها تجهل ما أصاب العصاة اليوم على يدي .. والآن دعني أرَ ابنك المريض.

وتقدَّمت "هي" - برشاقتها المألوفة - من فراش "ليو"، وكان وجهه في الظل وفي مواجهة الجدار، ثم مالت فوقه لترى وجهه، وقالت:

- إنه شابٌّ معتدل القوام.

ولكني لم ألبث أن رأيتها تترنَّح إلى الخلف كأنما أصابتها طعنةٌ نجلاء، وظلَّت تتمايل كالثمل حتى اصطدمت بالجدار، ثم أطلقت صرخةً ثاقبةً مروِّعة، فصحت:

- ماذا دهاكِ يا "عائشة"؟! .. هل مات "ليو"؟

فتحوَّلتْ ووثبتْ نحوي كاللبؤة، وصاحت بصوتٍ مفزعٍ أجش يحاكي فحيح الأفعى:

- أيها الكلب .. لماذا أخفيْت ذلك عني؟!

ثم بسطتْ ذراعيْها حتى خُيِّل إليَّ أنها تريد أن تصفعني، فصرخت وتولّاني ذُعرٌ عظيم، وقلت:

- ماذا؟! .. ماذا حدث؟

فخفَّ روْعها قليلاً، وأجابت:

- آه .. ربما كنت تجهل ذلك .. اعلم يا "هولي" أن هذا هو "كاليكراتس" حبيبي .. "كاليكراتس" الذي فقدته .. وعاد إليَّ الآن كما كنت واثقة.

وأخذتْ تنتحب تارةً وتضحك أُخرى، وهي تُتمتِم:

- "كاليكر اتس" .. "كاليكراتس".

قلتُ لنفسي:

- ماهذا اللغو؟!

بيْد أنني لم أستطِع أن أُعبِّر لها عن شعوري، إذ كانت أفكاري كلها مُتَّجهةً إلى "ليو" والخطر العظيم الذي يتهدَّده، وخشيتُ أن يفارق الحياة و"عائشةٌ" مصابةٌ بهذه النوْبة العصبيّة، فتقدَّمت منها وقُلت:

- إذن أسرعي إلى إنقاذ حبيبك قبل أن تمتد إليه يد الموْت وتحرمكِ منه إلى الأبد.

فانتفضتْ وهتفتْ:

- صدقتَ يا "هولي" .. آه .. إن جسمي ينتفض ويدي تهتز .. خُذ هذه القارورة.

وأخرجت قِنّينةً صغيرةً من الخزف من بين طيّات ثيابها وقدَّمتها إليَّ وهى تقول:

- اسكب ما فيها في فمه .. أسرع يا "هولي" .. أسرع فإنه في النزع الأخير.

تحوَّلتُ إلى "ليو" فرأيته يناضل الموت وينافحه (يكافحه ويدفعه بعيداً)، وكان وجهه شديد الشحوب وأنفاسه تتحشرج في حَلْقه.

وكانت القارورة مسدودةً بقطعةٍ من الخشب، فجذبتها بأسناني، واتُفِقَ أن انسكبت قطرةٌ من هذا السائل في فمي، فشعرت بدوارٍ شديد، واسوَدَّت الدُنيا أمام عيْني، ولكن هذا التأثير لم يستمر لحسن الحظ، فأسرعت لأسكب ما في القارورة في فم "ليو"، وكان رأسه يتحوَّل ببطءٍ من ناحيةٍ لأُخرى وفمه مفتوحا قليلاً، فطلبت إلى "عائشة" أن تُمسِك برأسه، وحاولتْ أن تفعل برغم أنها كانت تنتفض من قِمَّة رأسها إلى أخمص قدميْها.

سكبتُ السائل في فم "ليو"، فلم ألبث أن رأيت بُخاراً خفيفاً يتصاعد من فمه، ثم تلاشت في الحال حشرجة الموْت، فخشيتُ أن يكون قد فارق الحياة، وزادني خوْفاً ما رأيته من اكفهرار وجهه وسكون دقّات قلبه.

تحوَّلتُ إلى "عائشة"، ونظرتُ إليها مُرتاباً، وكان الوشاح قد انزلق عن رأسها وهي تترنَّح، بيْد أنها تركته يسقط، وظلَّت مُمسِكةً برأس "ليو" وهي تراقب وجهه وعلامات القلق المقرونة بالألم المُمِض (الموجِع المُبرِّح) قد تجلَّت في صفحة وجهها الفاتن.

ومضت خمس دقائق، ويبدو أنها كانت قد فقدت الأمل في نجاته، إذ انقلبت سحنتها فجأة، وبدا كأن وجهها الجميل قد نُحِلَ تحت تأثير آلامٍ ذهنيّةٍ دلَّت عليها هالتان سوْداوان حوْل عيْنيْها، وسألتُها بلهفة:

- هل فُقِدَ الأمل في نجاته يا "عائشة"؟

فلم تُجِب، وإنما غطَّت وجهها بيديْها في حركةٍ تدل على القنوط، بيْد أنني سمعت إذ ذاك تنهيدةً عميقة، فحوَّلت عيْني عن "عائشة" فرأيْتُ وجه "ليو" الشاحب قد احمرَّ قليلاً، وكلّما مرّت الثواني زاد الاحمرار شيئاً فشيئاً إلى أن تحرَّك الشاب أخيراً، فهمستُ في أُذُن "هى":

- انظري.

فقالت بصوتٍ أجش:

- لقد نجا من موتٍ مُحقَّق .. ولو كُنّا قد تأخَّرنا لحظةً واحدةً لذهبت جهودنا في إنقاذه هباء.

ثم انفجرت باكيةً بحُرقةٍ حتى خُيِّل إليَّ أن قلبها سيتمزَّق، بيْد أنها أمسكت عن البكاء فجأةً وقالت:

- أرجو المعذرة يا "هولي" .. اصفِح عني لضعفي .. فما أنا إلّا امرأة .. وقد كِدتُ أفقد صوابي حين رأيت ذلك الأمل الضعيف الذي ظللت أتعلَّل به أمداً طويلاً يكاد يخبو في طرفة عيْن.

وأشرق وجهها، واستطردت:

- انظر يا "هولي" .. ها قد عثرتُ على حبيبي ومُنقذي الذي مكثت أجيالاً طويلةً أترقَّب قدومه .. إنه جاء في الوقت المُقدَّر ليبحث عني كما كنت واثقة أنه سيفعل لأن حكمتي لا تُخطيء أبداً .. تصوَّر يا "هولي" كيف يكون حالي لو نفذ سهم القضاء فيه .. لكن لا .. أنَّى لك أن تتصوَّر ذلك

وأنت لم تكتوِ بلهيب النار التي ظلَّت مُستَعِرةً في قلبي ألفيْ عام .. ولا ريْب في أنه لو مات لبقيتُ كذلك أُقاسي هذا العذاب ولانتظرتُ الأجيال الطويلة إلى أن يولد من جديد .. لكن ما أعظم سعادتي .. ستغادره الحُمّى بعد نوم اثنتيْ عشرة ساعة .. ثم ....

وأمسكت عن كلامها، ثم وضعت يدها فوق شعر "ليو" وانحنت فوقه، وطبعت قُبلةً حارَّةً على جبينه، وكان المنظر رائعاً ولكنه حَزَّ في قلبي حزاً، فقد بدأت عقارب الغيرة تنهش في صدري.

* * *

(22)

اذهبي يا امرأة

ساد السكون بيننا هُنيْهة، وكانت دلائل السعادة ترتسم على وجه "عائشة"، بيْد أنها لم تلبث أن رفعت رأسها فجأة، وتلاشت من وجهها تلك الدلائل، وحلَّت محلَّها علامات القسوة والجمود، ثم قالت:

- لقد كِدتُ أنسى تلك المرأة "أوستين" .. فما علاقتها بـ"كاليكراتس"؟ .. أهي خادمةٌ أم ....؟

وكفَّتْ عن الكلام وقد اضطربت نبرات صوْتها، فهززت كتفيَّ وقلت:

- إن ما أعلمه هو أنها تزوَّجت به جرياً على عادات "أُمّة حجر".

تقلَّصت سحنتها وبدا عليها الغضب، ثم قالت:

- إذن فقد قُضيَ الأمر .. يجب أن تموت .. وأن تموت في التوْ.

فذُعِرتُ وسألتُها:

- بأيّة جريرة؟! .. إنها لم تقترف جُرماً لم تقترفيه أنتِ يا "عائشة" .. إنها تُحب الرجل .. وقد سرَّه أن يفتح لها مغاليق قلبه .. فما هي زِلّتها؟

فهتفت بحِدَّة:

- ما أحمقك يا "هولي" .. تقول ما هي زِلَّتها؟! .. يكفي أنها تقف حائلاً بيني وبين مَن أُحب .. إنني واثقةٌ من أن في وسعي أن آخذه منها .. هل تحسب أن رجلاً في الدنيا يمكنه مقاومتي إذا أطلقت قوَّتي من عِقالها؟! .. لقد قُلت أن هذه المرأة ستموت .. فإني أخشى إذا تركتها على قيْد

الحياة أن تستميل قلبه .. وذلك ما لا أحتمله قط .. ستموت هذه المرأة .. هذا لا شك فيه.

وقد نطقتْ بالعبارة الأخيرة في لهجةٍ تَشِف عن العزم، فصِحتُ قائلاً:

- كلّا .. كلّا .. هذا جُرمٌ أي جُرمٍ يا "عائشة" .. إن الإنسان لا يجني من الشر غير الشر .. فخيْرٌ لك أن تُمسِكي عن فعله.

فتطاير شرر الغضب من عيْنيْها، وهتفت:

- أمن الشر أيها الأحمق أن يُزيلَ الإنسان العقبات التي تعترض سبيله إلى تحقيق أمانيه؟! .. إذن فإن حياتنا سلسلةٌ مُتَّصِلةٌ من الجرائم .. لأننا نُحطِّم أشياءً كثيرةً في كل يوْمٍ كي نعيش .. والحياة للأقوى دائماً .. أمّا الضعيف فمصيره إلى الانحلال والهلاك .. إنك تقول أن الشر يُولِّد الجريمة .. وهُنا تتجلَّى حاجتك إلى الخبرة والمعرفة .. فطالما تولَّد الخيْر من الشر والعكس بالعكس .. وقد يكون غضب الطاغية نعمةً على عددٍ كبيرٍ من الناس ممَّن يأتون بعده .. كما يُحتَمَل أن تجر طيبة قلب رجلٍ الاستعباد على قوْمه .. والإنسان مُسيَّر في هذه الحياة وليس بمُخَيَّر .. فيد القدر هي التي تدفعه إلى إتيان هذا أو ذاك .. وللظروف حُكمها في تكييف تلك الأعمال .. إن الأضداد جميعاً كالخيْر والشر والحب والكراهية .. فقد تقترن في كثيرٍ من الأحيان .. وقد لا ينفع أحدهما بدون الآخر يا "هولي" .. فلا يجب إذن أن نقول أن هذا أحسن وذاك ردىء أو أن الظُلمة مكروهةٌ والنور مُبهِجٌ للنفس مادامت هناك أعين ترى الخيْر شرّاً والظُلمة أبهج من النور .. فهل اقتنعت يا "هولي"؟

أدركت أنه من العبث مناقشة هذه المرأة التي لو طُبِّقَت آراؤها لقضت على جميع المبادىء المُتَّبعة المعروفة، بيْد أن حديثها أرسل الذُعر إلى

قلبي، ولكنه لم يُثنني عن رغبتي في إنقاذ "أوستين" من الكارثة التي تُهدِّدها على يد منافستها الطاغية، فقُلتُ مُتَوَسِّلاً:

- أليس في قلبكِ شيءٌ من الرحمة نحو هذه المخلوقة التي ستستوْلين على مكانها؟! .. فكِّري قليلاً يا "عائشة" .. إنكِ - كما تقولين - قد حظيتِ بالذي قضيْتِ أجيالاً طويلةً في انتظاره .. فهل تُريدين أن تحتفلي بعوْدته إليكِ بقتل فتاةٍ تُحبّه ومن المحتمل أنه هو أيضاً يُحبّها؟! .. فتاةٌ قد أنقذت حياته لكِ عندما كانت رماح عبيدكِ تُصوَّب إلى قلبه؟! .. لقد قُلتِ أنكِ اقترفتِ خطأً عظيماً في حق هذا الرجل في الأيّام الأولى للقائكما .. لإنكِ قتلتِ بيدكِ بسبب "أمنارتس" المصريّة التي كان يُحبّها.

فقبضتْ على ذراعي بعُنفٍ وصاحت:

- من أين لك عِلم ذلك أيها الغريب؟ .. كيف عرفت هذا الاسم؟ .. فأنا لم أذكره لك.

فأجبت:

- ربما حلمت به .. فإن الأحلام الغريبة تحوم حوْل كهوف "خور" .. يُخيَّل إليَّ أن الحُلم كان حقيقيّاً .. ماذا جنيْتِ جزاء جريمتكِ التي تنطوي على الجنون؟ .. انتظار ألفيْ عام؛ أليس كذلك؟ .. فهل تُريدين الآن أن تُعيدي الكَرَّة؟ .. إنك لن تجني غير الشر .. لأن الخيْر في بَذْر الخير ولا يجني الشر غير الشر .. والويْل لمَن يقترف الآثام .. فإذا قتلتِ هذه الفتاة البريئة فستحِل عليكِ اللعنة .. ولن تجني من حُبّك إلّا عذاب الذِكري وتأنيب الضمير .. ثم كيف يدور بخلدك أن هذا الرجل سيقبلكِ ويدكِ مُلطَّخةٌ بدماء المرأة التي أحبّته وتفانت في خدمته؟

- لقد أجبتك على ذلك .. فسواءٌ قتلتك أو قتلتها فلا بُد له أن يُحبَّني يا "هولي" .. ولن يحول شيءٌ دون تحقيق هذه الأُمنية .. ومع ذلك قد يكون فيما قُلتَ شيءٌ من الصِحّة .. ولذا فسأعفو عن الفتاة .. أنا لستُ قاسيةً لمجرَّد حُبّي للقسوة .. كما أنني لا أريد أن أُسبِّب لأحدٍ شيئاً من الآلام .. نادِها قبل أن أعدل عن رأيي.

وغطَّت "عائشةٌ" وجهها بيديْها، فأسرعتُ إلى الدهليز وأنا جذلٌ بنجاحي وناديْتُ "أوستين"، فخفَّتْ إليَّ وسألتني بلهفةٍ شديدة:

- هل مات سيّدي؟ .. آه .. قُل أنه لم يمُت.

وأطلقت صرخةً داوية، ثم رفعت إليَّ وجهها الجميل وقد ابتلَّ بالدموع، فشعرتُ بالعطف عليها والرثاء لها، وقُلت:

- كلّا .. إنه لم يمُت .. فقد أنقذت "هي" حياته .. تعالي.

فتنهَّدت من أعماق صدرها ودخلت إلى الغُرفة، ثم انبطحتْ على وجهها، وجعلت تزحف كعادة "أُمّة حجر" إذا ما كانوا في حضرة ملكتهم ذات السطوة والجبروت.

قالت "عائشةٌ" ببرود:

- قِفي .. تعالي هُنا.

فامتثلتْ "أوستين" للأمر، ووقفت أمام "هي" مُطرَقة الرأس، وساد السكون هُنيْهة، وأخيراً قالت "عائشة" وهي تُشير إلى "ليو":

- مَن هذا الرجل؟

فأجابت "أوستين" بصوْتٍ خافت:

- هو زوْجي.

- ومَن أعطاكِ إيّاه زوْجاً؟

- لقد تزوَّجتُ به طبقاً لعادات بلادي أيتها الملكة.

- إنكِ ارتكبتِ شططاً أيتها المرأة بزواجكِ من هذا الرجل وهو غريبٌ عنكِ .. إنه ليس من جنسكِ فليس لكِ أن تُطبِّقي عادات بلادكِ عليه .. اصغي إليَّ: قد يكون إقدامكِ على هذا العمل جهلاً منكِ .. و لذا عفوْت عنكِ أيتها الفتاة .. اصغي إليَّ مرّةً أُخرى: عودي من فوْركِ إلى قبيلتكِ ولا تُحاولي أن تُخاطبي هذا الرجل أو تتَّصلي به لأنه ليس لكِ .. وإيّاكِ والخروج على أوامري وإلّا قتلتكِ في التوْ .. هيّا .. اذهبي.

ولكن "أوستين" لم تتحرَّك، فصاحت "عائشة":

- اذهبي أيتها الفتاة.

فرفعتْ "أوستين" وجهها وقد لاحت عليه علامات القلق والاضطراب، ثم قالت بصوْتٍ مُختنِق:

- كلّا أيتها الملكة .. لن أذهب .. فهذا الرجل زوْجي وأنا أُحبّه .. أُحبّه ولن أتركه .. بأي حقٍّ تأمرينني أن أترك زوْجي؟

فانتفضت "عائشة" واضطربت أنا وقُلتُ لها باللاتينيّة:

- رُحماكِ يا "عائشة".

فقالت لي:

- وإنني لكذلك .. وإلّا لكانت الآن جُثّةً هامدة.

وعادتْ تُخاطِب "أوستين" فقالت:

- أيتها الفتاة: إنني آمركِ بالانصراف في الحال قبل أن أصعقكِ حيْث أنتِ.

فبكت "أوستين" وأخذت تصيح:

- كلّا .. لن أذهب .. إنه زوْجي .. زوْجي .. لقد تزوَّجته وأنقذتُ حياته .. اقضي عليَّ إذا شِئتِ وإذا كنتِ تملكين القوَّة التي تُمكِّنكِ من ذلك .. وأمّا أنا فلن أتخلَّى لكِ عن زوْجي .. كلا .. كلا.

فأتتْ "عائشةٌ" بحركةٍ سريعةٍ لم أستطِع تتَّبُعها، ولكن خُيِّل إليَّ أنها ضربت الفتاة المسكينة بيدها ضربةً خفيفةً على رأسها، وإذ نظرتُ إلى "أوستين" تراجعت إلى الخلف وقد استوْلى عليَّ ذُعرٌ قاتل، ذلك أنني رأيْت فوق شعرها أثراً ظاهراً لثلاث أصابع بيْضاء كالثلج، بينا رفعت الفتاة يديْها إلى رأسها كأنما أصابها دوار، ذُهِلتُ عندما رأيْتُ أثر تلك القوَّة غير البشريّة وصِحت:

- يا للسماء!!

وأمّا "عائشة" فقد ضحكت ضحكةً قصيرة، ثم تحوَّلت إلى الفتاة التَعِسَة وقالت:

- أتظنين أيتها الحمقاء أنني لا أملك قوّة الفتك؟ .. انظري إلى هذه المرآة.

وأشارت إلى مرآة "ليو"، وكان "جوب" قد وضعها فوق أمتعته، واستطردت:

- "هولي": اعطِ المرآة لهذه الحمقاء لترى ما أصاب رأسها .. ولتعلم ما إذا كانت لديَّ القوَّة على الفتك أم لا.

فتناولتُ المرآة ووضعتها أمام عيْني "أوستين"، فنظرت ثم وضعت يدها فوْق شعرها ثم نظرت مرّةً أُخرى، وحينئذٍ هوت فوق الأرض وهي تنتحب.

قالت "عائشة" في سخريةٍ لاذعة:

- والآن؛ هل ستذهبين أم ينبغي أن أُعيد الكَرَّة؟ .. انظري: لقد تركتُ بصمة ختمي فوْق رأسكِ حتى أتمكَّن من معرفتك إلى أن يصير شعرك كله أشيب مثلها .. فاغرُبي عن وجهي .. وحذارِ أن تدعيني أرى وجهك مرّةً أخرى وإلّا جعلت عظامكِ أشد بياضاً من علامتي التي تركتها فوْق شعركِ.

فنهضت الفتاة التَعِسة وهي تترنَّح، وغادرت الغُرفة وهي تبكي بُكاءً مُرّاً.

هُنا؛ تحوَّلت "عائشةٌ" إليَّ وقالت:

- لا تنذعر يا "هولي" .. إنني لا أستخدم السحر بل قوَّةً لا تُدرِك معناها .. ولقد وضعت هذه العلامة على رأس الفتاة لأُلقي الذُعر في قلبها.

ثم استطردت في لهجةٍ رقيقة:

- سآمر الخدم أن يحملوا سيّدي "كاليكراتس" إلى غُرفةٍ مجاورةٍ لغُرفتي لأسهر عليه وأتأهَّب لتحيّته واستقباله إذا ما أفاق من غيْبوبته .. يجب أن تُرافقني إلى هناك يا "هولي" .. وكذلك خادمك .. لكن حذارِ أن تُخبر "كاليكراتس" بذهاب الفتاة .. ولا بكل ما تعرفه عني .. هأنذا أنذرتك.

وتسلَّلت من الغُرفة لتُصدِر أوامرها، وخلَّفتني لا أكاد أعي شيئاً.

وجاء الخدم بعد هُنيْهةٍ وحملوا "ليو" وأمتعتنا إلى الجناح الآخر من الكهف، وكانت الغُرفة التي أُعدَّت لنا خلف مقصورة "عائشة" مباشرةً.

وقد قضيْتُ تلك الليْلة كأسوأ ما يكون، ذلك أنني رأيْتُ كثيراً من الأحلام المُفزِعة، كان أشدّها وقعاً في نفسي منظر "أوستين" وهي تنظر إلى الطابع الأبيض المشؤوم في المرآة، ثم تسلُّلها من الغُرفة وهي تبكي وتُلقي آخر نظرةٍ على وجه حبيبها.

(23)

حفلة الرقص

استيقظت من نوْمي وأنا أنتفض، فوقع بصري على "عائشة" وهي تتسلَّل من الغُرفة بهدوء، وكانت واقفةً بين فِراشي وفِراش "ليو"، ولكنني استسلمتُ للنوْم مرّةً أُخرى، فإذا كان الصباح نهضتُ من الفِراش وأنا أشعر بالإعياء واضطراب الأعصاب.

وأخيرا حانت الساعة التي حدَّدتها "عائشةٌ" ليقظة "ليو"، فجاءت إلى الغُرفة وهي مُقَنَّعةٌ وقالت:

- سيصحو الآن يا "هولي" وهو حافظٌ لقواه العقليّة فستزايله الحُمّى الآن.

وما أن فاهتْ بهذه الكلمات حتى تقلَّب "ليو" في فِراشه وتمطَّى وتثاءب، ثم فتح عيْنيْه فرأى شبح امرأةٍ ماثلةٍ فوقه، فطوَّقها بذراعيْه وقبَّلها ظنّاً منه أنها "أوستين" إذ لم يلبث أن قال بالعربيّة:

- أهذه أنتِ يا "أوستين"؟ .. لماذا عصبت رأسكِ هكذا؟ .. أتشعرين بألمٍ في أسنانكِ؟

ثم تحوَّل إلى "جوب" وخاطبه بالإنجليزيّة وقال:

- إني جائعٌ جِدّاً .. ماذا حدث .. وماذا أصابنا؟

فأجاب "جوب":

- لا تُكثِر من الكلام يا سيّدي لأنك كنتَ مريضاً مرضاً خَطِراً .. وسبَّبت لنا كثيراً من القلق.

ثم نظر إلى "عائشة" واستطرد:

- لو سمحتْ لي السيّدة .. جلبتُ لك الطعام.

وللمرّة الأولى تنبَّه "ليو" إلى "السيّدة" الواقفة بجانبه، فصعدها بنظره مُدَقِّقاً، ولم يلبث أن قال:

- ماذا حدث؟! .. هذه ليست "أوستين" .. أيْن "أوستين"؟

فقالت "عائشة"؛ وكانت كاذبة:

- لقد ذهبتْ في زيارةٍ خاصّة، وأنا أقوم الآن على خدمتك بالنيابة عنها.

نطقت "عائشة" بهذه الأُكذوبة في لهجةٍ رقيقة، فلاحتْ آثار الاضطراب والارتباك على "ليو"، ولكنه لاذ بالصمت، وتناول طعامه، ثم استسلم للنوْم مرّةً أُخرى حتى المساء.

فلمّا استيْقظ وألفاني بجانبه، أمطرني بوابلٍ من الأسئلة عمّا حدث، فقصصتُ عليه طرفاً من قصة مرضه.

ولمّا كانت "عائشةُ" معنا فقد تحاشيْتُ أن أذكر له شيئاً عنها سوى أنها ملكة البلاد وأنها أكرمتْ مثوانا، ثم أضفتُ بأنها لا تسير إلّا مُقَنَّعة.

وفي اليوْم التالي غادر "ليو" فراشه وقد استرد قواه تقريباً، والتأم الجُرح الذي أصابه في جنبه، وتغلَّبت بِنيته القويّة على الحُمّى بفضل تأثير العقار المُدهِش الذي ناولته إيّاه "عائشة"، وقد لاحظتُ أن ثمَّة تغييراً تامّاً قد طرأ على أطوار "عائشة"، كنتُ أتوقَّع - بعد الذي رأيْته من لهفتها - أن تُبادِر إلى التقرُّب من الرجل الذي تعتقد أنه حبيبها منذ القدم، ولكنها - لغايةٍ في نفسها - لم تفعل، وإنما كانت تقضي حاجاته بسكونٍ وتواضُع، وتخاطبه دائماً بلهجة الاحترام، وتستبقيه بقُربها ما استطاعت.

ومن عجبٍ أن نجحت هذه المرأة في إثارة اهتمام "ليو" بها كما حدث لي من قبل، وكان يتوق بصفةٍ خاصّةٍ إلى التطلُّع إلى وجهها لا سيَّما بعد أن حدَّثتُه بأنه يماثل قوامها وصوْتها ملاحةً وجمالاً.

ولو قد أحاطت هذه المُغريات بأي شابٍّ لوقع في شِرك "عائشة"، ولكن "ليو" كان لا يزال منهوك القوى مُشتَّت الفِكر من ناحية "أوستين"، فكان لا يفتأ يتحدَّث عن رِقَّتها وإخلاصها بعباراتٍ مُؤثِّرة.

وفي صباح اليوْم الثالث أكثر "ليو" من الاستفسار عن "أوستين"، فأحلتُه على "عائشة" قائلاً أنني لا أدري أين ذهبت "أوستين"، وقَرَّ رأي "ليو" على مقابلة "عائشة" بعد الإفطار.

كانت جالسةً حسب عادتها في مقصورتها، وقد نهضتْ لاستقبالنا وبسطتْ كِلتا يديْها لتحيّتنا أو بالحري لتحيّة "ليو" إذ أني كنتُ قد أُهمِلت إهمالاً تامّاً في تلك الأثناء، ولعَمري كان من المناظر الجميلة أن يرقب المرء "عائشةً" وهي تسير بقوامها الممشوق نحو "ليو" الجميل.

قالت "عائشةٌ" بلهجةٍ عذبةٍ رقيقة:

- السلام لك ياسيّدي وضيْفي .. يسرّني أن أراك مُتَمَتِّعاً بكامل قواك .. ولعَمري لو لم أُنقِذك من مخالب الموْت في اللحظة الأخيرة لَما وقفتَ على قدميْك مرّةً أُخرى .. ولكن ها قد زال الخطر وأثمر مجهودي في السهر عليك والاهتمام بك.

فانحنى "ليو" لها وشكرها باللغة العربيّة لَما أبدته نحونا من مجاملةٍ وحُسن ضيافة، ولكنها قاطعته قائلةً:

- لا .. لا تشكرني على شيء .. لقد سرَّني قدومك.

فتحوَّل "ليو" إليَّ وهمس بالانجليزيّة:

- مرحى مرحى .. إن السيّدة كريمةٌ جداً فيما أظن .. أرجو أن تكون قد انتهزت فرصتك .. يا إلهى؛ ما أجمل ذراعيْها!!

فأشرتُ إليه بأن يلزم الصمت فقد لاحظتُ أن "عائشةً" تراقبنا باهتمامٍ وارتياب، وقالت:

- أرجو أن يكون خدمي قد كفلوا لكم وسائل الراحة في هذا المكان المتواضع.

فأسرع "ليو" يقول:

- نعم أيتها الملكة .. وشكراً لكِ .. لكني أريد أن أعرف أين ذهبت الفتاة التي كانت تُرافقني.

- آه .. الفتاة؟ .. نعم رأيتها .. كلّا .. لا أدري .. قالت أنها ذاهبةٌ ولكن لا أعلم إلى أين .. ربما تعود وقد لا تعود أبداً .. من واجب الإنسان أن يهتم بالمريض .. ولكن أولئك النسوة المتوَحِّشات كثيرات التردُّد والملل.

فبدت الريبة على وجه "ليو"، وقال لي :

- هذا غريب.

وتحوَّل إلى "عائشة" وقال:

- إننى لا أفهم ما تعنين ياسيّدتي .. فهناك احترامٌ مُتَبادلٌ بيني وبين الفتاة.

فضحكت "عائشةٌ" وأدارت دَفَّة الحديث إلى ناحيـةٍ أُخرى.

وبعد حواي الساعة دعت "عائشةٌ" "ليو" لزيارة عجائب الكهوف، وأصرَّت على أن نذهب جميعاً وأن يصحبنا "جوب" و"بلال"، ولا أراني بحاجةٍ إلى وصف هذه الزيارة خشية التكرار المُمِل.

وبعد أن فرغنا من جوْلتنا عُدنا إلى غُرفتنا وتناولنا طعام الغداء، ولمّا بلغت الساعة السادسة انطلقنا إلى غُرفة "عائشة" إذ كانت قد أخبرتنا أنها ستُقيم في تلك الليْلة حفلةً راقصةً احتفاءً بنا.

وقد قضيْنا ساعةً في الحديث، ثم جاءت إحدى البكماوات وأشارت بما يُفهَم منه أن "بلالاً" يريد المثول بين يديْ الملكة فأذنت له، وعندئذٍ نفذ "بلالٌ" إلى الغُرفة وهو يزحف على يديْه وقدميْه، وأعلن أن حفلة الرقص قد أُعدت، فخرجنا إلى الخلاء أمام مدخل الكهف الكبير، وهناك وجدنا ثلاثة مقاعدٍ فجلسنا وانتظرنا.

وكان الليْل شديد الحلكة في تلك الليْلة ولمّا يطلع القمر بعد، فعجبت في نفسي وتساءلت: كيف سنرى الراقصين؟

وفجأة؛ رأينا أشباحاً تخرج من كل ناحية ويحمل كلٌ منها ما خلناه أوّلاً شُعلةً كبيرةً من النار يرتفع لهيبها حوالي متر في الفضاء، ولم تكُن تلك الأشباح غير رجالٍ زنوجٍ لم نتبيَّنهم أوّل الأمر من عتمة الليْل، وتدفَّق الرجال - وكان عددهم نحو الخمسين أو يزيد - وهم يحملون مشاعلهم فبدوا أشبه شيءٍ بشياطين انطلقت من الجحيم، وكان "ليو" أوّل مَن اكتشف حقيقة هذه المشاعل؛ إذ لم يلبث أن هتف:

- يا للسماء! .. إنها جثث موْتى تحترق!

فانتفضتُ وأنعمتُ النظر، فتحقَّقتُ من صدق قوْل "ليو"، كانت المشاعل الموقدة التي أُعِدَّتْ لنا عبارةً عن مومياءٍ بشريّةٍ جلبوها من المقابر.

وَثَبَ حَمَلة المومياء المُتَّقِدة إلى أن تجمَّعوا في نقطةٍ تبعد نحو عشرين خُطوةً أمامنا، ونظَّموا الجُثث على هيْئة هرم، وكانت الجُثث تحترق بقوّةٍ ويُسمَع لها صوْتٌ مروِّع.

وتقدَّم شابٌّ ونزع ذراعاً بشريّةً مُتَّقدةً وعدا بها وسط الظلام، ثم لم يلبث أن توقَّف، وأشعل بهذه الذراع المُشتعلة جُثّة امرأةٍ شُدَّتْ إلى عامودٍ نُصِبَ بجانب الصخر فعلقت بها النار ثم اشتعلت، وعندئذٍ انطلق الشاب إلى جُثّةٍ ثانيةٍ وثالثةٍ ورابعةٍ وهكذا، فلم تمضِ دقائق معدوداتٌ حتى ألفيْنا أنفسنا وسط دائرةٍ واسعةٍ من جُثثٍ تحترق بشِدّة.

وكانت المواد التي استُخدِمَتْ في تحنيط هذه الجُثث تطغى بلهيبها المندلع بحيث كانت تُرى على شكل ألسنةٍ من النار وهي خارجةٌ من الفم والأُذنيْن والعيْنيْن، وكانت كلّما احترقت جُثّةٌ بادروا بإحضار غيرها، فكانت الجُثث تُقدَّم بسخاءٍ لا سيّما في التل الذي كُوِّم منها في الوسط.

وقفنا جميعاً ذاهلين منذعرين، ولكن "عائشةً" لم تتأثَّر بشهود هذا المنظر المروِّع، ولاحظت "عائشةٌ" ما تولّاني من فزع، فضحكت وقالت:

- إن في هذا المنظر عِظةً بليغة .. إنه يوحي إلينا ألّا نثق بالمستقبل .. إذ مَن يدري ما الذي يخبِّئه لنا .. عِشْ يومك ولا تحاول الفرار من التُراب لأنه مصير كل حي .. مَن يعلم ماذا يكون شعور هؤلاء النُبلاء والسيّدات - الذين أُسدِل عليهم النسيان ستاره منذ عهدٍ بعيد - لو علموا أنه سيأتي يومٌ تُحرَق فيه جُثثهم الرقيقة وتُحرَق كشمعةٍ لتُضيء في حفلة رقصٍ يقيمها شعبٌ مُتوَحِّشٌ كهذا؟! .. آه .. انظر .. لقد أقبل المُمثِّلون ليعرضوا عليكم ألعابهم المُدهِشة.

رأينا صفَّيْن من الأشباح يتقدَّمان من تل الجُثث المُشتَعل، وأحد الصفَّيْن من الرجال والآخر من النساء، ويبلغ عددهم نحو المائة، وكانوا يرتدون جلد الفهود، فوقفوا ووجوهم إلى النار ثم بدأوا يرقصون، فكانت حركاتهم أشبه بحركات الشياطين التي يتعذَّر وصفها، ففي المنظر الأوَّل

مَثَّلوا أمامنا جريمة شروعٍ في قتل، فرأيْناهم يحاولون وأد شخصٍ وهو يناضل للخروج، وكان المُمثِّلون يقومون بأدوارهم في صمتٍ تام، وينتهي كل دوْرٍ منها بحركة التفافٍ ورقصٍ حوْل القائم بدوْر القتيل وهو مُلقى فوْق الأرض بجانب النار.

بيْد أنه لم يمضِ طويلٌ حتى ساد الهرج والمرج، ثم شاهدنا امرأةً بدينةً قويّة العضل - وكانت من أنشط الراقصات - وقد جُنَّتْ فجأةً وأخذت تترنَّح نحونا وهي تصيح:

- أُريد عنزةً سوْداء .. لابد أن أحصل على عنزةٍ سوْداء.

وسقطت فوق الأرض وهي ترغي وتزبد وتصرخ في طلب العنزة السوْداء، فالتف حوْلها الراقصون وهم يتمتمون، وصاح أحدهم:

- لقد تقمَّصها شَيْطان .. سارعوا بإحضار العنزة السوْداء .. أسكت أيّها الشَيْطان .. فسيُؤتى لك بالعنزة.

وجيء بها أخيراً فصاحت المرأة البدينة:

- هل هي سوْداء؟ .. هل هي سوْداء؟

- نعم .. نعم أيّها الشَيْطان .. سوْداءٌ كالليْل.

فصرخت المرأة؛ أو بالحري صرخ الشَيْطان في طلب العنزة، فاستمهلوه قليلاً ريثما ينحرونها.

وبعد هُنيْهةٍ أقبل رجلٌ وقال أنها قد نُحِرَتْ، ثم تقدَّمت امرأةٌ بوعاءٍ مملوءٍ بالدم وقدَّمته للمرأة التي تقمَّصها الشَيْطان، فتناولته وجرعت الدم، ولم تلبث أن هدأت وعادت إلى صوابها دون أن يبدو عليها أى أثرٍ للنوْبات الهيستيريّة التي رأيناها، ثم بسطت ذراعيْها وابتسمت، ونهضت فأخذت مكانها بيْن الراقصين، وسرعان ما انسحبوا كما جاءوا في صفَّيْن.

خُيِّل إليَّ أن الحفلة قد انتهت، ولكن سرعان مارأيْت رجلاً على شكل قردٍ قد قفز إلى ناحية تل الجُثث المُتَّقِدَة وتلاه آخرٌ على شكل أسدٍ وثالثٌ على شكل تيْسٍ ورابعٌ في جلد ثوْر، وهكذا أخذ الرجال والنساء يظهرون في هيئة الحيوانات المختلفة، حتى إذا اكتمل عددهم أخذوا يرقصون، وكلٌ منهم يُقَلِّد صوْت الحيوان الذي يُمثِّله حتى امتلأ المكان بخليطٍ من العواء والزئير والنعيق.

طال أَمَد ذلك المنظر حتى سئمتُ شهوده فاستأذنتُ "عائشةً" في أن أقوم مع "ليو" بجوْلةٍ حوْل الكهف لفحص المشاعل البشريّة فأَذِنَتْ لنا، فنهضنا وسِرنا إلى اليسار.

وإذ فحصنا جُثَّةً أو اثنتيْن امتعضت نفوسنا من هذه المناظر المروِّعة فقرَّرنا العودة، ولكن اتُفِقَ أن وقع بصرنا فجأةً على أحد الراقصين - وكان يُمثِّل دوْر اللبؤة - وقد انفصل عن زملائه وأخذ يقترب مِنّا وهو ينظر لنا وهو في طريقه إلى مكانٍ مُعتِمٍ بعيدٍ عن المشاعل، تملَّكتنا الدهشة والفضول فتبعنا اللبؤة، ولم نلبث أن سمعنا صوْتاً يدعونا إليه.

كان صوْت "أوستين" .. ولم يتمهَّل "ليو" واندفع نحوها في الظلام، فأسرعتُ خلفهما بدافع الخوْف، فلمّا أصبحنا على مسافة خمسين خُطوةٍ من مسرح الرقص، سمعت "أوستين" تهمس:

- آهٍ ياسيّدي .. لقد وجدتك في النهاية .. اصغِ إليَّ .. إن حياتي في خطر .. ولا ريب أن البابون قد أفضى إليك كيف أقصتني "هي" - التي يجب أن تُطاع - بعيداً عنك .. إنني أحبك يا سيّدي .. وأنت زوْجي طِبقاً لعادات هذه البلاد .. لقد أنقذت حياتك .. فليس من الكرم أن تنبذ حُبّي أيها العزيز.

فهتف "ليو":

- أين كنتِ يا "أوستين" .. لقد بحثتُ عنك طويلاً .. فدعينا نذهب ونُبسِّط الأمر للملكة.

- لا .. لا .. إنها تقتلنا ولا ريْب .. أنت لا تعرف مدى قوّتها .. وأمّا البابون فإنه يعرف ذلك لأنه رآها .. ليس أمامنا غير وسيلةٍ واحدة: هي أن نُسارِع بالفرار من هذا المكان في التَوْ.

فقلت:

- بحق السماء يا "ليو" ....

فقاطعتني:

- لا .. لا.. لا تُصغِ إلى كلامه .. أسرِع .. فإن الموْت في الهواء الذي نستنشقه .. ولعَمري يُخيِّل إليَّ أن "هي" تسمع حديثنا الآن.

وكفَّت الفتاة عن الكلام ولعلَّها أرادت أن تُحمِله على الإذعان لإرادتها، فألقت بنفسها بين ذراعيْه وعندئذٍ سقط قناع رأس اللبؤة عن رأسها فظهرت علامات أصابع "عائشة" الثلاث البيضاء وهي تُومِض كالنجوم، وكنتُ أعرف ضعف "ليو" وسرعة استسلامه فتقدَّمت منهما كي أضع حَدّاً لهذا الموقف الدقيق، بيْد أنني سمعتُ في تلك اللحظة ضحكةً رقيقةً صادرةً من ورائي، فدُرتُ على عقبيَّ فإذا بي أرى "عائشةً" ومعها "بلال" واثنان من الخدم البُكم.

راعني هوْل الموْقف فانتفضت، وكدت أهوى فوق الأرض إذ أيقنت أن مثل هذا الموْقف الرهيب لاريب سينتهي بكارثةٍ مروِّعةٍ قد تصيبني قبل غيري، وأما "أوستين" فغطَّتْ رأسها بيديْها واستسلمت لمصيرها، بينا لم يُدرِك "ليو" الموقف تماماً فاحمرَّ وجهه خجلاً وتوّلاه الارتباك والحيرة.

* * *

(24)

السحر

ساد سكونٌ مُؤلِمٌ بغيضٌ كذلك الذي يسبق العاصفة، وأخيراً قطعته "عائشةُّ" قائلةً لـ"ليو" بصوْتٍ عذب:

- لا تخجل ياسيّدي وضيْفي .. حقّاً لقد كان المنظر رائعاً بديعاً .. منظر اللبؤة والأسد.

فقال "ليو" بالإنجليزيّة:

- ما هذا الهذيان؟!

فتحوّلت "عائشةُّ" إلى "أوستين" وقالت:

- لقد فضحتكِ العلامة البيْضاء التي بين شعركِ .. فقد أضاءت حين انعكس عليها ضوء القمر .. حسناً حسناً .. الآن تنتهي حفلة الرقص .. انظروا .. ها قد انطفئت المشاعل وانتهى كل شيءٍ بموْقفٍ غراميٍ رائع .. حقّاً .. لم يدُر بخلدي يا "أوستين" أنك ستعصين كلمتي ولا تغادري هذه الديار.

فتأوَّهتْ الفتاة التَعِسة وقالت:

- لا تسخري مني .. اقتليني إذا شِئتِ

- لا .. لا .. لا يحسن أن يذهب المرء توّاً من شفتيْ الحُب الحارَّتيْن إلى فم القبر البارد.

وأشارت إلى تابعيها، فانقضّا على الفتاة وأمسكاها من ذراعيْها، فلم يحتمل "ليو" ذلك، فزأر زئير الليْث الهصور، وانقضَّ على أقرب

الرجليْن وطرحه أرضاً، ثم وقف فوْقه، وقد تقلَّص وجهه وتهيّأ للنضال، فضحكت "عائشةُ" وقالت:

- أحسنت يا ضيْفي .. إن ذراعيْك ما زالتا قويَّتيْن رغم مرضك .. أتوسَّل إليك أن تُطلِق سراح الرجل ليُنَفِّذ إرادتي .. سوف لا يؤذي الفتاة .. هلمّوا بنا إلى غُرفتي لأن من دواعي سروري أن أرحِّب هناك بالفتاة التي اصطفيْتَها من دون النساء.

وإذ وصلنا جميعاً إلى مقصورة "عائشة" شعرتُ بانقباضٍ شديد، وتولّاني شعورٌ غامضٌ بأنني سأشهد فاجعةً مُحزِنة، وجلستْ "عائشةُ" فوْق أريكتها، وأمرت الجميع بالانصراف فلم يبقَ غير خادمتها المُقرَّبة ونحن الثلاثة وقوفاً، وقالت "عائشة":

- هل لك أن تُخبِرني يا "هولي" كيف اشتركت في تدبير ذلك المنظر الذي رأيته الليْلة؟! .. قُل الصِدق .. وحذارِ أن تكذب.

فقلت بقلق:

- لا شأن لي بذلك .. فقد وقع الأمر صُدفةً أيتها الملكة.

فقالت ببرود:

- إني أصدِّقك .. إذن فالذنب كله ذنب الفتاة.

فهتف "ليو":

- وأي ذنبٍ هناك؟! .. إنها تزوَّجت بي طِبقاً لعادات أهل هذه البلاد .. فإذا كانت الفتاة قد ارتكبت أمراً فأنا شريكها فيه .. وحَقَّ عليَّ القصاص.

أصغت "عائشةُ" إلى "ليو" ببرود، ثم تحوَّلتْ إلى "أوستين" وقالت:

- هل لديكِ ما تقولينه أيتها الفتاة؟ .. لماذا عصيْتِ أوامري؟

أدركت الفتاة المسكينة ما سيصيبها على يديْ ملكتها الطاغية، ومع أنها كانت تُدرِك أنها لا تضارعها قوّةً واقتداراً إلّا أنها أبدت من البسالة ما أثار إعجابي، إذ وقفتْ ثابتة الجنان واستمدت من بأسها قوّة، فرفعت صدرها وقالت بصوْتٍ جهوريٍ رنّان:

- لقد خالفتُ أمركِ يا "هي" لأن حُبّي أعمق من القبر .. وحياتي بدون هذا الرجل هي الموْت بعيْنه .. أمَا وقد عرفتُ الآن أنني سأفقد هذه الحياة بسبب غضبكِ فإنه يسرّني أن أُلاقي الموْت بعد أن تزوَّدتُ منه بعناقٍ وقُبلةٍ أخيريْن.

فدوَّتْ في جوانب المقصورة صرخةٌ مُروِّعةٌ تنطوي على الغضب الشديد، وحوَّلتُ رأسي على الأثر فرأيْتُ "عائشةً" قد انبعثتْ واقفةً ويدها مبسوطةٌ وهي تُشير إلى "أوستين"، فلزمتْ الفتاة الصمت فجأة، وبدت عليها سيماء الخوف القاتل، فانتفخ أنفها وامتقعت شفتاها وجحظت عيْناها، وأمّا "عائشةٌ" فقد رفعت صدرها وظلَّت باسطةً ذراعها وجسمها ينتفض، وراحت تُحدِق في وجه غريمتها، فلم تلبث أن رفعت "أوستين" يدها إلى رأسها وصرخت صرخةً مُؤلِمة، ودارت على نفسها مرّتيْن ثم هوت فوق الأرض الصخريّة جُثّةً هامدة، فأدركتُ أن "عائشةً" قد صرعتها بقوَّتها السِحريّة.

ومكث "ليو" لحظةً لا يُدرِك ما حدث، ولكنه لمّا تبيّن حقيقة الأمر انقلبت سِحنته ووثب نحو "عائشة"، ولكن يبدو أنها كانت تترقَّب شيْئاً من ذلك إذ لم تلبث أن بسطتْ يدها مرّةً أُخرى فتراجع الشاب وهو يترنَّح، ولوْ لم أبادر بإسناده لسقط فوْق الأرض.

وأخيراً قالت "عائشةٌ" بصوْتها العذب:

- أرجو صفحك يا ضيْفي إذا كنتُ قد آلمتك بإنفاذ عدالتي.

فصاح "ليو" غاضباً:

- أصفح عنك أيتها الشيطانة؟! .. لا بُد أن أدق عنقكِ إذا استطعت.

فقالت دون أن تتأثَّر بغضبته:

- لا .. لا .. أنت تجهل كل شيء .. لقد حان الوقت الذي أُكاشِفك فيه بالحقيقة .. إنك حبيبي "كاليكراتس" القوي الجميل .. لقد انتظرتُك ألفيْ عامٍ يا عزيزى .. وها قد جئتَ إليَّ أخيراً .. وأمّا هذه المرأة (وأشارت إلى جُثّة "أوستين") فقد أرادت أن تقف بيني وبينك فكان جزاؤها الموْت.

فقال "ليو":

- هذه فِرية .. فإن اسمي ليس "كاليكراتس" وإنما أنا "ليو فنسي" .. أمّا جدّي فهو الذي يُدعى "كاليكراتس" أو على الأقل هذا ما أعتقده.

- آه .. هأنت قد ذكرتَ الحقيقة .. تقول أن جدَّك "كاليكراتس" .. إذن إعلم أنك أنت هو "كاليكراتس" .. وقد وُلِدتَ من جديد وعُدتَ إليَّ .. إنك سيّدي العزيز.

- لستُ "كاليكراتس" .. ثم إنني أُفضِّل أن أكون سيّد شيْطانةٍ من الجحيم على أن أكون سيّدكِ.

- أتقول ذلك يا "كاليكراتس"؟! .. لا ريْب أنك نسيتني لطول فراقنا .. ولكن؛ ألا تراني جميلةً يا "كاليكراتس"؟

- إنني أكرهكِ أيتها القاتلة .. ولا أريد أن أرى وجهكِ .. فماذا يهمّني من جمالكِ .. أقول إنني أكرهك.

فقالت "عائشةٌ" بصوْتٍ رقيقٍ يَشِفُّ عن السُخرية:

- ومع ذلك فستزحف بعد هُنيْهةٍ تحت قدمي وتُقسِم أنك تحبّني .. وسيكون ذلك أمام جُثّة الفتاة التي تُحِبّك .. انظر إليَّ الآن يا "كاليكراتس".

ثم خلعت الوِشاح و أبرزت قوامها الممشوق المُعتدِل وجمالها الرائع، وراحت ترنو إلى "ليـو" بعيْنيْها الساحرتيْن . فانبسطت أسارير الشاب وهدأت ثائرته تحت تأثير نظرتها، ولم يلبث أن تحوَّل غضبه إلى دهشةٍ ثم إلى إعجابٍ فرغبة، وكان كلّما ناضل أو قاوَم أرسلت إليه من عيْنيْها نظراتٍ نفّـاذةٍ حتى سقط في النهاية.

وأمّا أنا فشعرتُ بالغيرة تنهش قلبي والجنون يطيش بلُبّي، بيْد أنني تغلَّبتُ على حواسي ولا أدري كيف، وبدأت أفكّر في نهاية تلك المأساة المروِّعة، وقال "ليو" وهو يلهث:

- يا إلهي!! .. هل أنتِ امرأة؟!

فأجابت وهي تمد نحوه ذراعيْها العاجيّتيْن وتبتسم له ابتسامةً فاتنة:

- نعم امرأة .. وعروسك أيضاً يا "كاليكراتس".

وأنعم "ليو "النظر إلى "هي" وأطال النظر، ولم ألبث أن رأيْتُه يقترب منها رويْداً رويْداً إلى أن وقعت عيْناه على جُثّة "أوستين" التَعِسة فانتفض وجمد في مكانه وقال بصوْتٍ أجش:

- كيف أستطيع؟ .. إنكِ قاتلة .. وهي تحبّني.

ولأوَّل مرَّةٍ تغاضى "ليو" عن حُبّه لـ"أوستين"، فغمغمتْ "عائشةٌ" في صوْتٍ شجي عذب النبرات:

- لا شيء .. لا شيء مُطلَقاً .. إذا كنتُ قد أخطأتُ فليكُن لي من جمالي شفيعاً لديْك .. فلم يكُن خطأي إلّا بدافعٍ من حُبّي لك .. فاصفح عن زلّتي .. واسدل عليها سِتاراً من النسيان.

وبسطت ذراعيْها إليه مرّةً أُخرى وهي تهمس:

- تعالَ إليَّ.

وما هي إلّا هُنيْهةٌ حتى قُضيَ الأمر وسقط "ليو" في شِراك "عائشة" غير عابئٍ بـ"أوستين"؛ تلك الفتاة الوفيّة التي لاقت حتفها وهي تتغنّى بحُبّه، ولعَمري كان الموْقف رهيباً، ولكن ماذا تراه كان فاعلاً والقوة التي تدفعه نحو تلك المرأة الغريبة أقوى من أن تتغلَّب عليها أيّة قوّةٍ بشريّة؟!

نظرتُ إليهما وقد تلاقت شفاهما فامتلأت نفسي غيرةً وحسداً، وأحسست كأن خنجراً حادّاً قد مزّق قلبي.

وفجأة؛ انسلَّتْ "عائشةٌ" من بين أحضان "ليو" كالحيّة، ثم انفجرتْ ضاحكةً وأشارت إلى جُثّة "أوستين" وقالت:

- ألَم أقُل لك يا "كاليكراتس" أنه لن تمضي هُنيْهةٌ حتى تجثو أمامي؟ .. حقّاً؛ لم يكُن لي أن أنتظر طويلاً هذه المرَّة.

فتأوَّه "ليو" خجلاً وألماً بينا ضحكت "عائشةٌ" مرَّةً أُخرى، ثم أسدلتْ القِناع على وجهها، وأشارت إلى خادمتها إشارةً ذات مغزى فغادرتْ الخادمة الغُرفة، ثم عادت بعد لحظةٍ يتبعها رجلان أبكمان، أشارت إليهما الملكة إشارةً أُخرى فحملا جُثّة "أوستين" التَعِسة إلى الخارج.

وقد راقب "ليو" هذا المنظر هُنيْهةً ثم غطَّى وجهه بيديْه وشهق من أعماق صدره، وقالت "عائشةٌ" بلهجةٍ رزينة:

ـ لقد زالت هذه العقبة الكؤود.

وتبدَّلت أطوارها فجأة، فرفعت قناعها وشرعت تُغنّي أغنية الفوْز، وكانت أغنيةً غراميّةً وصفيّةً رائعة، ولكنني مع الأسف لا أذكر شيئاً منها الآن.

وحين فرغت من غنائها البديع وتلاشت نغمات صوتها الرخيم لزمتْ الصمت هُنيْهة، ثم قالت:

ـ لعلَّك تظن أنني أخدعك يا "كاليكراتس" حين أقول أنني عِشتُ هذه السنين الطويلة .. وأنك وُلِدتَ لي من جديد .. إني أرى الشك في عيْنيْك .. ولكني أملك بُرهاناً قويّاً محسوساً على صِدْق قوْلي .. وسأُقدِّم لك هذا البُرهان في التوْ .. وكذلك أنت أيضاً يا "هولي" .. فليحمل كلٌ منكما مصباحاً وليتبعني.

فأذعنّا دون تفكيرٍ أو رويّة، فقد بدأتْ هذه العجائب والمعميّات تثير حيرتنا وتسلبنا الإرادة، وأزاحت "عائشةٌ" ستاراً كان مُسدلاً فوْق أحد جُدران الغُرفة، فرأيْنا دَرْجاً هبطناه مُسرعين، ثم انطلقنا في دهليزٍ قصيرٍ لم يلبث أن انتهى بنا إلى بابٍ أُسدِل عليه ستارٌ آخر.

وما أن وقعتْ عيْناي على هذا الباب حتى عرفتُه في الحال، فقد كان هو الباب عيْنه الذي رأيْتُه ليْلة تسلَّلتُ من غُرفتي وقادتني قدماي صُدفةً إليه وراقبتُ منه خِلسةً "عائشة" وهي واقفةٌ بجانب اللهب، وانتفضتُ ولكني لُذتُ بالصمت، ونَفَذَتْ "عائشةٌ" إلى الداخل؛ فتبعناها وقد سرَّني قُرب وقوفي على سِر القبر.

* * *

(25)

الميّت والحي يلتقيان

تناولت "عائشةٌ" المصباح من "ليو" ورفعته فوْق رأسها وقالت:

- انظر: هذا هو المكان الذي أقمتُ فيه ألفيْ عام.

وفوق سريرٍ من الصخر رأينا جُثّةً مُدرَجةً بأكفانٍ بيضاء، بينما وقع بصرنا على سريرٍ آخر مقابل قالت عائشة أنها كانت تقضي الليْل فوقه طوال هذه الأجيال، وقالت:

- وهكذا حافظتُ على عهدي لك يا "كاليكراتس" مُدّة نومك .. والآن انظر يا سيّدي فسترى شيئاً غريباً .. سترى وأنت حيٌ شخصك وأنت ميّت.

وتقدَّمتْ من الجُثّة وهتفت:

- سيلتقي الآن الحي والميّت .. إنهما شخصٌ واحدٌ رغم الأحقاب العديدة التي تفصل بينهما .. لقد حافظتُ على جُثَّتك يا "كاليكراتس" حتى تولد من جديد وذلك بفضل خبرتي وتجاربي في التحنيط وبفضل ما اقتبسته من علوم أهل "خور" .. انظر.

وجذبتْ الأكفان فجأةً من فوق الجُثّة الباردة، وما أن وقع بصري على جُثّة الميّت حتى تراجعت مُترنّحاً وقد استوْلى عليَّ الخوْف.

رأيْت أمامي ما خِلتُه جُثّة "ليو فنسي" وقد لُفَّت في أكفانٍ بيضاء، ورُحْتُ أُقَلِّب الطرف بين "ليو" الحي الواقف بجانبي وبين "ليو" الميّت

المُسجَى أمامي، فلم أُلاحِظ أدنى فارقٌ بينهما إلّا أن صاحب الجُثّة المُسجاة كان أكبر سِنّاً.

وتحوَّلتُ إلى "ليو" لأرى كيف كان وَقْع ذلك الجُمود والذهول مُجسَّميْن على وجهه، وقد ظلَّ ينظر إلى الجُثّة هُنيْهةً، ثم صاح:

- أعيدوا الأكفان فوق الجُثّة .. وهلمّوا بنا.

فقالت "عائشةٌ" بصوْتٍ يَشِفُّ عن الجلال:

- لا .. مهلاً يا "كاليكراتس" .. هل لك يا "هولي" أن تكشف الكَفَن عن صدر "كاليكراتس" الميّت.

فأذعنتُ مُرغَماً وأزحتُ الغطاء عن صدر الجُثّة فرأيْنا جُرحاً في القلب؛ هو لا شك طعنة خِنجر.

وقالت "عائشةٌ" لـ"ليو":

- إنني أنا التي قتلتك يا "كاليكراتس" لأن "أمنارتس" المصريّة التي أحببتها اغتصبتك مني .. ولم أستطع أن أتخلَّص منها كما تخلَّصت من تلك الفتاة الآن لأنها كانت أقوى .. ولمّا ثارت ثائرتي قتلتك أنت .. وأمضيْتُ تلك الأجيال الطويلة وأنا أبكي وأنتحب حتى عُدْتَ إليَّ أخيراً .. سأمنحك الآن الحياة بدل الموْت .. حياةٌ تبقى ألوف السنين .. حياةٌ كلّها شبابٌ وبهجة .. وسأمنحك السُلطة والجاه والثروة بما لم ينَله رجلٌ آخر من قبلك .. ولكن مهلاً لحظة .. إن هذه الجُثّة التي تراها كانت عزائي الوحيد إبّان غيْبتك الطويلة .. أمّا الآن فلم تعُد بي من حاجةٍ إليها .. وسأردَّها إلى مثواها الذي منعتُها من الوصول إليه .. انظر .. لقد أعددت العُدَّة لهذه الساعة السعيدة.

وتقدَّمتْ إلى رفٍّ فوْق فِراشها الصَخري وتناولت من فوْقه وعاءً زُجاجيّاً ذا يديْن وله غطاءٌ من الجلد، ثم تقدَّمتْ من الجُثّة وقبّلت جبين الميّت، وأزاحت غطاء الوعاء ثم صبَّت منه سائلاً بعنايةٍ تامّةٍ فوْق الجُثّة، وتوخَّت الحذر كيْلا تُصيبَنا أو تُصيبها قطرةٌ منه، وفي التوْ تصاعد بُخارٌ كثيف، وامتلأ المكان بدخانٍ خانقٍ حال دون رؤية تفاعُل السائل مع الجُثّة، بيْد أننا كُنّا نسمع صوْت قرقعةٍ ما لبث أن تلاشي قبل أن يزول البُخار من الكهف، وأخيراً تبدَّدت الأبخرة عدا سحابةً صغيرةً انعقدت فوق الجثة ولكنها سرعان ما تبدَّدت أيضاً.

ونظرنا؛ فإذا بجُثّة "كاليكراتس" التي بقيت محافظةً على شكلها أجيالاً طويلةً قد تلاشت من الوجود، ولم يبقَ في مكانها غير قبضةٍ من مسحوقٍ أبيض بعد أن أتي الحامض على الجُثّة كلّها.

ومالت "عائشةٌ" فوق الصخر وتناولت كميّةً من المسحوق وذَرَتها في الهواء، ثم قالت بصوْتٍ هادئٍ رزين:

- ليعُد التُراب إلى التُراب .. والماضي إلى الماضي .. والمفقود إلى المفقود .. لقد مات "كاليكراتس" وبُعِثَ من جديد.

وقد بقي الرماد عالقاً بالهواء هُنيْهة، ثم أخذ يتساقط فوْق أرض الكهف الصخريّة، بينا وقفنا نراقب سقوطه وقد عقدت الدهشة ألسنتنا، ثم قالت "عائشة":

- والآن .. عودا إلى فراشكما .. واتركاني لأخلو إلى نفسي .. وغداً سنرحل من هُنا في طريقٍ مضى عليَّ زمنٌ طويلٌ مذ وطئته قدماي لآخر مرّة.

فانصرفنا ذاهلين مأخوذين.

(26)

خطّة "عائشة"

ما كدتُ أُفضي إلى "جوب" بمصرع "أوستين" في صباح اليوْم التالي وما كان من سيْطرة "عائشة" على "ليو" والمشهد المُروِّع الذي رأيناه في القبر حتى اضطربت أوْصاله وغاض الدم في وجنتيْه، ثم قال:

- إن هذه البلاد موْطن الشياطين يا سيّدي .. وهذه المرأة هي زعيمتهم بلا منازع .. ولا أظنّها ستسمح لشابٍّ جميلٍ كسيّدي "ليو" بالإفلات من قبضتها.

فقلت:

- هذا جائز .. ولكنها أنقذت حياته على كل حال.

فأطرق "جوب" قليلاً وقال:

- لقد رأيْتُ أبي في المنام .. وخاطبني بلهجةٍ تنطوي على الرزانة التي تشف عن الرِضى .. وقال لي: "لقد حان الوقت يا جوب، لم أتوقَّع أن آتي وأبحث عنك في مثل هذا المكان الموحِش بين خرائب خور ومغاورها".

فقلتُ ضاحكاً:

- هي مُجرَّد أقوالٍ يا "جوب".

- نعم يا سيّدي .. ومع ذلك فإنني أشعر بأن نهايتي قد قَرُبَت.

- لا أظنّك تعني ذلك حقّاً .. لأنك رأيْتَ أباك في الحُـلُم .. إذ لو كان يؤَوَّل كل حُلُمٍ يُرى فيه الأب بمعنى الموْت فماذا يصيب المرء إذا رأى حماته يا "جوب"؟!

- لا ريْب أنك تسخر مني يا سيّدي .. إنك لا تعرف أبى .. فلو كان شخصاً آخر الذي رأيْتُ لمَا اهتممت كثيراً .. إن والدي لم يأتِ إلى هُنـا لمجرَّد التفرُّج على المكان .. لا يا سيّدي .. إنه جاء لمهمَّةٍ أخطر .. وصحيح أن الموْت نهاية كل حي ولكن من المؤلم أن يمـوت الإنسان في مغارةٍ كهذه.

- صه أيّها الأحمق .. هذه مُجرَّد أحلام جوْفاء.

ولكنه أصر على رأيه وتشبَّث به حتى أغضبني، فصحتُ به:

- ألا كُف عن هذه الثرثرة .. واغرب عن وجهي .. اذهب وأعِد الطعام.

فانصرف وهو مضطرب الفِكْر شارد اللُب، وبعد هُنيْهـةٍ عاد "جوب" بالطعام، وكان معه "ليو" فشعرتُ بشيءٍ من الاطمئنان عند رؤيتهما، وذهبتْ عني وَساوِسي.

وإذ فرغنا من تناول غدائنا أقبل "بلالٌ" وأنبـأنا أن "هي" تريد مقابلتنا في التو.

واستقبلتنا "عائشةُ" في مقصورتها، ورفعت القنـاع عن وجهها، ثم أمرت "ليو" أن يعانقها، فانصاع للأمر وعانقها بشِدّةٍ وشغفٍ أكثر ممّا تسمح به قواعد اللياقة والمجاملة، ووضعت "عائشةُ" يدها البيْضاء على رأس "ليو"، ورنت إليه بنظرةٍ تفيض حُبّاً وهياماً، ثم قالت:

- أتدري يا "كاليكراتس" متى يكون كلٌ مِنّا للآخر؟ .. لن يكون ذلك قبل أن تُصبِح مثلي صلباً قاسياً لا تُؤثِّر فيك صروف الدهر وبلاياه .. وسـوف لا تكون كُفئاً لي حتى تتغيَّر .. لأن كليْنا يختلف الآن عن صاحبه .. فغداً

سنغادر هذا المكان قبل غروب الشمس بساعة .. وسنقف في اللّيْلة المُقبِلة - إذا لم أضل الطريق - في مكان الحياة .. حيث تدخل أنت النار وتخرج ذا بهاءٍ لم يُخلَع على رجلٍ قبلك .. وإذ ذاك يمكنك يا "كاليكراتس" أن تدعوني زوْجةً وأن أدعوك زوْجاً.

فتمتم "ليو" ببضع كلماتٍ رداً على هذه الأقوال الغريبة، فضحكت "عائشةٌ" لما تولّاه من حيرةٍ وارتباك، واستطردت:

- وأنت يا "هولي" سأمنحك هذه النعمة جزاءً لك لأنك أدخلت السرور على قلبي.

فأجبتُ بلهجةٍ تنطوي على الاحترام:

- شُكراً لك يا "عائشة" .. ولكن إذا كان هناك مكانٌ كالذي تتحدَّثين عنه وإذا كانت في هذا المكان الغريب قوةٌ تسيْطر على الموْت وتُبعِده عنّا فاعلمي أنني لا أسعى إلى هذه الغاية .. فإن الحياة عِبءٌ ثقيلٌ باهظ الثمن .. ونحن لا نستطيع احتمال تكاليفها المُرهِقة إبّان أعمارنا المحدودة .. فما بالكِ حين تصبح تلك الأعمار أجيالاً طويلة؟!! .. نعم .. ما أشق الموْت على النفوس .. لأن أجسامنا الرقيقة تجفل من مُجرَّد التفكير في الدود الذي سينهشها .. وفي المجهول الذي أُسدِل بيننا وبينه الحجاب .. ولكن أشق من ذلك أن يعيش الإنسان إلى الأبد تبدو على وجهه سيماء السعادة بيْنما ينهش قلبه دود الذكرى مدى الحياة.

فقالت:

- هذا جائز .. ولكن ألا ترى أن الحياة الطويلة والجاه العريض والجمال المُفرِط يُكسِب الإنسان القوَّة ويهبه كل شيءٍ عزيز؟

- وما هي الأشياء التي يعزّها الإنسان؟ .. أليست فقاقيع جوْفاء ومظاهر كاذبةً خلّابة؟ .. أليس الطمع سُلَّماً لا نهاية له .. كلّما ارتقى المرء إحدى درجاته شَخَصَ بعيْنيْه إلى ما بعدها؟ .. ليس في سُلَّم الطمع مكانٌ للاطمئنان .. ألم تعجز الثروة في كثيرٍ من الأحيان عن جلب الراحة إلى الفكر والطمأنينة إلى القلب؟ .. لا يا "عائشة" .. إني أُفضِّل أن أعيش يومي مع أبناء جيلي إلى أن ينتهي أجلي فأموت المِيْتة التي قُدِّرت لي أو ينساني العالم .. فإننى أرجو أن أحيا حياةً أُخرى أبديّةً وعدني بها ديني .. حياةً خاليةً من القيود التي لا بُد أنها تُكبِّل نفسي هنا.

فضحكت "هي" وقالت:

- إنك سامي الفكر بليغ العبارة يا "هول" .. بيْد أن في استطاعتي أن أُقنِعك بخطأ رأيك ووجاهة نظريّني .. ولكن ما الفائدة؟ .. دَعْ الغَر في لهوه حتى يحين وقت الندم .. نعم يا "هولي" .. سوف تأسف على رفض هذه الفرصة الذهبيّة التي أعرضها عليك عندما تدب فيك أعراض الشيْخوخة مُنذِرةً بقُرب الفَناء.

فلم أُحِر جواباً، إذ لم يكن في إمكاني أن أُكاشِفها - أمام "ليو" - بأنني أيْقنتُ مذ وقع نظري على وجهها بأن صورتها ستظل أبداً ماثلةً أمام عيْني، وأننى لذلك لا أُريد أن تطول حياتي.

وأخيراً أدارت "عائشةٌ" دَفّة الحديث إلى ناحيةٍ أخرى عندما قالت:

- هل لك أن تُحدِّثني يا "كاليكراتس" كيف أتيْتَ إلى هُنا لتبحثَ عني؟ة.. سمعتُك أمس تقول أن "كاليكراتس" الذي رأيتَ جُثَّته كان جدّك .. فكيف ذلك؟

فشرع "ليو" يُفضي" إليها بمضمون الوثائق التي عثرنا عليها في الصندوق الذي ورثه عن أبيه، وقطعة الخزف التي نُقِشَتْ فوقها قِصّة جدّته "أمنارتس" المصريّة، وأصغت "عائشةُ" إلى القصّة بانتباهٍ شديد، فلمّا فرغ "ليو" من سرد ما عنده تحوَّلت "هي" إليَّ وقالت:

- ألم أقُل لك يا "هولي" أن الخيْر قد يتولَّد من الشر والعكس بالعكس؟ .. ها قد صدق قوْلي سريعاً .. فإن الأميرة المصريّة ابنة النيل الملكيّة التي كانت تمقتني والتي أمقتها إلى الآن كانت هي نفسها التي قادت حبيبها إلى ذراعيَّ .. لقد قتلته بسببها فانظر الآن كيف عاد إليَّ بفضلها .. إنها أساءت إليَّ وألقت بذور كُرهها لكي أحصد الآلام والشقاء .. ولكن انظر .. إنها منحتني ما لا يستطيع العالم بأسره ان يمنحنيه.

وأمسكت هُنَيْهةً ثم استطردت:

- إنها أمرت ابنها أن يقضي عليَّ إذا استطاع لإننى فتكتُ بأبيه .. ولمّا كنتَ أنتَ يا "كاليكراتس" الأب والابن معاً فهل تريد أن تثأر مني لنفسك ولأُمّك؟

وجثت على ركبتيْها وكشفت عن صدرها العاجي وقالت:

- انظر .. هنا يدق قلبي .. ولديك خِنجرٌ ثقيلٌ حاد .. فلا أسهل من أن تغمده فيه لتثأر لنفسك ولأُمّك كي تعيش ناعم البال مرتاح الضمير.

هز "ليو" رأسه نفياً، ومَدَّ يده فأنهضها، وقال:

- انهضي يا "عائشة" .. إنك تعلمين أنني لا أستطيع أن أمسَّك بسوء .. فأنا عبدك وأسير حُبّك .. ولتُقطَع يميني قبل أن تمتد إليكِ بالشر.

فابتسمت "عائشةٌ" وقالت:

- خُيِّل إليَّ أنك قد بدأت تُحِبُّني يا "كاليكراتس" .. حسناً .. حدِّثني الآن عن بلادك .. ستعود إليها بلا ريْب .. فهي خيرٌ من كهوف "خور" .. لا تجزع .. فسنبحث عن طريقٍ يُخرِجنا من هذه البلاد ونرحل معاً إلى وطنك العزيز حيث نعيش كما يعيش سوانا .. لقد انتظرت ألفيْ عام مجيء ذلك اليوْم الذي أخرُج فيه من هذه الكهوف الممقوتة .. وها قد جاء .. وسوف أراك تحكم على "إنجلترا".

فصاح كلانا مُستنكِراً، وأوْضحنا لها أن الملكة "فيكتوريا" محبوبةٌ من شعبها لأنها تحكم طِبقاً لقوانين الديمقراطيّة الصحيحة، ولكنها هزَّت كتفيْها استخفافاً وقالت:

- يُخَيَّل لي أنكما تُشفِقان من القانون الذي تتحدَّثان عنه .. ولكن اعلما أنني فوق قوانين العالم أجمع .. وكذلك سيكون "كاليكراتس" .. وأنه ليس في استطاعة أيّة قوَّةٍ أرضيّةٍ أن تقهرنا .. فما الذي يحول بيننا وبين حُكْم العالم بأسره؟!!

هممتُ بالرد عليها ولكنها استوْقفتني قائلة:

- أتوسَّل إليكما أن تتركاني الآن .. لأنني أريد التأهُّب لرحلتنا .. كما أشير عليكما بالتأهُّب لها مع خادمكما .. ولكن لا تأخذوا معكم أمتعةً كثيرةً لأني أرجو أن نعود بعد ثلاثة أيّامٍ لأُعِد العُدَّة لمغادرة كهوف "خور" إلى الأبد.

فغادرنا الغُرفة وقد استوْلت عليَّ الهواجس والأفكار السوْداء.

*** * ***

(27)

خرائب "خور"

عهدنا إلى "جوب" بحزم أمتعتنا استعداداً للرحيل، وحمل كلٌ مِنّا مُسدّسه وبُندقيّته مع كميّـةٍ كبيرةٍ من الطلقات خشية الطوارئ.

وفي الموْعد المُعيَّن أرسلت "عائشةٌ" في طلبنا، فوافيْناها في مقصورتها، وألفيْناها قد اتَّشحت بإزارها الأسوَد، وإذ اكتمل عقدنا غادرنا الكهف الكبير إلى مدخله حيث وجدنا هَوْدَجاً واحداً وسِتّة حَمّالين - كلهم من البُكم - وصديقنا "بلالاً"، وكان الجميع في انتظارنا ولأمرٍ ما رأت "عائشة" أن نسير جميعاً على الأقدام، وقد سرَّني ذلك بعد أن قضيْنا وقتاً طويلاً شبه أسرى في الكهوف.

وأخيراً .. بدأنا رحلتنا، ولم تمضِ بضع دقائق حتى كنا نسير وسط سهلٍ فسيحٍ مُعشَوْشَب، فإذا ما انقضى نصف ساعةٍ رأيْنا أطلال مدينة "خور" العظيمة، وبدت الأبنية لأعيُننا أشبه شيءٍ بالقصور وسط جنّةٍ فَيْحاء، وأخيراً وصلنا إلى خندقٍ عظيمٍ يُحيط بالمدينة لعلَّه حُفِرَ للدفاع عنها في أحد العصور الخـالية، فاجتزناه فوق أنقاض قنطرةٍ عظيمة، ثم ارتقيْنا منحدر سور المدينة إلى أن بلغنا قِمَّته، وبودِّي لو أتيْتُ على شيءٍ من وصف المنظر العظيم الذي تجلّى لعيْني وقتئذٍ، فقد امتدَّت أمامي أميالٌ عديدةٌ شُيِّد فوْقها عددٌ لا حصر له من الإعمدة والمعابد والهياكل وقصور الملوك التي لم يبقَ منها الآن غير أطلالها، وكانت تتخلَّلها شجيراتٌ

خضراء، ويكسو هذا المنظر البديع ثوْبٌ رائعٌ من أشعة الشمس وهي تحتجب وراء الأُفق.

وقد رأيْنا أمامنا طريقاً فسيحاً لعلَّه كان شارع المدينة الأكبر، فهبطنا إليه وانطلقنا فيه حتى إذا ما بلغنا نهايته رأيْنا أمامنا أنقاض هيكلٍ عتيقٍ يشغل مساحةً كبيرةً لا تقِل عن ثمانية أفدنة، ويتكوَّن من سلسلته رحباتٌ يفصل بين كل واحدةٍ وأُخرى صفٌّ من أعمدةٍ لم ترَ لها عيْني مثيلاً، إذ كانت رفيعةً من الوَسَط ضخمةً عند القِمّة والقاعدة، وقد حسبناها أوّل الأمر تماثيل نساء، بيْد أننا صعدنا فوْق منحدرات الجبل في اليوم التالي، وشاهدنا عدداً كبيراً من النخيل نمت جذوعها على هذه الصورة، فأيْقنت أن الذي ابتكر فكرة الأعمدة إنما استمدَّها من منظر النخيل.

وعندما بلغنا المعبد توقَّف الرَكْب، وهبطت "عائشة" من هوْدجها وقالت لـ"ليو" الذي خَفَّ لمساعدتها على الهبوط:

ـ هُنا غرفةٌ تصلح للنوْم .. وقد نِمْتَ أنتَ فيها منذ ألفيْ عام مع تلك الأفعى المصريّة "أمنارتس".

وتقدَّمتنا "عائشة" إلى فناء الهيْكل الخارجي، ولم تلبث أن انعطفت إلى اليسار، وأشارت إلى أحد الخدم البُكم فأخرج مصباحاً أوْقده وأنار لنا الطريق،فألفيْنا أنفسنا في غُرفةٍ نُحِتَتْ في الصخر بها أفريزٌ صخريٌ أدركتُ أنه كان يُستخَدم للنوْم، وقد تناولنا طعامنا في تلك الغُرفة ثم خرجنا للتفرُّج على بقية المعبد والإله الذي كان يعبده أهل المدينة العظيمة، ولعَمري أنه لمنظرٌ رائعٌ ذلك الذي وقعت عليه أعيُننا، فقد امتدَّت أفنيةٌ وراء أفنية، وصفوفٌ من الأعمدة خلف صفوف، وغُرَفٌ

خاليةٌ خاوية وراء غُرَف، وجميعها تنطق بعظمة مُشَيِّديها وتفوُّقهم في فن الهندسة والبناء.

لم يجرؤ أحدنا على التكلُّم بصوْتٍ مرتفع، وحتى "عائشة" لاذت بالصمت التام أمام هذه الخرائب العتيقة التي لا يُعد عُمْر "هي" شيئاً بالنسبة إليها، وكانت أشعة القمر الفضيّة تسقط على هذه الأطلال البالية فتُكسِبها روْعةً وجمالاً يجل عن الوصف، وأخيراً قالت "عائشة":

- هلمّوا بنا لأُريكم زهرة الجمال وتاج العجب إن كانت لا تزال قائمةً تسخر من الزمن وتملأ قلب الإنسان شوْقاً إلى معرفة ما وراء القناع.

ثم تقدَّمتنا واجتازت بنا رحبتيْن إلى أن وصلنا إلى المقصورة الداخليّة للهيْكل القديم، وفي وسط الرحبة وقع بصرنا على عملٍ فنيٍ رائعٍ هو من أعظم ما رأته عيْناي: صخرةٌ مُرَبَّعةٌ فوْق كرةٍ كبيرةٍ منحوتةٍ من الصخر الأسود، وفوْق هذه الكُرة أُقيم تمثالٌ له جناحان على جانبٍ عظيمٍ من الروْعة الفنيّة الدقيقة.

شاهد أيضًا

كان التمثال من المرمر الأبيض النقي الذي إذا انعكست عليه أشعة القمر أضاء ببريقٍ وَهَّاج، وكان على صورة امرأةٍ حسناء ذات أجنحةٍ قد وقفتْ وقفة الخضوع، إذ مالت إلى الأمـام قليلاً ووزنت جسمها بجناحيْها، وكانت ذراعاها مبسوطتيْن كأنها تريد معانقة حبيبٍ لها، بينما كان منظرها العام يُوحي بأنها في موقف التوسُّل والضراعة.

وكان قوامها الممشوق عارياً عدا الوجه، فقد أُسدِل عليه قناعٌ رقيقٌ حجبه ولكنه أبرز تقاطيعه الفاتنة، بينما التفَّ رأسها بقنـاعٍ آخر انزلق أحد طرفيْه فوْق صدرها وانطرح الآخر وراء ظهرها بتموُّجٍ وتعرُّج.

تحوَّلتُ إلى "عائشة" وقُلتُ متسائلاً:

- مَن تكون؟

فأجابت:

- ألا تستطيع التخمين؟! .. أين فكرك الثاقب يا "هولي" .. إنها الحقيقة تنادي أبناءها ليكشفوا القِناع عن وجهها.

ثم تقدَّمتْ من قاعدة التمثال وأشارت إلى نقوشٍ مرسومةٍ أشبه بتلك التي رأيْتُها في كهف الأموات، وترجمتْ لي نَص النقوش بما يلي:

«"ألا يوجد رجلٌ يرفع النقاب عن وجهي الجميل؟، سأهِب نفسي لمَن يرفعه، وسأمنحه السلام والنسل المُتعلِّم الحكيم".

وعندئذٍ أجاب الحقيقة صوْتٌ يقول: "إن جميع الذين يبحثون عنكِ يريدونكِ ولكنك عذراء، وستبقين كذلك إلى الأبد، ليس هناك إنسانٌ يستطيع أن يرفع القِناع عن وجهكِ ثم يعيش، ولن يوجد مثل هذا الرجل، أن قناعك أيّتها الحقيقة لا يُرفَع عن وجهكِ إلا بالموْت".

فبسطت الحقيقة ذراعيْها وبكت لأن الذين يتعشَّقونها قد لا يحصلون عليها أو ينظرون إليها وجهاً لوجه.»

* * *

(28)

داخل جبل النار

استأنفنا الرحيل قبل أن يطلع فجر اليوْم التالي، فاجتزنا مدينة "خور" والخندق المُحيط بها، ثم انطلقنا في السهل الواقع وراءه، وللمرَّة الأولى مُذ غادرنا المدينة تكلَّمت "عائشة" فقالت:

- يقولون أن "خور" مسكونةٌ بالأرواح والشياطين .. ولا أحسبهم أخطأوا فيما قالوا لأنني رأيت أمس في نوْمي أحلاماً مُروِّعة .. ولست أدرى بماذا تُنذِرني هذه الكوابيس الغريبة .. لذلك فقد عزمت على ألّا أزور هذه المدينة المشئومة مرَّةً أُخرى لأنها نذير سوء.

وكفَّتْ "عائشة" عن الكلام، ثم أمرتْ فأعدَّ الخدم الطعام، وبعد أن تناولناه استأنفنا السيْر بسرعةٍ حتى إذا ما وافت الساعة الثانية كنا قد بلغنا سفح السور الصخري الذي يحد البحيْرة الواسعة.

كان السور شديد الانحدار في تلك البُقعة، ويمتد إلى مسافة ألفيْ قدم، فتوقَّفنا عن السيْر، وهبطت "عائشة" من هوْدجها وقالت:

- سنترك هؤلاء الرجال هُنا .. ونتمِّم رحلتنا سيْراً على الأقدام.

وتحوَّلتْ إلى "بلالٍ" وأمرته بانتظارنا حتى نعود، ثم طلبتْ إليَّ أن آمر "جوب" أن يتبعنا بعد أن يحمل لوْحاً من الخشب طوله ستة عشر قدماً كان مشدوداً إلى هوْدجها.

وقد حمل "جوب" اللوْح ومصباحاً، بينما حملتُ أنا المصباح الآخر فوق ظهري وزجاجةً من الزيْت، وأما "ليو" فحمل المؤن وكيساً من الجلد به ماء، وأخيراً قالت "عائشة":

- هل أنتم على استعداد؟

فلمّا أجبناها بالإيجاب شرعت ترتقي أكمةً عاليةً ونحن في أثرها، حتى إذا صِرنا على مسافة خمسين قدماً من قِمَّة الأكمة انعطفنا إلى اليسار وسِرنا نحو سبعين خطوة، ولم نلبث أن وصلنا إلى طريقٍ ضيّقٍ أخذ يزداد اتساعاً وانحداراً إلى أسفل كلّما تقدَّمنا فيه، وقد انتهى هذا الطريق فجأةً إلى كهفٍ طبيعيٍ نفذتْ إليه "عائشة"، ثم أمرتنا أن نوقِد المصباحيْن ففعلنا، وعندئذٍ تناولتْ هي أحدهما وحملتُ أنا الآخر.

وتقدَّمتنا "عائشـة" داخل الكهف وهي تسير بحذرٍ لخطورة الطريق، إذ كان أملس في بعض أجزائه، كثير الحُفَر في البعض الآخر، بحيث لو كبَّ (تعثَّر) فيها الإنسان لتهشَّمت أعضاؤه.

وأخيراً؛ وصلنا إلى نهاية الكهف فتوقَّفنا في سيْرنا، وعندئذٍ هبَّت ريحٌ شديدةٌ أطفأت المصباحيْن، ونادتنا "عائشة" - وكانت تتقدَّمنا بمسافةٍ قصيرة - فزحفنا إليها، ولشد ما دُهِشنا وأخذنا الإعجاب إذ وقعت أبصارنا على منظرٍ فريد، رأيْنا هوَّةً سحيقةً وسط صخرةٍ سوْداءٍ يبدو أنها تفتَّتت في إحدى ثوْرات الطبيعة، وكانت هذه الهوَّة محاطةً بمنحدرات، وبرغم أننا لم نتمكَّن من رؤية نهايتها المُقابِلة فقد أدركنا - من شِدَّة الظلام - أنها ليست عريضةً إلى حَدٍّ كبير، بيْد أنني لم أستطع تحديد عمقها، فقد كنا نبعد عن قِمّة الأكمة بنحو ألفيْ قدم على الأقل، وكان يمتد من فوَّهة الكهف الذي سرنا فيه نتوءٌ صخريٌ كبيرٌ يمتد فوق

الهوَّة إلى مسافة خمسين ياردةٍ تقريباً، وكان هذا النتوء مُدبَّباً في النهاية ويتَّصل بالأكمة عند القاعدة فقط.

قالت "عائشة":

- يجب أن نمشي فوق هذا النتوء .. فاحذروا أن يصيبكم الدوار فتسقطوا في الهوَّة.

وشرعتْ تسير فوق النتوء دون أن تترك لنا مُتَّسَعا من الوقت كيلا يتسرَّب الخوْف إلى قلوبنا، فتبعناها دون تفكيرٍ أو تدبير، وكنتُ أسير خلفها مباشرةً يليني "جوب" وهو يحمل اللوْح الخشبي ثم يليه "ليو" لكن ما أن تقدَّمتُ بِضع خطواتٍ حتى شعرتُ باضطرابٍ غامضٍ وتملَّكني الخوْف من ضغط الهواء، وكذلك لاعتقادي أن أى انزلاقٍ يُفضي إلى سقوط الإنسان في هذه الهوَّة السحيقة، وحينئذٍ انبطحتُ على وجهي وزحفتُ على يديَّ وقدميَّ خشية الزلل فاقتدى بي زميلاي، وأمّا "عائشة" فسارت في طريقها وهي تتمايل بجسمها ضد الريح دون أن تفقد توازنها.

اجتزنا نحواً من عشرين خطوةً على هذه الحال، وكنا كلّما تقدَّمنا في زحفنا فوق هذه القنطرة المُروِّعة ازدادت ضيقاً، لكن حدث أن هبَّت ريحٌ عاتيةٌ جعلت "عائشة" تتمايل بشدَّةٍ حتى خُيِّل إليَّ أنها تكاد تفقد توازنها وتهوى إلى الحضيض، بيْد أنها استطاعت أن تحتفظ بتوازنها وتنجو من السقوط، ولكنها خسرت إزارها الأسود الذي حملته الريح معها وألقته في جرف الهوَّة المُظلِمة، وأمّا أنا فتشبَّثتُ بالصخرة، وقلَّبت الطرف

حوْلى في خوْف فرأيْتُ المنظر مُروِّعاً والموْقف أروع، فقد كنا مُعلَّقين بين السماء والأرض، تحتنا هوَّةٌ لا قرار لها، وفوقنا فضاءٌ لا نهاية له، بينما كانت الريح تعصِف بشِدَّة وتدفع أمامها سُحُباً من الغبار أعمى عيوننا.

* * *

(29)

الحجرالمتأرجح

هتفت "عائشة" مُشجِّعةً:

- إلى الأمام .. إلى الأمام .. وإلّا هويْتم وتهشَّمت عظامكم.

فأطعناها وواصلنا الزحف بكل حذرٍ وعناء حتى بلغنا طرف النتوء الذي كان عبارةً عن قطعةٍ مستويةٍ من الصخر تزيد في مساحتها قليلاً عن النضد الصغير.

وللمرّة الأولى عرفتُ لماذا أتت "عائشة" باللوْح الخشبي، ذلك أنني رأيْتُ أمامنا ثغرةً تفصل بين نهاية النتوء والطرف الآخر من الهوَّة، وقالت "عائشة":

- سنبقى حيث نحن .. فسيأتينا الضوْء فوْراً.

دُهِشتُ لقوْلها فقد كان المكان أشد حلكةً من ظلام الليْل، بيْد أننى سرعان ما رأيْتُ شُعاعاً من ضوْء الشمس يخترق أحشاء الظلام ويسقط على "عائشةٍ" فيُضيء قوامها الممشوق، وكم عجبتُ كيف وصل إلينا هذا الشُعاع الذي أضاء المكان كما لو كان مصباحاً قويّاً.

رأيْنا صخرةً بارزةً من جانب الهوَّة المقابل وكانت على شكل قُمع رأسه أمامنا تماماً، ثم هتفتْ "عائشة":

- أسرِعوا .. إليَّ باللوْح الخشبي .. يجب أن نعبر الهوَّة قبل أن يذهب الضوْء.

فأخذتُ اللوْح من "جوب" وهو يتأوَّه ويرتجف ذُعراً وناولته لـ"عائشة"، فجعلت تدفعه بحذرٍ حتى استقرَّت إحدى نهايتيْه فوْق الصخرة المُقابِلة وارتكزت نهايته الأُخرى فوْق النتوء، وتحوَّلت إلينا وقالت:

- سأعبر الآن هذه القنطرة فإنها لا تحتمل ثِقلنا جميعاً.

وتقدَّمت من اللوْح وسارت فوْقه بخفَّةٍ نادرةٍ وثباتٍ مُدهِشٍ حتى بلغت الصخرة المُقابِلة، ثم صاحت:

- تقدم الآن يا "هولي" وأسرِع قبل أن يختفي الضوْء.

فانتفضتُ وتولّاني الذُعر حتى لقد تراجعت قليلاً إلى الوراء، بيْد أنني لم أشأ الظهور بمظهر العاجز الجبان أمام "عائشة" بل فضَّلتُ السقوط والموْت على سخريتها واحتقارها، فاستجمعتُ أطراف شجاعتي وتقدَّمتُ من اللوْح، وبدأتُ أسير فوْقه بحذر.

آه! .. ما أشد الآلام التي انتابتني عندما ماد بي اللوْح تحت تأثير ثِقَل جِسمي!!، لقد أُصيب رأسي بدوارٍ شديد، وأيقنتُ أنني هالكٌ لا محالة، بيْد أنني قُمتُ بمحاولة اليائس، وأسرعتُ في سيْري حتى أدركتُ الصخرة المقابلة فتنفَّستُ الصعداء.

وأمّا "ليو" فقد عبر اللوْح بخِفّة الراقص، فمدَّتْ "عائشة" يدها إليه وصاحت بطرب:

- ما أشجع قلبك أيّها الحبيب!!

وجاء دوْر "جوب" المسكين، فبدأ يزحف فوق النتوء حتى بلغ طرف اللوْح، وعندئذٍ صرخ:

- لا أستطيع يا سيّدي .. سأسقط في هذه الهوَّة المُخيفة.

فنهرتُه وهوَّنت عليه الأمر رغم أني كنتُ مُغالِطاً في ذلك، فانبطح المسكين فوق اللوْح وأخذ يجُر نفسه بمشَقّةٍ كبيرة وقد تدلَّت ساقاه من جانبيْ اللوْح في الفضاء، ثم راح "جوب" يتقدَّم بما يُشبِه القفز فيجعل الصخرة التي نقف فوْقها تهتز بحالةٍ مُزعِجة، وممّا زاد الطين بَلّة أن الضوْء تلاشى فجأة وسادت الظُلمة المكان، وصاح "جوب" بصوْت اليائس:

- آهٍ يا سيّدي .. إن اللوْح كاد يهوى بي.

وأعقبت ذلك جَلَبةٌ شديدة فحسبتُه قد هوى، بيْد أنني لم ألبث أن شعرتُ بيده تقبِض على يدي، فاستجمعت قواي وجذبتُه إلى أعلى حتى استطعتُ أن أرفعه فوْق الصخرة، وأمّا اللوْح فقد سقط في الهوّة وارتطم بصخرةٍ بارزةٍ ثم اختفى، فصحت:

- يا إلهي .. كيف نعود؟

فقال "ليو":

- لستُ أدري .. لنترك الأمر لمسير القدر.

ونادتني "عائشة" وأشارت إليَّ بيدها لأتبعها.

* * *

(30)

نار الحياة

أذعنتُ لأمر "عائشة" واستبد بي الخوْف والقلق .. وألقيْتُ نفسي مُنقاداً فوْق حافّة الصخرة ومددتُ ساقيَّ إلى الخارج فلم تلمسا شيئاً فقلت لاهثاً:

- سأسقط.

فقالت "عائشة":

- اترُك نفسك تهوى ولا تخَف.

ففعلتُ؛ إذ لم يكُن بُدٌّ من أن أفعل، وشعرتُ بنفسي أنزلق فوق صخرة، وبعد هُنيْهة استقرَّتْ قدماي فوق أرضٍ صخريّة، فحمدتُ الله على نجاتي ولحق بي "ليو" بعد لحظات وأعقبه "جوب" فسقط فوقنا وهو يصيح ويصخب.

وأمرتنا "عائشة" بإشعال المصباحيْن، ورأينا على ضوئهما أننا وقوفٌ في غُرفةٍ صخريّةٍ مساحتها نحو عشرة أقدامٍ مُرَبَّعة، وقالت "هي":

- ها قد وصلنا أخيرا بسلام .. ولكن .....

وأشارت إلى "جوب" واستطردت:

- أما وقد أضاع هذا الخنزير اللوْح الخشبي فيجب أن أتدبَّر وسيلةً أُخرى للعوْدة .. والآن: تأمّلوا هذا المكان جيّداً .. وأخبروني ألا يوحي إليكم بشيء؟

فلمّا أجبناها نفياً استطردت:

- هل يدور بخلدك يا "هولي" أن رجلاً اختار هذا الجُحر لسُكناه في غابر الأيّام؟ .. لقد بقي هذا الرجل أعواماً طويلةً داخل هذا الجُحر ولم يكن يُغادِره إلّا مرَّةً كل اثنيْ عشر يوْماً للبحث عن الطعام والماء والزيْت الذي كان الناس يجلبونه بكثرة ويتركونه كقربانٍ عند مدخل الدهليز الذي اجتزناه الآن.

فنظرتُ إليها مُتسائِلاً فاستطردت:

- نعم .. هذا ما حدث .. وكان اسم الرجل "نوت" .. وكان مُلِمّاً بحِكمة أهل "خور" برغم أنه من أبناء الجيل الأخير .. وأمّا عن فلسفته وزُهده وإلمامه بأسرار الطبيعة فحدِّث ولا حرج .. لقد كان هو الذي اكتشف سِر النار التي سترونها الآن .. وهي دم الطبيعة وروحها .. وكل مَن يغتسل بها ويتنفَّس منها يعِش ما دامت الطبيعة باقية .. وكان "نوت" هذا على غرارك يا "هولي" لا يفكِّر في الاستفادة من الإحاطة بأسرار الطبيعة .. وظل لا يُكاشِف أحداً بسِرّه .. وقبع في هذا المكان كأنما أوقف نفسه حارساً على ينبوع الحياة .. فلمّا جئتُ إلى هذه الديار لأوَّل مرَّةٍ سمعتُ بأمر هذا الفيْلسوف الناسِك .. فانتظرتُه حتى خرج كعادته ليأخذ القرابين .. وعُدتُ معه إلى هُنا مُستعينةً بسِحر جمالي ورجاحة عقلي وذلاقة (طلاقة) لِساني .. واستطعتُ أن أُغريه حتى أخذني إلى مكان النار وأفضى إليَّ بأسرارها .. ولكنه لم يحتمل أن يراني بداخلها .. وخشيتُ أن يقتلني لو عصيت أمره فتنحيْتُ .. ولمّا كان الرجل هَرِماً وعلى أبواب الرَدَى (الموْت) فقد آثرتُ أن أنتظر حتى يموت ثم أعود وأدخل النار فأظفر بالحياة الخالدة والجمال الملائكي والمعرفة والحِكمة.

وأطرقتْ "عائشة" هُنيْهةً ثم عادت فاستطردت:

- وحدث بعد ذلك بأيّامٍ قليلةٍ أن التقيْتُ بك أيّها الحبيب وأنت تطوف بهذه البلاد مع "أمنارتس" المصريّة الجميلة .. فأحببتك منذ النظرة الأولى وشغفتني حُبّاً .. فخطبتُ وِدَّك وتقرَّبت إليك حتى استطعتُ أن أحملك على المجيء إلى هذا المكان لننال معا هِبة الحياة .. وقد جاءت معنا تلك المصريّة رغم شِدَّة مُعارَضتي .. ولمّا وصلنا إلى هذا الكهف وجدنا "نوت" الحكيم قد مات منذ قليل .. وكانت جُثَّته مُسجاةً فوق أرض هذه الغُرفة وقد غطَّته لحيته البيْضاء .. وبذلك سهل علينا الوصول إلى "ينبوع الحياة" .. وإذ وقعتْ عيْناي على "عامود النار الأبدي" انتعشتْ نَفسى بأمل الحصول على تاج الحياة الخالدة المجيد .. فخطوْتُ إلى قلب النار .. ولعَمري أراني عاجزةً عن وَصف ما خالجني من الإحساسات في تلك اللحظة الفاصلة .. فقد تدفَّقتْ في جسدي حياةٌ لا تستطيعون تحديدها ما لم تشعروا بها .. وخرجتُ منها كما ترونني الآن بهذا الجمال النادِر وقد كُتِبَ لي الخلود .. وبسطتُ ذراعيَّ إليك يا "كاليكراتس" وناديْتك لتتناول يد خطيبتك الخالدة .. ولكن جمالي بهرك وأعمى عيْنيْك فحوَّلتَ وجهك عني وأخفيْته في صدر "أمنارتس" فجُنَّ جُنوني وطاش صوابي .. وتناولتُ الخِنجَر الذي كنتَ تحمله وطعنتك به .. فتأوَّهتْ المصريّة وسقطت تحت قدميَّ جُثّةً هامدة .. فلمّا ثُبتُ إلى رُشدي قليلاً وأدركتُ فداحة جُرمي بكيْتُ حتى تقرَّحتْ مني الجفون .. وزاد لوْعتي أني سأحيا حياةً أبديّةً بدونك .. وأمّا تلك المصريّة اللعينة فراحت تصُب عليّ لعنات آلهتها "إيزيس" و"أوزوريس" وغيْرهما .. ولكن حُبّنا المُشتَرَك لك حملنا على أن نتغاضى عمّا تُضمِره (تخبِّئه) كلٌّ مِنّا للأُخرى من بغضاءٍ وكراهية .. وحملناك من هذا المكان .. فلمّا واريْناك تحت

التُراب أرسلتُ المصريّة المشئومة بعيداً فاجتازتْ المستنقعات وذهبتْ لشأنها .. ويبدو أنها عاشت وأنجبت طِفلاً .. ثم كتبتْ القِصّة التي قادتك أنت - زوْجها - إليَّ أنا غريمتها .. تلك هي قِصَّتي أيّها الحبيب .. وها قد عُدتَ إليَّ ولم يعُد يُعكِّر صفو سعادتي شيء .. بيْد أنه لن تتم لي هذه السعادة إلّا حين تقول أنك صفحتَ عني وتغاضيْتَ عن زِلَّتي بقتل تلك الفتاة "أوستين" .. وأنك تُحبّني بمجامع قلبك.

وكفَّت "عائشة" عن الكلام، وكانت نغمات صوْتها العذب لا تزال ترن في آذاننا، وشعرتُ بقلبي يدق بعنفٍ وقد أطربته تلك النغمة العذبة أكثر من كلماتها الساحرة، ولم يكن تأثُّر "ليو" من هذه النغمة بأقل من تأثُّري بها بل لعلَّه كان يفوقني إذ سرعان ما رأيْتُه يتقدَّم منها وقد اغرورِقت عيْناه بالدموع، ثم مد يده ورفع النقاب عن وجهها وهتف:

- هأنذا أُلبّي نداء قلبكِ .. وأنا واثقٌ أن حُبّي لكِ ليس بأقل من حُبّكِ لي .. وأُعاهدكِ على أنني سأظل مُقيماً على هذا الحُب حتى النهاية.

فصاحت "عائشةٌ" بزهوٍ وطرب:

- أما وقد نطق سيّدي بهذه الكلمات النبيلة وعفا عني بكرمٍ وشهامةٍ فلن يسعني إلّا أن أقوم من ناحيتي بتقديم ما فُرِضَ عليَّ.

وتناولتْ يده ووضعتها فوق رأسها الجميل وانحنت ببطءٍ حتى لمستْ إحدى رُكبتيْها الأرض، ثم هتفتْ:

- انظروا .. إنني أحني هامتي أمام سيّدي رمزاً لخضوعي .. وأُقسِم على أن أسعى ألى الخيْر وأنتكِب (أرجع عن) طريق الشر حتى في هذه الساعة المُقدَّسة التي أتممتُ فيها أنوثتي.

وتحوَّلتْ إليَّ وقالت:

- ها قد أقسمتُ ولتكُن شاهداً على ما أقول يا "هولي" .. لقد تم زواجنا هُنا يا سيّدي تحت هذا الظلام وستبقى رابطتنا إلى أن ينتهي كل شيء .. والآن لنسطر عهود زواجنا على الرياح الجارية لتحملها إلى السماء وحوْل هذا العالم إلى الأبد .. وكهديّةٍ أُقدِّم إليك تاج جمالي المتلألئ والحياة الخالدة والحكمة اللانهائيّة والثروة التي لا تنفد .. سيجثو عُظماء العالم تحت قدميْك وتَحجِب نساؤه الحِسان أعيُنهن من بهاء جمالك ويذري (ينشر) الفلاسفة بأنفسهم حِكمتك .. وستُطالِع ماسطر فوق قلوب البشر كما تُطالِع كتاباً مفتوحاً، وتقودهم أين تشاء .. وستجلس كـ"أبي الهوْل" في "مصر" مرفوع الرأس من جيلٍ إلى جيل .. وسيضرِعون (يتذلّلون) إليك لتحل لهم لُغز عظمتك التي لا تفني ولكنك ستسخر منهم بصمتك .. أُقبِّلك مرَّةً أخرى .. وبهذه القُبلة أمنحك السيْطرة التامّة على ما يقع تحت حِسّك وبصرك .. والآن قُضيَ الأمر .. ولأجلك أفك قيودي كعذراء .. وأهبك نفسي كزوْجة .. قُضيَ الأمر .. ولم يبقَ إلّا دخولك في "نار الحياة" لتُصبِح خالداً مثلي .. فهلمّوا بنا من هذا المكان لتتم الأمور بترتيبٍ و نظام.

وتناولت "عائشة" أحد المصباحيْن وتقدَّمتنا إلى درجٍ صخري في طرف الغُرفة الآخر، وأخذت تهبط هذا الدرج في خِفّةٍ ورشاقة ونحن نتبعها، فلمّا بلغنا قاعدة الدرج ألفيْناها تنتهي بمنحدرٍ صخريٍ طويل على هيئة قمعٍ مقلوب وكان شديد الانحدار، ولكننا استطعنا هبوطه بسهولةٍ مُستعينين بضوْء المصباحيْن.

سِرنا على هذه الحال مُدّةً لا تقل عن نصف ساعة إلى أن وصلنا إلى رأس القُمع حيث وجدنا دهليزاً ضيّقاً مُنخفِضاً أرغمنا على إحناء

رؤوسنا، بيْد أنه لم يلبث أن اتسع فجأةً بعد مسير خمسين خطوةً تقريباً واستحال إلى كهفٍ فسيح الأرجاء مُترامي الأطراف لم نستطِع رؤية سقفه أو جوانبه.

واصلنا السيْر في هذا الكهف إلى أن بلغنا آخر صغيراً انتهى بنا إلى دهليزٍ ثالثٍ كان ينبعث منه ضوْءٌ ضئيل، فسمعتُ "عائشةً" تتنفَّس الصُعداء عندما أشرق هذا النور من مكانٍ مجهولٍ وقالت:

- هذا حسنٌ .. تهيّأوا لدخول بطن الأرض التي تتدفَّق منها الحياة التي تُنعِش كل ما هو حي .. استعدّوا أيّها الرجال فستولدون من جديد.

وأسرعت في خُطاها، فتبعناها ونحن نتعثَّر وقد امتلأت قلوبنا بمزيجٍ من الدهشة والهلع، وكنا كلّما تقدَّمنا في سيْرنا ازداد انتشار الضوْء شيئاً فشيئاً إلى أن صار يصلنا كبريق منار السُفُن الذي يُرسِل أشعته المُتقطِّعة، ولكن لم يكن ذلك كل شيء، فقد كان يصحب البريق صوْتٌ يُشبِه جلجلة الرعد وتحطيم الأشجار.

وأخيراً اجتزنا الدهليز، فألفيْنا أنفسنا واقفين في كهفٍ طوله نحو خمسين قدماً وارتفاعه كذلك وأمّا عرضه فحوالي الثلاثين، وكانت أرضه مُغطّاةً بطبقةٍ من الرمال البيْضاء، وجُدرانه ملساء بفِعْل النار أو الماء، ولم يكن هذا الكهف مُظلِماً كغيره لأن ضوْءاً ورديّاً كان يشع فيه ويملأ رحابه.

لم نرَ مصدر الضوْء أو نسمع الصوْت الذي يُشبِه الرعد، بيْد أننا لم نلبث أن رأينا في آخر الكهف عاموداً من النار قد امتد فجأةً بصوْتٍ ارتعدت له فرائصنا وجعل "جوب" يسقُط من هوْله فوْق الأرض خوْفاً وهلعاً، وكان العامود خليطاً من الألوان كقوْس قزح.

وقد ظلَّ يلتهب ويدوي نحو برهةٍ وهو يدور ببطءٍ حوْل نفسه إلى أن تلاشي الصوْت المُفزِع تدريجيّاً واختفت معه النار في مكانٍ مجهولٍ بعد أن خلَّفت وراءها ذلك الضوْء الوردي البديع الذي رأيناه أوّلاً.

هتفت "عائشة" بأعلى صوْتها:

- تقدَّموا .. تقدَّموا .. انظروا إلى ينبوع الحياة وقلبها وهو يدق في صدر العالم الفسيح .. انظروا المادّة التي يستمد منها كل حيٍ نشاطه .. انظروا إلى روح الأرض التي لوْلاها لماتت كالقمر .. تقدَّموا واغتسِلوا في هذه النار الحيّة وضعوا جوْهرها في أجسامكم التَعِسة.

فتبعنا "عائشة" واجتزنا الضوْء الوردي إلى رأس الكهف، ووقفنا أمام البُقعة التي يمر منها اللهب العظيم، وبينا نحن نسير إذ شعرنا بابتهاجٍ شديدٍ غريبٍ يغمُرنا من جرّاء تيّار الحياة القوي ، ومع أنه لم يتسرَّب إلى أجسامنا غير هَبّةٍ خفيفةٍ منه فقد أحسسنا بقوّة المردة (جمع مارد) تدُب فينا.

بلغنا رأس الكهف، ونظر كلٌ منا إلى وجه الآخر وأخذنا نضحك طرباً وسروراً، وخدرت عقولنا فشعرتُ بحِكمة العالَم كلّه تتدفَّق إلى رأسي، وخُيِّل إليَّ كأن روحي انطلقت من محبَسها وأخذتْ تُحلِّق في سماءٍ كلها مرحٍ وبهجة، وبينا كنت استمتِع بهذا السرور الغريب إذ أقبل من بعيدٍ ذلك الصوْت المدوّي المُخيف حتى صار دويّاً وزئيراً مُرعِباً، وأخذ يزداد قوّةً ثم داهمنا الصوْت كجلجلة الرعد حتى توقَّف على مقرُبةٍ مِنّا وقد صحبه ضوْءٌ وهّاجٌ مُختلِف الألوان يخطف الأبصار، وأخذ يدور حوْل نفسه ببطء، ولم يلبث أن تلاشى مع أصوات الجلبة ثم اختفى.

وكان المنظر غريباً رائعاً فلم نتمالك أن سقطنا فوق الرمال، بينما ظلَّت "عائشة" واقفةً وقد مدَّت ذراعيْها نحو اللهب.

وعندما تلاشت النار قالت "عائشة":

- يا "كاليكر اتس": لقد حانت لحظة اغتسالك في النـار العظيمـة ولكنها لن تمس جسدك بسوء .. فاخلع ثيابك لأن النار لا تُبقي عليها .. ثم تهيّأ لدخول النار عند مجيئها مرَّةً أُخرى وابقَ بداخلها بقدر ما تستطيع أن تتحمَّله حواسك .. دعها تتخلَّل جسدك وتنفذ إلى أعماقك كيلا تُحرَم شيئاً من قوّتها .. هل سمعت؟

- نعم .. سمعت يا "عائشة" .. لست بالجبان ولكنني شديد الريْبة في هذه النار المُحرِقة .. إذ كيف أستطيع أن أثق بأنها لن تقضي عليَّ .. مهما يكُن .. سأفعل طوْع إرادتك.

فأطرقت "عائشة" هُنيْهةً ثم قالت:

- لا عجب إذا ساورتك الشكوك .. حسنا .. هل تأتى يا "كاليكراتس" إذا رأيْتني وسط النار دون أن ينالنى أذى؟

- بالتأكيد .. ولو كان في ذلك حتفي؟

فصحتُ بدوْري:

- وأنا أيضاً.

فضحكت "عائشة" وقالت:

- ماذا تقول يا "هولي"؟ .. كنت أحسب أنه لا حاجة بك لطول البقاء .. فكيف تقول ذلك؟

فأجبتُ بلهجةٍ جديّة:

- لستُ أدري .. ولكني أحس برغبةٍ في تذوُّق طعم هذه النار كي أعيش.

فقـالت بطـرب:

- على رَسلك .. سأغتسل مرَّةً أُخرى في هذا الينبوع الحي كي يزيد جمالي فِتنـةً وعمري طولاً .. والآن تأهَّبوا يا هؤلاء .. إستعِدّوا كما لوْ كانت ساعتكم الأخيرة قد حانت وأنكم على وشك اجتياز قنطرة الموْت إلى أرض الظلام ولستم على أبواب المجد لتدخلوا حديقة الحيـاة الخالدة .. تأهَّب يا "كاليكراتس".

* * *

(31)

"عائشة" في النار

أعقب ذلك سكونٌ طال لبِضع دقائقٍ كانت "عائشةٌ" خلالها تستجمع قواها لتتحمَّل هذه التَجرُبة القاسية، بيْنا تعلَّق كلٌ منا بالآخر وانتظرنا وكأن على رؤوسنا الطيْر.

وأخيراً صَكَّ مسامعنا صوْتٌ ضئيلُ آتٍ من بعيد، وأخذ هذا الصوْت يزداد قوّةً إلى أن استحال دويّاً وزئيراً فأسرعتْ "عائشة" وخلعت إزارها ثم فكَّتْ الحيّة الذهبيّة و هزَّتْ شعرها الجميل فانسدل حوْل جسدها كالرداء السابغ، وعندئذٍ ألقت عنها رداءها الأبيض وتمنطقت بالحيّة الذهبيّة ثانيةً حوْل شعرها المُرسل.

أخذ صوْت النار يقترب رويْداً رويْداً، وبيْنا كان يدوّي أخرجت "عائشة" ذراعها العاجيّة من تحت شعرها الأسود وأحاطت به عُنُق "ليو"، وتمتمت:

- آهٍ أيّها الحبيب .. ليْتك تعرف مبلغ حُبّي لك وتعلُّقي بك.

ثم قبَّلته فوْق جبينه وتقدَّمتْ ووقفتْ في طريق "نار الحياة"، واقتربت أصوات الزئير والدوي، ثم ظهر البريق الذي يتقدَّم عامود اللهب الدائر، وأخذ يتطاير كالسهام وسط الجوْ الوردي، ثم لم تمضِ هُنيْهةً حتى برز العامود نفسه.

وتحوَّلتْ "عائشة" نحو اللهب، وبسطتْ ذراعيْها لتحيّته وهو يتقدَّم نحوها ببطءٍ إلى أن التف حوْلها، وقد أبصرتُها وهي ترفع النار بكِلتا

يديْها كالماء وتُلقيها فوْق رأسها، ثم فتحتْ فمها ودفعتْها إلى رئتيْها فكان المنظر غريباً مُروِعاً.

لزمتْ "عائشة" السكون بعد ذلك ثم بسطت ذراعيْها ووقفتْ ساكنةً وقد ارتسمت على فمها ابتسامةٌ ساحرة، ولكن وا أسفاه؛ فسرعان ما تبدَّلت ملامحها تبديلاً فُجائيّاً يستحيل عليَّ وصفه أو تحليله، فقد تلاشت تلك الابتسامة العذبة الرقيقة، واستحالت إلى نظرةٍ جافّةٍ جامدة، وخُيِّل إليَّ أن الوجه الجميــل قد تقلَّص وارتسمت عليه أمارات القلق الشديد، وفقدت العيْنان الساحرتان بهاءهما كمـا فقد قوامها الممشوق اعتداله.

مررتُ بيدي فوْق عيْني زعماً مني أنني تأثَّرتُ بعاملٍ مجهول أو أن شِدَّة الضوْء المتألِّق بهرت عيْنى، وبينما أنا غارقٌ في دهشتي إذ التفَّ عامود اللهب وأخذ يدوي ويتحرَّك نحو بطن الأرض، وخلَّف "عائشة" واقفةً في مكانها، وتقدَّمت "عائشة" من "ليو" ومدَّت يدها لتضعها فوق منكبه، ونظرتُ إلى ذراعها ويا لهوْل ما رأيْت، لقد فقدتْ تلك الذراع العاجيّة الملفوفة روْنقها وجمالها، واستحالت ذراعاً رفيعةً مُقوَّسة، أمّا وجهها فقد تجسَّمتْ فوْقه علامات الشيْخوخة الرهيبة، وحتى "ليو" قد لاحظ ذلك فتراجع إلى الوراء مُترنِّحاً، وقالت "عائشة" بصوْتٍ مُضطَّرب:

- ماذا دهاني يا "كاليكراتس"؟! .. ماذا دهاني؟! .. إني أشعر بدوارٍ في رأسي وتكاد عيْناي لا تُبصِران .. إن ماهيّة النار لم تتغيَّر بلا مِراء .. هل يُمكِن أن يتغيَّر مبدأ الحيــاة؟ .. أخبرنى يا "كاليكراتس": هل ذهب بصري؟

ثم وضعتْ يدها فوْق رأسها ولامستْ شعرها فسقط كُلّه إلى الأرض دفعةً واحدة، وصرخ "جوب" بصوْتٍ رهيب:

- انظُرا .. انظرا .. انظرا .. إن جسمها يتضاءل!! .. إنها تتحوَّل إلى قرد.

ثم سقط على الأرض فاقد الرُشد، وقد أصاب "جوب" بالفعل إذ أخذ جسمها ينكمش ويتجمَّد، فأنزلقت الحيّة الذهبيّة إلى الأرض وظلَّ جسمها يضمر ويضمر، ويتغيَّر لوْن بشرتها حتى استحال أصفر داكِناً فكان أشبه شيءٍ برَّقٍ (جلدٍ رقيق) جافٍّ من الجلد.

ورفعتْ "عائشة" يدها إلى رأسها فرأيْتُ أن تلك اليد البَضّة الرقيقة قد تحوَّلتْ إلى مخلبٍ يُشبه يد مومياءٍ مِصريّة، ويبدو أنها أدركت ما أصابها فصرخت صرخةً داوية وأخذتْ تتمرَّغ فوْق الأرض، ومازالت تنكمش حتى صارت في حجم القِرد حقّاً وتجعَّدت بشرتها، وارتسمت على وجهها خطوط الشيْخوخة الرهيبة.

وأخيراً هَوَتْ "عائشة" على الأرض ساكنة، "عائشة" - التي كانت منذ بُرهةٍ وجيزةٍ أجمل امرأةٍ على ظهر الأرض - هَوَتْ أمامنا بقُرب كوْمة شعرها الأسود، وأخذتْ تُعانى سكرات الموْت، ثم رفعتْ جسمها على يديْها بصعوبةٍ وارتعاش وراحت تدور بعيْنيْها فيما حولها دون أن ترى شيئاً، وأخذت تُقلِّب رأسها ببطءٍ من ناحيةٍ إلى أُخرى وغمغمت في صوْتٍ مُضطرب:

- "كاليكراتس" .. لا تنسَني يا "كاليكراتس" .. إرثَ لعاري .. إنني لن أموت .. سأعود مرّةً أُخرى إلى الحياة .. سأرتدي ثوْب الجمال من جديد .. أُقسِم على ذلك .. إنني لا أكذب .. آه .. آه .. آه.

ثم انكفأتْ على وجهها وأسلمت الروح.

وهكذا سقطتْ "عائشة" وماتت في ذات البُقعة التي قتلت فيها "كاليكراتس" الكاهن المصرى منذ أكثر من ألفيْ عام.

أمّا نحن فلم نحتمل شهود هذا المنظر المُخيف فسقطنا فوق الأرض مُغمى علينا.

* * *

(32)

قفزةٌ من أجل الحياة

لستُ أدري كم بقينا على هذه الحال، ولو أني أظن أننا مكثنا ساعاتٍ طويلة، وعندما عدتُ إلى رُشدي ألفيْتُ "جوب" و"ليو" لا يزالان غائبيْن عن الوعي.

وكان الضوْء الوردي لا يزال يُضيء كالفجر وصوْت "ينبوع الحياة" لا يزال يدوّي كما كان .. ووقع بصري على ذلك الجسم المُفزِع المُنكمِش المغشي بجلدٍ أصفر مجعَّدٍ كالرَّق، وهو نفس الجسم الذي كان منذ ساعاتٍ قليلةٍ جسم "هي" الرائع.

تُرى؛ ماذا حدث حتى وقع هذا التطوُّر المُخيف؟!، هل تغيَّرت طبيعة النار فأصبحت تُنذِر بالفَناء بدلاً من أن تمنح الحياة؟!، أو هل لا يستطيع الإنسان أن يتحمَّل تأثيرها مرَّتيْن؟

إن هذا التفسير الأخير هو التعليل الوحيد المعقول لهذا التغيير الفُجائي المُخيف الذي أصاب "عائشة" فقضى عليها بعد أن عاشت أكثر من ألفيْ عام.

ولكن هل هُناك مَن يستطيع أن يقول ماذا حدث؟، إن الحقيقة موجودةٌ وهي أن يد الله تدخَّلت في الأمر، ربما لأن "عائشةٌ" لم تُحدِث تأثيراً يُذكَر في نظام العالم وهي قابعةٌ في مقصورتها المُنعزِلة في كهوف "خور" تنتظر من جيلٍ إلى آخر مجيء حبيبها، ولكن كان من المحتمل أن تُثير "عائشة" - وهي في أوْج جمالها وعنفوان قوّتها - الفِتَن في

المجتمع الإنساني فتُغيِّر مصائر الشعوب، لقد سخرت "عائشة" من القانون الأبدي ولكنه اكتسحها في النهاية برغم سطوتها وجبروتها.

أدركتُ أنه من العبث أن أتمادى في التفكير ورفيقاي غائبان عن الوعي، فنهضتُ وأنا أترنَّح، وغطيْتُ الجُثّة المُخيفة بذلك الإزار الأبيض الذي كانت ترتديه "هي" وهي في عُنفوان مجدها وبهائها، ثم تقدَّمتُ من "جوب" - وكان مُنبطِحاً على وجهه - وقلبته إلى جانبه، بيْد أنني حين رفعتُ ذراعه سقطتْ من يدي كقطعةٍ من الخشب فاقشعرَّ جسمي، وتفرَّستُ في وجهه وعندئذٍ أدركتُ كل شيء، كان "جوب" قد فارق الحياة ولا ريْب أن أعصابه لم تحتمل تلك الصدمات المتتالية التي تعرَّضنا لها في الفترة الاخيرة، ثم جاء الحادث الأخير - مصرع "هي" - فقضى عليه من فرط الذُعر، أو بسبب نوْبةٍ قلبيّةٍ مُفاجِئةٍ نتجت عن الحادِث نفسه.

و تركتُ "جوب" التَعِس وأوْليتُ عنايتي "ليو"، فاستطعتُ أن أُعيده إلى رُشده بعد نحو عشر دقائق، وإذ أخبرته بموْت "جوب" تأوَّه من قلبٍ مكلوم وسكت، وكانت آهته أبلغ من مُجلَّداتٍ في التعبير عن الأسى لفَقْد هذا الخادم الأمين المُخلِص.

وقد حانت مني التفاتةً إلى شعر "ليو" وشدَّ ما كان ذهولي ودهشتي حين رأيْتُ ذلك الشَعر الذهبي الجميل وقد استحال إلى شَعرٍ أشيب له لوْن الثلج، وسأل "ليو" بصوْتٍ خافت:

- ماذا سنفعل الآن أيُّها الصديق؟

فأجبتُ بحزن:

- أُظن أن علينا أن نحاول الخروج من هـذا المكان .. اللهم إلّا إذا كنتَ تريد الذهاب إليه.

وأشرتُ إلى عامود "نار الحياة" الذي كان مُقبِلاً في تلك اللحظة، فابتسم "ليو" وقـال:

- بودّي ذلك لو كنتُ مُتيَقِّناً من أنه سيقضي عليَّ .. إن تردُّدي المَشئوم هو الذي أدّى إلى كل ذلك .. إذ لوْلا ريْبتي لما حاولتْ "هي" أن تُرشِدني إلى الطريق .. بيْد أنني لستُ واثقاً من أنه ليس للنار تأثيرٌ مضـادٌّ فتجعلني أبديا وهو ما لا أبغيه أو أريده .. فأنا أُفضِّل الموْت متى حانت منيّتي لأنطلِق باحثاً عنها بدل انتظارها آلاف الأعوام .. جَرِّب أنت إذا شِئت.

فهززتُ رأسي استياءً .. وقد امتعضتْ نفسي من فكرة طول العُمر، وأخيراً قُلت:

- خيْرٌ لنا أن نُعجِّل بالذهاب خشية أن يعدو علينا عادي الردى (هلاك الموْت) كما عدا على هاتيْن الجُثّتيْن.

وملأتُ المصباحيْن زيْتاً، ثم أشعلتهما بعودٍ مـن الثقاب كان معي، وتحوَّلتُ إلى "ليو" أدعوه للرحيل، وتناول كِلانا يد "جوب" وهزَّها كوداعٍ أخير، ولكننا لم نستطِع رفع الغطاء عن جُثّة "عائشة"، فقد زهدت نفوسنا شهود ذلك المنظر الرهيب مرَّةً أُخرى، بيْد أننا لم نشَأ الرحيل دون أن نتزوَّد من تلك المرأة بما يُذَكِّرنا بها فأخذ كلٌ مِنّا خُصلةً من شَعرها، ووضع "ليو" خُصلة الشَعر المُعطَّرة على شفتيْه، وقال بصوْتٍ أجش:

- لقد نادتني ألّا أنساها .. وأقسمتُ أننا سنلتقي مرَّةً أُخرى .. فبحق السماء لن أنساكِ يا "عائشة" .. أُقسِم أن أظل وفيّاً على العهد فلا أصغى إلى صوْت امرأةٍ غيركِ ألى يوْم نلتقى.

وعلى أثر ذلك غادرنا الكهف.

اجتزنا الكهوف الأولى بسهولة، ولكننا لم نكَد نصل إلى منحدر القُمع الصخري حتى واجهتنا عقبتان: الأولى صعوبة التسلُّق والثانية جهلنا بالطريق، وأمّا العقبة الأولى فقد ذللناها بقوّة الإرادة والصبر، وأمّا الثانية فكادت توردنا موارد التهلُكة ولوْلا ما انطبع في ذهني من رسم الطريق لفقدنا أنفسنا وسط هذه الكهوف والدهاليز المُتشعِّبة، وقد حدث أن رُحنا نضرب في هذه الكهوف نحو أربع ساعاتٍ حتى خُيِّل إليَّ أننا ضللنا الطريق، وبينا أنا غارِقٌ في هواجسي إذ رأيْتُ صخرةً هائلةً كنتُ قد رأيْتُها بعد هبوطنا من وكر الناسك "نوت" بمُدّةٍ وجيزة، ولم أفطن إليها إلّا بعد أن تجاوزنا الطريق الصحيحة وبدأنا نسير في طريقٍ أُخرى.

عُدتُ أدراجي إلى الصخرة وفحصتها على ضوْء المصباح، وكانت التفاتتي العارضة إليها سبباً في نجاتنا، فتسلَّقنا الدرج الطبيعي دون كبير عناء، وبعد هُنيْهةٍ ألفيْنا أنفسنا في غُرفة الفيلسوف "نوت"، بيْد أنه اعترضتنا عقبةٌ أُخرى كؤود، وتِلك هي: كيْف نجتاز الهوّة بعد أن أضاع "جوب" اللوْح الخشبي الذي عبرنا فوْقه عند المجيء؟، ولم نجد غيْر حلَّيْن لذلك الموْقِف الدقيق: أوّلهما أن نجتاز الهوّة قفزاً وثانيهما أن نبقى حيث نحن حتى نهلك.

ومع أننا كنا واثقيْن من قوّتنا على تخطِّي المسافة قفزاً إلا أننا كنا في حالةٍ سيّئةٍ من الإعياء والتعب بحيث لا تخلو المُجازَفة من خطرٍ عظيم.

وقد استقر رأينا على الأخذ بثاني الرأيين، ولكننا رأيْنا الانتظار حتى يُضيء شُعاع الشمس الذي يخترق أحشاء الظُلمة عند الغروب بالرغم من أننا كُنّا نجهل متى يصل لنا هذا الشُعاع؟

وعلى الأثر غادرنا الغُرفة وأخذنا نزحف ببطءٍ وحذر حتى بلغنا الصخرة الكُبرى، وعندند انطفأ نور المصباحيْن؛ ومضت الساعات تِباعاً ونحن قابعان في مكاننا وقد غمر الحُزن قلبيْنا، ودفعنا الخوْف إلى التشبُّث بالصخرة كما يتشبَّث الغرقى بحُطام السفينة.

وفيما كنا مُمدَّين فوْق الصخرة - نصغى إلى دوي الرياح وزئيرها - إذ وقع حادثٌ غريبٌ ذو مغزى، ذلك أن الإزار - الذي كانت الرياح قد انتزعته من فوْق كتفيْ "عائشة" وحملته معها في الظلام وغطَّيْتُ أنا جُثّتها به – قد سقط في تلك اللحظة فوْق "ليو" حتى غطّاه تقريباً من الرأس إلى القدم، لم يُدرِك أحدنا ماهيّته في البداية، بيْد أننا سُرعان ما عرفناه من نسيجه، وكان ذلك باعِثاً لـ"ليو" على الاستسلام للحُزن لأوّل مرّة إذ سمعته يبكي وهو مُعلَّقٌ بيْن السماء والأرض، ولا ريْب في أن الإزار قد تعلَّق بإحدى الصخور البارزة ثم حملته الريح مصادفةً حتى استقر فوق "ليو".

ولم يُنقِذنا من ذلك الموْت الرهيب غير ظهور الضوْء فجأة فغمر الصخرة التي كنا فوقها وانعكس على النتوء المُقابِل لها، فهتف "ليو":

- لقد حان وقت العمل.

فقلت:

- مَن مِنّا سيذهب أوّلاً؟

فأجابني "ليو":

- اقفِز أنت أوّلاً أيُّها الصديق .. وسأجلس على طرف الصخرة من الناحية الأُخرى كي أُثبِّتها في مكانها .. اركض بكل قوَّتك ثم اقفز وليساعدنا الله.

* * *

(33)

رحلة العوْدة

أذعنتُ لرأي "ليو"، ولكني قبل أن أقفز تحوَّلتُ نحوه وطوَّقتُ عُنقه بذراعي وقبَّلته فوْق جبينه، وقلت:

- الوداع يا بني .. أرجو أن ألقاك حيثما شاءت لنا الأقدار أن نلتقي.

ثم تراجعتُ إلى طرف الصخرة وانتظرتُ ريْثما هبَّت ريحٌ قويّةٌ فعدوْتُ بكل قوَّتي ثم وثبتُ في الهواء، ولكنني لم أصل إلى الهدف فقد زلَّت قدماي وكِدتُ أهوى من حالقٍ (مكانٍ مرتفعٍ للغاية) لوْلا أن تعلَّقتُ بإحدى يديَّ في طرف النتوء الصخري وتشبَّثتُ به، ولكن اتُفِقَ أن انزلقتْ يدي الأُخرى فدار جسمي حوْل نفسه نصف دوْرةٍ بحيْث صار وجهي مُتَّجِهاً نحو الصخرة التي قفزتُ منها وتركتُ فيها "ليو".

وهكذا بقيتُ مُعلَّقا بكرةٍ صخريّةٍ بارزةٍ تحت النتوء مباشرةً وفوْق تلك الهاوية السحيقة، وبدأ ضوْء الشمس الأحمر يخفت ويتضائل فحاولت أن أنتشل نفسي وأتعلَّق بكِلتا يديَّ في الصخرة وأرفع جسدي إلى ما فوْقها، ولكن الموْضع الذي كنتُ فيه لم يُساعِدني على تحقيق هذه المحاولة اليائسة.

آه .. ما أشد الرُعب الذي تملَّكني في تلك اللحظات الرهيبة، فقد كنت أرى الموْت في ذلك الموْقف الشاذ رأي العيْن، موْتاً مُروِّعاً لا يفصلني عنه إلّا أن تتلاشى قوَّة ذراعي التي أتشبَّث بها والتي بدأت تكل تدريجيّاً بسبب ثقل جسمي، وتسرَّب اليأس إلى نفسي وبدأتُ أرتجف.

وفي تلك اللحظة الدقيقة الفاصِلة سمعتُ "ليو" يصرخ، ثم لم ألبث أن رأيْته يقفز كالنمر تحت تأثير خوْفه وقنوطه فنجح في الوصول إلى النتوء، ثم انبطح على وجهه فوْق هذا النتوء ليتحاشى الانزلاق والتعثُّر، وعندئذٍ اهتز النتوء تحت تأثير ثقله، وفيما كان ذلك يحدث إذ رأيْت الصخرة التي قفزنا منها وقد اهتزَّت بعنفٍ ثم تدحرجتْ إلى الوراء حيث فقدت توازنها لأوَّل مرّةٍ في تاريخ الكهف وسقطت بسرعة، وكان لسقوطها دويٌّ هائل، واستقرَّتْ في الغُرفة الصخريّة التي كان يعيش فيها الفيْلسوف "نوت".

وهكذا سُدَّ الطريق الذي كان يؤدّي إلى "ينبوع الحياة" إلى الأبد، وقد حدث كل ذلك في طرفة عيْن، ومن الغريب حقّاً أنني لاحظتُ ما جرى برغم حرج موْقفي.

وفي تلك اللحظة شعرتُ بـ"ليو" وقد قبض بكِلتا يديْه على مِعصمي، ثم قال بصوْتٍ رزينٍ هادىء:

- دَع نفسك يا "هولي" .. وسأبذل قصارى جهدي لإنقاذك وإلّا سقطنا معاً .. هل أنت مُستعِد؟

فلم أُجِب ولكني رفعتُ يدي اليُمني ثم اليُسرى وتعلَّقتُ بذراعيْ "ليو" القويتيْن، وجذبني الشاب بكل قوَّته ورفعني كطفلٍ صغيرٍ إلى أن تعلَّقتُ بذراعي اليسرى حول النتوء واستطعتُ أن أرفع نفسي وأستقر فوْقه بعد ذلك بسهولة.

تمدَّدنا فوق النتوء والعرق البارد يقطر من جبينيْنا، وظلَّ جسدانا ينتفضان من هوْل ما لقينا إلى أن اختفي الضوْء وساد الظلام مرّةً أُخرى فمكثنا على هذه الحال نحو نصف ساعة، ثم شرعنا نزحف فوق النتوء

وسط الظُلمة الحالِكة حتى اقتربنا من الأكَمة التي يبرُز منها حيث طالعنا نورٌ ضئيل إذ كان الليْل قد اقترب.

خفَّت حِدّة الرياح بعد ذلك فأسرعنا بقدر ما سمحت قوانا الخائِرة حتى بلغنا مدخل الكهف الأوّل أو النفق، ومن ثَمَّ اعترضتنا عقبةٌ جديدةٌ وهي مشكلة الظلام، ولمّا كنا نعلم أن البقاء في هذا المكان معناه الموْت المحتوم من الظمأ والبرد فقد آثرنا مواصلة السيْر مُعتمِدين على حاسّة اللمس.

وكم كانت تلك المتاعب التي لاقيْناها في الدهليز الأخير، كان هذا الدهليز حافلاً بالصخور، ففي كل خطوةٍ كنا نصطدم بها ونسقط فوْقها حتى سالت الدماء من معظم أجزاء جسديْنا، ولكن ذلك لم يفِت في عضدنا ولم يقعد بنا عن مواصلة الزحف ساعةً بعد أُخرى حتى أحسسنا بما يُشبِه الشَلل وغلب علينا النعاس فنِمنا حيث نحن، ولابد أن نكون قد قضيْنا مُدّةً طويلةً مُستغرقيْن في النوْم فقد كانت أعضاؤنا مُتصلِّبةً عندما استيْقظنا وتجمَّد الدم الذي سال من جروحنا.

واستأنفنا السيْر، فلمّا بدأ اليأس يستوْلي علينا لطول الشُقّة (المسير لمسافةٍ بعيدة) بزغ نور الفجر فألفيْنا أنفسنا خارج الدهليز من الطريق الضيِّق الذي ينحدر إليه من سطح الأكَمة الخارجي.

وقد كان لخروجنا في ضوْء النهار والهواء المُنعِش الذي لفح وجهيْنا أثرٌ فعّالٌ في تجديد بعض قوانا وانتعاش آمالنا، وعلَّلنا نفسيْنا بقُرب النجاة.

قُلتُ لاهثاً:

- لم يبقَ أمامنا غير خطواتٍ قليلةٍ لنصل إلى "بلال" إذا كان لا يزال في مكانه مع أتباعه .. فهَلُمَّ يا "ليو" واستجمِع قواك.

فأطاع وتوكَّأ كُلٌ مِنّا على ذراع صاحبه، ثم هبطنا الأكَمة ونحن نجر سيقاننا جرّاً حتى إذا بلغنا قاعدتها تهالكنا فوق الأرض من فرط الأعياء، وأخذنا نزحف نحو التل الذي ينتظرنا "بلال" فيه، ولم نكد نقطع نحو أربعين خطوةً حتى خَفَّ إلينـا أحد الخدم البُكم وأخذ يُطيل النظر إلى وجهيْنا في دهشةٍ وعجب، ثم رفع يديْه خوْفا ورُعباً وأطلق ساقيْه للريح حتى بلغ البُقعة التي ينتظر فيها رفاقه، وليس ثَـمّة ما يدعو إلى العجب لتصرُّف الرجل فلا ريْب أن منظرنا المُخيف قد هاله وأرسل الذُعر في قلبه، فقد ابيضَّ شَعر "ليو" الذهبي وتمزَّقت ثيابه وسالت الدماء من يديْه وانعكست على صفحة وجهه الجميل دلائل الإعياء المُضني وهو يجر نفسه فوق الأرض جَرّاً، وأمّا أنا فكنتُ أسوأ منه حالاً وقد زادت الأهوال التي لاقيْناها في دمامة وجهي حتى صار مُخيفاً، والعجيب في أمرنا بعد ما أصابنا أننا لم نفقد سلامة التفكير وخرجنا من هذه الأهوال بذهنيْن حاضريْن.

وبعد هُنيْهةٍ أقبل الشيخ "بلال" نحونا مُسرِعاً وصاح:

- أيُّها البابون! .. أيُّها البابون! .. آهٍ يا بُنيَّ العزيز! .. أهذا أنت؟!

واتَّسعتْ حدقتاه فجأة وصاح دَهِشاً:

- لماذا ابيضَّ شَعر الأسد (يقصد "ليو") كالثلج بعد أن كان كلوْن الحِنطة؟!! .. من أيْن جئتمـا؟! .. أيْن الخنزير (يقصد "جوب")؟! .. وأيْن "هي" التي يجب أن تُطاع؟!

فأجبته بصوْتٍ خافت:

- ماتا .. لقد ماتا .. لا تُكثِر من السؤال .. أسعِفنا أوّلاً بالماء والطعام .. إننا نكاد أن نموت جوعاً وعطشاً.

فقال الشيْخ وهو يشهق:

- ماتا؟!! .. هذا مستحيل .. كيف تموت "هي" التي لا تعرف الموْت؟!!

وقد لاحظ الشيخ "بلال" أن أتباعه البُكم قد تكأكأوا (تجمَّعوا وازدحموا) من حوْلنا وراحوا يرقبوننا باهتمام فلاذ بالصمت، ثم أشار إليهم أن يحملونا إلى الخيام ففعلوا.

واتُفِقَ أن كان الرجال يُهيِّئون طعاماً فحمل إلينا "بلال" منه ما سدَّ أرماقنا وأشبع بطوننا، وحينئذٍ أمر "بلال" رجاله أن يُزيلوا الأقذار والأتربة التي علقت بنا والدماء التي سالت مِنّا، ومن ثَمَّ تمدَّدنا فوق الحشائش الخضراء واستسلمنا لذلك النوْم العميق الذي يتلو إجهاد الجسم والعقل معاً.

* * *

(34)

الخاتمة

عندما أفقتُ من نوْمي رأيْتُ صديقنا "بلالاً" جالساً، وكان يتخلَّل لحيته بأصابعه وهو مُستغرِقٌ في التأمُّل والتفكير، وتدافعت ذكرى الأهوال التي لاقيْناها إلى رأسي فانتفضت ثم تأوَّهت، وحانت مني التفاتةٌ إلى "ليو" وهو يغط في نوْمه على مقربة، فتملَّكني الأسى لما أصاب ذلك الشاب من صدماتٍ أحالته رجلاً غير الرجل.

أغمضتُ عيْني ثانيةً وزفرتُ زفرةً حارّةً من قلبٍ مكلوم، فنظر إليَّ الشيخ "بلال" وقال:

- لقد نِمتَ وقتاً طويلاً أيُّها البابون.

فقلت:

- كم ساعةً نمتُ يا أبي؟

- دوْرةً من الشمس ودوْرةً من القمر .. أي يوْماً وليلة .. انظر إلى الأسد .. إنه لا يزال نائماً.

- إن النوْم نعمةٌ يا أبي لأنه يُنسي الإنسان الذكريات المؤلمة.

- حدِّثني بما أصابكم .. وما هذه القصة الغريبة عن موْت "هي" التي لا تعرف الموت؟! .. ثِق يا بُنيَّ أنه إذا كانت هذه القِصّة حقيقيّة فإن الخطر المُحدِق بكما هائلٌ جدّاً .. فإن أمّة "حجر" تبغضكما بُغضاً شديداً لأنكما غريبان أوّلاً ولأنكما كنتما السبب في قتل بعض رجال عشيرتهم .. ولو علموا بأن "هي" - التي يجب أن تُطاع - قد ماتت ولم يعد لها عليهم

سلطانٌ لقتلوكما بوضع القِدر المحماة فوق رأسيْكما .. ولكن قُص عليَّ قصّتك أوّلاً أيها البابون المسكين.

فأخذتُ أقص عليه القصّة ولكني لم أُكاشِفه بكل شيء وإنما صارحته بما رأيته مُلائِماً لموْقفنا، وقلت أن "هي" سقطت في جوْف البركان واحترقت إذ كنت أعلم أنه لن يُؤمِن بحقيقة ما حدث لو ذكرته له، وأطلعته على طرفٍ من الأهوال التي لاقيْناها والمخاطر التي تعرَّضنا لها، فبدا على وجهه أنه تأثَّر لآلامنا ولكنني أيقنتُ أنه لم يعتقد بصِحّة ما ذكرتُه عن مصرع "عائشة" إذ كان واثقاً بأنها خدعتنا لرغبتها في الاحتجاب مُدَّةً من الوقت، وقد عزَّز قوْله هذا بأن "هي" اختفت مرَّةً في عهد أبيه اثنتيْ عشرة سنة وأنه حدث أيضاً منذ أجيالٍ عديدةٍ أنها اختفت قرناً كاملاً ثم عادت فظهرت فجأةً وقضت على امرأةٍ جعلت من نفسها ملكةً مكانها.

ولم أشَأ مُعارضة "بلالٍ" فيما قال، وهززتُ رأسي حُزناً إذ كنتُ واثِقاً من أن "هي" لن تعود ثانيةً أو على الأقل لن يراها "بلال" مرَّةً أُخرى أو ومن المُحتَمَل أن نجدها في مكانٍ آخر، بل أني أشعُر شعوراً قويّاً بأننا سنجدها ولكن في غير هذا المكان، وأخيراً سألني "بلال":

- وماذا ستفعل الآن أيّها البابون؟

فأجبته:

- لستُ أدري يا أبي .. ألا نستطيع النجاة ممّا ينتظرنا في هذه البلاد؟

فهزَّ الرجل رأسه نفياً وأجاب:

- هذا من الصعوبة بمكان .. إنكما لا تستطيعان اجتياز "خور" والخروج منها دون أن يروكما .. وأذا رأوكما فلن تستطيع قوّةٌ أن .....

وابتسم ابتسامةً ذات مغزى ورفع رأسه في حركةٍ عنيفةٍ ثم استطرد:

- لكن هناك طريقاً آخر فوق الأكَمة التي ذكرتُها لك في سياق حديثنا عند مجيئنا إلى "خور" عندما قلت لك أنهم يسوقون منها الأغنام إلى المراعي .. فوراء تلك المراعي توجد مستنقعاتٌ يجتازها الإنسان في ثلاثة أيّام .. ولكني لا أعرف ما وراءها .. ولو أنني سمعتُ أنه يوجد نهرٌ عظيمٌ يصُب في الماء الأسود (يقصد البحر المحيط) بعد مسيرة سبعة أيّامٍ من هذه المستنقعات .. فاذا استطعتما بلوغ شاطئيْه فمن المُحتَمَل أن تتمكّنا من الإفلات بحياتكما .. لكن كيف تستطيعان الوصول إلى هذا النهر؟ .. تلك هى مشكلة المشاكِل.

فقلت:

- أنت تعلم أنني أنقذتُ حياتك ذات يوْم .. فعليك الآن أن توفّي ما عليك من دَيْن يا أبي .. فتُساعِدنا على الخروج من بلادك آمنين .. وتذكَّر يا أبي الجزاء العظيم الذي ستناله من "هي" إذا ما عادت إلى الظهور مرَّةً أُخرى - كما تقول - وعرفتْت بحُسن صنيعك معنا.

فأطرق الرجل هُنيْهةً كان وجهه خلالها مَسرحاً لشتّى الانفعالات، وأخيرا قال:

- حسناً يا ولدي .. لا تظن أنني رجلٌ جاحدٌ للجَميل .. فأنا ما زِلتُ أذكُر جيّداً كيف أنقذتَ حياتي عندما كان هؤلاء الكلاب ينظرون إليَّ ولا يُحرِّكون ساكِناً .. سيكون جزائي لك يا بُنيَّ من جِنس عملك .. وسأحاول جهد طاقتي أن أُنقِذكما .. اصغِ إليَّ الآن: تأهَّبا عند فجر الغد .. فستأتي الهوادج إلى هُنا لتجتازَ بكما الجبال والمستنقعات .. وسأُدخِل في روْع هؤلاء الوحوش أن تلك هي أوامر "هي" - التي يجب أن تُطاع - وأن

من يعصى الأمر فسيكون جزاؤه أن يُلقى لحمه طعاماً للوحوش .. وإذا ما اجتزتما المستنقعات فعليكما المسير وحدكما لعلَّكما تستطيعان الوصول إلى الماء الأسود .. آه .. ها هو الأسد قد استيْقظ .. هيّا تناولا الطعام الذي أعددتُه لكما.

استيْقظ "ليو" وكانت حالته أحسن كثيراً ممّا كان يوحي به مظهره الخارجي، وقد تناولنا طعامنا بشهيّةٍ ثم انطلقنا إلى غديرٍ قريبٍ فاغتسلنا، ثم قضيْنا بقية النهار نائميْن إلى أن استيْقظنا عند مُنتصِف الليْل على أصوات عددٍ كبيرٍ من الرجال كانوا يُعِدّون مُعِدّات الرحيل.

وعند الفجر جاءنا الشيْخ "بلال"، وقرَّر لنا أنه تمكَّن من الحصول على الرجال اللازمين مُستعيناً باسم "عائشة" المخيف ثم بدأنا رحلتنا الشاقة.

وقد أبى الشيْخ "بلال" إلّا أن يرافقنا بنفسه، ولعله خشى أن يُفرِّط في المحافظة على سلامتنا فتحاسبه "هي" على ذلك حساباً عسيراً وهو الذي كان يعتقد بأنها حيّة لم تمُت.

أخذنا نرتقي الأكَمة ولكن تبيَّن أن الرجال عاجزون عن التقدَّم وهم يحملوننا فوق مناكبهم فاضطررنا إلى الهبوط والسيْر على أقدامنا.

وقد بلغنا قِمّة ذلك السور الصخري العظيم عند الظُهر، وأخذت عيوننا منظراً جميلاً رائعاً فقد ظهرت سهول "خور" وخرائبها يتوسَّطها معبد "الحقيقة"، وكان عرض السور نحو ميل ونصف ميل فاجتزناه، ثم شرعنا في الهبوط بحذر فقد كانت الأرض مغطّاة بطبقةٍ من الطين تخلَّفت عن الأمطار التي هطلت في الليْلة المُنصَرِمة، وقد وصلنا إلى سفح الأكَمة عند غروب الشمس، فاستقر رأينا على قضاء الليْل فيها.

وحوالي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوْم التالي استأنفنا رحلتنا الشاقّة وسط المستنقعات المُروِّعة التي سبق ذكرها.

وبعد مسيرة ثلاثة أيّام استطعنا أن نجتاز هذه المنطقة الخطرة، وبلغنا أرضاً يابسة لا نبات فيها فتوقَّف الركب عن المسير، وجاءنا الشيْخ "بلال" مُوَدِّعاً فأُفعِم قلبانا أسىً وألماً فقد وقف الرجل يتخلَّل لحيته البيْضاء بأصابعه، ثم باركنا وقال:

- رافقتكما السلامة يا ولديَّ .. لم يعُد الآن في وسعي أن أساعدكما بشيء .. لكن إذا قُدِّر لكما أن تعودا إلى وطنكما سالميْن فحذارِ أن تُجازِفا مرّةً أُخرى بارتياد بقاعٍ مجهولةٍ منكما وإلّا أوْردتما نفسيْكما موارد التهلُكة.

وأطرق الرجل برأسه تأثُّراً وإشفاقاً، وساد الصمت هُنَيْهةً ثم استطرد الشيْخ:

- الوداع يا ولديَّ .. لن أنساكما مدى الحياة .. وأنت أيضاً لن تنساني أيّها البابون فإنك - رغم قُبحك - رجلٌ أمينٌ صادق.

ثم تحوَّل وذهب، وذهب معه الحمّالون وكان هذا آخر عهدنا بأُمّة "حجر".

وقفنا نرقبهم وهم عائدون بهوادجهم الفارغة كالمشيّعين يحملون جُثث القتلى من ساحة القتال، إلى أن عقد الضباب المُخيّم فوق المستنقعات حولهم ستاراً حجبهم عن أنظارنا.

كنا وحيديْن في فراغٍ لا نهائي، فرُحنا نُقلِّب الطرف في هذه الفلاة (الأرض الواسعة المُقفِرة) الموحِشة وفي قلوبنا رهبةٌ وفي عيوننا دمعة.

ونظر كِلانا إلى صاحبه وأطرقنا برأسيْنا، فقد أدرك كلٌّ مِنّا ما يجيش صدر الآخر، فمنذ ثلاثة أسابيع جئنا أربعة أشخاصٍ إلى خرائب "خور" فمات مِنّا اثنان (يقصد "محمد" و"جوب") ولاقيْنا نحن اللذان بقيْنا على قيْد الحياة أهوالاً تفوق أهوال الموْت، ثلاثة أسابيع!! .. نعم .. ثلاثة أسابيعٍ فقط ولكنها كانت أقسى وأشد هوْلاً من ثلاثة قرون.

قلت لـ"ليو":

- ينبغي أن نولّي وجوهنا شطر نهر "الزمبيزي" يا "ليو" .. ولو أنه تُخامِرني الريْبة في إمكان وصولنا إلى هناك.

فأطرق الشاب برأسه وكان كثير الصمت في الفترة الأخيرة، وكنتُ أنا من ناحيتي لا أُثقِل عليه كيلا أزيد في أحزانه وشجونه، ثم انطلقنا في طريقنا ولا شيء معنا غير ثيابنا تستُر اجسامنا وبوصلةٍ بحريّةٍ ومسدساتنا وبنادقنا ونحو مائتيْ طلقٍ ناري، انطلقنا يحدونا الأمل ببلوغ نهر "الزمبيزي" تتنازعنا عوامل اليأس لجهلنا الطريق، انطلقنا من خرائب "خور" التي جئناها بقلوبٍ عامرةٍ بالأمل البسام وغادرناها بقلوبٍ داميةٍ مُفعَمةٍ باليأس القاتل.

لستُ بحاجةٍ إلى ذِكر المخاطر والأهوال التي لاقيْناها طوال الرحلة الشاقّة بعد ذلك، فما لهذا كتبتُ قِصَّتي، وإنما كتبتُها ليطَّلع الملأ على تفاصيل حادثٍ لم يسبق له مثيلٌ في التاريخ.

قلتُ أننا لاقيْنا أهوالاً شداداً إبّان رحلتنا، ولكننا استطعنا في النهاية أن نصل إلى نهر "الزمبيزي"، ولكن حدث أن وقعنا أسيريْن في يد قبيلةٍ من القبائل المتوَحِشّة، ومكثنا في الأسر سِتّة أشهر، بيْد أننا استطعنا أن نتسلَّل هاربيْن بعد أن كُنّا في يأسٍ شديد من النجاة.

واجتزنا النهر، وتجوَّلنا جنوباً إلى ان قيَّض (قدَّر وهيّأ) الله لنا صيّاداً بُرتغاليّاً أكرم مثوانا وهيّأ لنا سبيل الوصول إلى ميناء "دار السلام" بعد ثمانية عشر شهراً انقضت على مغادرتنا لمستنقعات "خور".

وفى اليوْم التالي ركبنا إحدى البواخر التُجاريّة المُسافِرة إلى "إنجلترا"، وقد وصلنا إلى ميناء "ساوث هامبتون" بعد انقضاء عاميْن كامليْن على اليوْم الذي بدأنا فيه رحلتنا الشاقّة المَضنية.

وهأنذا اليوْم أسطر هذه القِصّة و"ليو" بجانبي في غُرفتي القديمة بجامعة "كمبردج"، وهي ذات الغُرفة التي جاء لزيارتي فيها صديقي المرحوم "فنسي" منذ اثنتيْن وعشرين وهو يحمل صندوقه الحديدي.

هنا تنتهي القِصّة من حيث صلتها بالعالم الخارجي، وأمّا نهايتها فيما يتعلَّق بي وبـ"ليو" فلا أستطيع التكهُّن بها، ولكننا نشعر بأنها لم تنتهِ بعد، فمن المُحتَمَل أن تمتد القِصّة التي بدأت منذ أكثر من ألفيْ عام إلى أجيالٍ عِدّةٍ في طريق المُستَقبَل البعيد المُظلِم.

وهُنا تُثار تساؤلاتٌ عديدة:

هل صحيح أن "ليو" هو "كاليكراتس" القديم الذي نُقِشَت قِصَّته على قِطعة الخزف القديمة؟، وهل حقّاً عاد إلى الحياة من جديد؟، وهل لـ"أوستين" علاقةٌ بـ"أمنارتس" المصريّة؟

للقارىء أن يُجيب على هذه الأسئلة بما يستخلصه من وقائع هذه القِصّة، وأمّا أنا فأرى أن "عائشة" لم تُخطىء فيما يتعلَّق بـ"ليو".

كم قضيْتُ الليالي ساهراً وأنا أحاول أن أستشف أحداث المُستقبَل من خلال قناع الزمن السميك!، وكم حاولتُ أن أتكهَّن بالنتائج التي ستتطوَّر

إليها هذه القِصّة والمسرح الذي ستجري فوْقه حوادث الفصل الثاني منها!

ثم إذا حدث هذا التطوَّر الأخير - وهو ما لا تساورني الريبة فيه إذ لابد أن يقع وسيقع طوْعاً لقوَّةٍ لا تتزعزع ولغايةٍ لا تتغيَّر - فما هو دور "أمنارتس" المصريّة الجميلة التي تنتمي إلى بيْت فرعوْن؟، والتي لأجل حبسها تنكَّر الكاهن "كاليكراتس" لعهود الإلهة "إيزيس" وفَرَّ منها، والإلهة الغيور تُطارِده حتى سقط صريعاً في "خور"".....

(تـمَّـــــت)

مؤلفات للكاتب
إبراهيم محمد

سلسلة الرِحلة

رِحْلة إلى حدود العالم.. لمعرفة الحقيقة
وإجابة سؤال.. أكروية هي أم مسطحة؟

1- **الرحِيل ج1**
2- **القصابون ج2 (قريبًا)**

سلسلة الغَيْهَبُ

حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيَّال

1- **بدايات مُخِيفة**

سلسلة عالم جديد

عالم ينهض من رماد حرب طاحنة
يبني حاضره.. وينظر مستقبله

1- **النهوض**

سلسلة البُسْتان

روايات تبحث لها عن ملجأ

1- **رواية خلاعيِّة**

سلسلة ما بعد النهاية

مع كل نهاية بداية جديدة

1- **كنوز الملك سليمان (قريبًا)**

«لقد قرأتم جميعًا مذكرات آلان كوترمين المعروفة باسم "كنوز الملك سليمان" وكيف انتهت مغامرتهم في أرض المور في مجاهل إفريقية، ولكن مذكرات جدي تقول غير ذلك، مذكرات جدي تقول أن هناك ثغرات كثيرة في رواية آلان كوترمين ، وأنَّ مذكراته تحكي نصف الحكاية فقط، ولست هنا لسد ثغرات روايته ، بل أكمل الحكاية من حيث انتهت مذكرات آلان كوترمين من مذكرات جدي».

للتحميل من موقع نور للكتب

www.noor-book.com/u/المنتهى/books

أو التحميل من موقع أرشيف

archive.org/details/@user615172


Wordsonsnowtablet@gmail.com


Wordsonsnowtablet


هي
(عائشة)